مجلة فصلية يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

السنة الثانية - العدد السادس - يونيو ٢٠٢١م

الشارقة...درّة الزمان

الملحمة المرتاضيّة

لِمَاذا نقْرَأ الأَدَبَ الكَلاسِيكيَّ؟

مَكْرُ اللُّغَة وَدَهَاؤُهَا

صَاحِبةُ الجَلالَةِ..لاَ تُورثُ كَلاَلَة

نسخة بي دي إف (PDF)

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

الترشّح لـ :

جائزة الألكسو.الشارقة للدراسات اللغوية والمعجمية

الدّورة الرابعة 2020-2021

وهبت نفسي للغة العربية

صاحب السموّ الشيخ الدكتور

سلطان بن محمد القاسمي

عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة – الرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

مجلة أدبيّة لغوية تصدر عن

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السنة الثانية - العدد السادس - يونيو ٢٠٢١ م

رئيس التحرير

د. امحمد صافي المستغانمي

أعضاء التحرير

د. مصطفى رابح بن عاشور

أ.د. بن عيسى باطاهر

د. فكري النجار

منسق العلاقات العامة

أ. ماجد الهولي

التصميم والإخراج

محمد خيَّال

المراسلات

هاتف: 400 60 51 6 971+

فاكس: 410 60 51 6 971+

ص.ب: الشارقة، 1973

البريد الإلكتروني: info@alashj.ae

الموقع الإلكتروني: www.alashj.ae

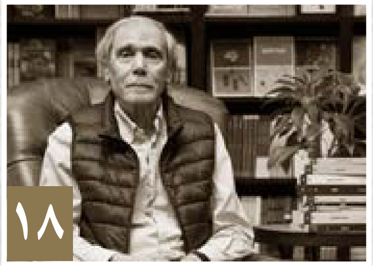

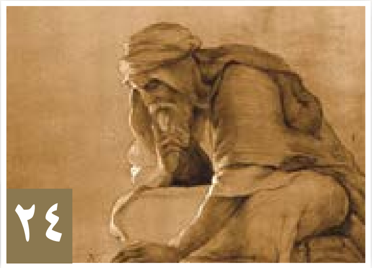

المحتويات

افتتاحية العدد ٧

الملحمة المرتاضيّة ٨

الاسْتِعَارِيُّ في لُغَةِ عَبْدِ القَاهِرِ الجُرْجَانِيِّ ١٤

لِمَاذَا نقرَأ الأدَبَ الكلَاسيكيَّ؟ ١٨

سَماءُ غَيْرَى ٢٢

اطِّرادُ صِيغَةِ (تَمَفْعَلَ) في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ المُعاصِرَة ٢٤

من نوادر الأعراب ٢٧

صَاحِبةُ الجَلالَةِ: لا تُورثُ كَلالَة ٢٨

مِنْ تَارِيخِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة ٣٢

الفُقَهَاءُ وَأَثَرُهُمْ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّة ٣٦

مَكْرُ اللُّغَةِ وَدَهَاؤُهَا ٤٠

مِيزَانُ النَّقْدِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ٤٦

هَمْزِيَّةُ حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ: قِرَاءَةٌ فِي المَتْنِ والفَنِّ ٥٠

«خِزَانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ» للبَغْدَادِيِّ ٥٤

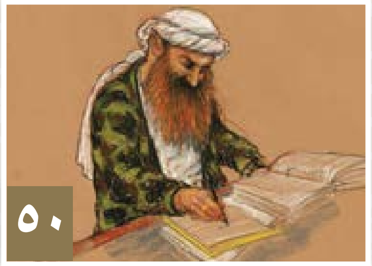

المحتويات

الشِّعْرُ بَيْنَ تَزْيِينِ الغَاوِينَ وَدَفْعِ المُرَابِطِين ٥٨

المدائحُ النَّبويةُ في الشِّعر العربيّ نشأةً وتاريخًا ٦٢

نحبُّك ياربّاه ٦٧

اهتمامُ المعاجم العَربية بالقرآن الكريم ٦٨

تحقيق كتاب سيبويه بين هارون والبكّاء ٧٢

إلى اللغة العربية الأم الخالدة ٧٨

الشُّعراء الرُّوَاة ٨٢

الأصل المعرفي للتشبيه ٨٦

سُعْدَى بنت الشَّمَرْدَل «النَّائحةُ الثَّكْلَى» ٩٢

القاعدة النّحويّة والإبداع الفنّي ٩٨

الشارقة درّة الزمان ١٠٢

يا صاحب الحوض العميم تحيّة ١٠٦

اللغة العربيّة ودورها في كتابة تاريخ العلم ١١٢

تصنيف علوم اللغة العربيّة ١٢٠

العربيّة وانحصار المعرفة ١٢٦

غلاف العدد

السنة الثانية - العدد السادس - يونيو ٢٠٢١ م

مجلة فصليّة يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللغة العربية وآدابها

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني amal.a@alashj.ae

لزيارة موقع مجمع اللغة العربية بالشارقة امسح رمز الاستجابة السريع بكاميرا الهاتف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾

[النَّحل الآية ١٠٣]

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

حمدًا فصلاةً فسلامًا، وبعد،

فها هو العدد السّادس يُطلُّ على قرّائنا الأعزّاء يحملُ بين طيّاته باقةً جميلة من أزاهير مقالات أدبيّة فنّيّة، وموضوعات لغويّة، وقصائد شعريّة، جادت بها قرائحُ كوكبة من أهل اللغة ومحبّي البيان العربي تواصلوا معنا راغبين في نشر ما تفتّقت به أكمامُ الإبداع لديهم فسالت به أقلامهم، ورصّعته أناملهم، فرحّبت بهم مجلّة «العربيّة لساني» أيّما ترحيب، وسُرّت بإبداعاتهم أيّما سرور. وها نحن نقدّمها إلى القرّاء الأكارم من مُحبّي لغة الضّاد وعاشقي الإبداع البياني العربي لعلّنا، بهذا النّشر المختار، والموضوعات المنتقاة، نستطيع ردّ شيء من الجميل إلى العربيّة التي ظلّت قرونا عديدة وأعواما مديدة تحملُ هوّيّتنا، وتذودُ عن تاريخنا، وتحفظُ ذائقتنا اللغويّة الجماعيّة.

نشيرُ إلى أنّ هذا العدد يضمّ بين دفّتيه جملةً من الموضوعات والمقالات، منها مقالٌ فنّيّ يتتبّعُ الحياة الأدبيّة ويترصّدُ الرُّواءَ النّقدي الباهر، والعطاء الفنّي النّاضر لكتابات علاّمة العربيّة في العصر الزّاهر الأديب الأريب النّاقد الدكتور عبد الملك مرتاض، وهذا المقال يندرج ضمن سلسلة مقالات تعريفيّة يكتبها الأمين العام لمجمع اللغة العربيّة الدكتور امحمد صافي المستغانمي تعريفا بأدباء العربية المعاصرين وتقديما للنّخبة الرّفيعة من اللغويين الذين يربطون ليلهم بنهارهم في خدمة العربيّة في العصر الحديث.

كما يتضمّن عددُنا هذا جملة من المقالات دبّجها أصحابُها رغبةً منهم في مشاركة القرّاء بموضوعات أدبيّة ولغويّة تستحقّ التّوقّفَ عندها والنّظر فيها بعين التّبصّر والتّدبّر مثل موضوع «الاستعاريّ في لغة عبد القاهر الجرجاني» حيث دعانا الدكتور يوسف رحايمي وهو باحث بلاغيّ تونسيّ إلى رحاب البلاغة الجُرجانيّة، وأطلعنا على جملة من أسرار فنّ الاستعارة لدى عبد القاهر الجرجاني رحمه الله تعالى.

كذلك يجذب انتباهَ القارئ في هذا العدد موضوعٌ أدبيٌّ جميل، خطّته أنامل أخينا الأستاذ الدكتور عبد الفتّاح الحجمري مدير مكتب تنسيق التّعريب بالرّباط حول موضوع قراءة الأدب الكلاسكيّ، ووسمه بسؤال: «لماذا نقرأ الأدب الكلاسيكيّ»، وهو موضوع شائق رائق ماتع جاذب جعلنا نُحلّق فيه معه مُطلّين على بعض خصائص الأدب الكلاسيكيّ لدى الأديب عبد الفتاح كليطو ونظراته الأدبيّة الكلاسيكية.

ومن الموضوعات الماتعة اللافتة للانتباه، يجد القارئ الكريم موضوعا عن مكر العربيّة ودهائها حيث عرّج فيه كاتبه الأستاذ الدكتور عبد الله آيت الإعشير على ظاهرة التّعريض في العربيّة الفصحى مُبيّنا كيف وظّفها الأدباء واللغويّون وغيرهم، ونجد في النّقد الأدبي موضوعا شائقا مُهمّا حول ميزان النّقد عند النّبي صلّى الله عليه وسلّم استطاع من خلاله الكاتب حسن الحضري تسليط بعض الأضواء الكاشفة حول الموازين والمعايير التي كان يوظّفها نبيّ الفصاحة والإبانة والتّبيين في ملحوظاته النّقديّة وتعليقاته الفنّيّة حول ما يُلقى على مسمعه وفي مجلسه من أشعار في ذلك الزّمن المجيد.

هذا، ويقتضينا الإنصاف، ويُلزمنا القسطاسُ المستقيم أن نتقدّم بالشّكر الجزيل والثّناء الجميل إلى كلّ مَنْ شاركوا معنا بإرسال مقالاتهم وموضوعاتهم وقصائدهم، ونثمّن جهودهم في نُصرة لغة الضّاد، ونَعِدُ جميع مراسلينا أنّنا سنجتهد في نشر ما يصلنا ممّا يتعلّق باللغة والأدب شريطة أن تستوفي الموضوعات المرسلة شروط النّشر التي نعمل على وفقها، داعين الله تبارك وتعالى أن يوفّقنا جميعا لخدمة اللغة العربيّة حاملة الذّكر الحكيم.

هيئة التّحرير

الملحمة المرتاضيّة

جهبذُ البيان، وعميدُ التّرسّل، ورائدُ النّقد الأدبي الحديث، الأديب الأريب، الأُستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض، وفاءً وتقديرا وتبجيلا.

بقلم
د. امحمد صافي المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

ليس من شأني أن أسوّد الصّحائف عن الآخرين أحسنوا أم أساؤوا؛ إذ ليس النّقدُ والنّظرُ في الكتابات الأدبيّة من وظيفتي ولا من اهتماماتي، ورحم اللّٰه امرءًا عرف قدره ونأى بنفسه عمّا لا يُحسن، وأحمد اللّٰه جلّ شأنه أن شغلني بالقرآن الكريم منذ شرخ الشّباب فقد كنت ولا أزالُ أمشي وئيدا رُويدا أنقّبُ في النّظم الجليل مستمتعا ببلاغة التّنزيل، وكلّ يوم يُوَلّي أزدادُ حسرةً على فوات نفائس الأوقات في غير دراسة الكتاب المبين الذي يُنجي من ضيق اللّحود، وينفع صاحبه في اليوم الموعود، يوم الوفود على مالك المُلك البَرّ الودود.

ولكنّي اليوم أجدُني مشدودا إلى الكتابة، مُنجذبًا إلى التّعبير، كأنّ بداخلي مناديا يُنادي: يا أيّهاَ المدَّثّر قمْ فأخبرْ، وامتشق اليراع وعَبّرْ، واشحذ سنّ القلم وابسُط أناملك على القرطاس، وأنشئ من فنون القول ما تستطيع وما لا تَسْطيع من النّسج البديع؛ والقول الرّفيع؛ فإنّ الشّأن جليل، لا يحتمل التّأجيل، والأمر يستحقُّ أنْ يُنَوّهَ به، وأن يُشاعَ ويُذاعَ، ومتى يَعرفُ أبناءُ العربيّة علماءَ العربيّة وفقهاءَها، وجهابذتها وفرسانها إن لم تُفتَحْ لهَم الآن القنوات، ولم تُكتبْ حولهم المقالات، وتُسوّد بمناقبهم الصّحائف، وتُزبَرْ عنهم الأسطار، وتُروَ عنهم الأخبار اليوم وهُمْ يُمَتّعون بوافر الصّحّة، وسابغ النّعَم؟!

ضيفنا اليوم في هذه الافتتاحيّة رجلٌ من رجالات الأدب والنّقد، نَدْرومِيُّ المولد، تلمسانيّ النّشأة، مغربيُّ الدّراسة، وهرانيّ السُّكنى والتّعليم الجامعيّ، أفنى حياته في تعليم طلاب الجامعات معنى الأدب، وبراعة الإنشاء، وجمال النّقد الأدبيّ، ولا يزال ـ أمدّه الله بوافر الصّحّة وسَرْبَلَهُ لباس العافية– مُجتهدًا في مدرّجات الجامعات ومحافل الآداب العالميّة محاضرا، ولأطروحات الدّكتوراه مُناقشا، وفي المسابقات العالميّة والجوائز الأدبيّة قاضيا وحَكَما.

منذ نشأته الأولى، رضع لبان العربيّة في التّعليم التقليديّ في رحاب الزّوايا والكتاتيب، حيث ارتوى من معين القرآن الكريم الذي لا ينضب، وحفظ متون النّحو والفقه على معهود المناهج العتيقة المتّبعة في معاهد العلم في بلاد المغرب العربيّ.

وما إن اشتدّ عوده، واستغلظ ساقه، واخضرّت أوراقه، وأينع شبابه، حتى ظهرت عليه مخايلُ النّجابة في الكتابة والتّرسّل. وشُغِفَ بحبّ الأدب العربيّ القديم، فراح ينهلُ من لجج بحاره، ويتضلَّعُ من معين أنهاره. كانت له صُحبة مع مقامات بديع الزّمان، واستهوته صناعتُها اللّفظيّة، وزخرفتُها البديعيّة، حتى أضحى بديعَ زمانه، وأعجوبةَ أقرانه، وشمسَ أيّامه، وبدرَ لياليه.

لا إخالُك إلاّ قد اهتديت مِن الوصف إلى الاسم، وعَبَرْتَ قنطرة التّخمين، وتجاوزت مفازة الخَرْص، وأيقنت أنّي أتحدّثُ عن جهبذ البيان، وفارس التّرسّل، وأمير التّعبير، وعميد كتّاب العربيّة في العصر الحديث دون منازع، صاحب الأساليب الإبداعيّة في الكتابات الأدبيّة والنّقديّة، وحليفِ المقامات، ونديم المعلّقات، وحِلْس المسابقات، وخليط المجامع والمحافل اللغويّة الأستاذ الأديب الأريب عبد الملك مرتاض، الذي شغل عشّاق الكلمة ومُحبّي الآداب، وهواة العربيّة بكتاباته الجاذبة الماتعة الرّائقة الشّائقة، النّاقد الأدبيّ الذي سارت بكتبه الرّكبان، وطارت بمقالاته الصّقور والعِقبان، وغنّت لها الحمائم، وصدحت جَذَلًا بها البلابل.

إنّ المتحدِّث عن عبد الملك مرتاض، ينتابه التّردّد وتتغشّاه سحائب العجب والحيرة، وهو يُقدّمُ رجلا ويُؤَخّر أخرى، لا يدري من أين يبدأ، توّاقًا أن يصف هذه القامة الأدبيّة، وما أحدثته من بُركان التَّغيير الذي ليس له نظير في دنيا الكتابة والتّعبير؛ وما ذاك إلاّ لأنّ جوانب الحديث عنه تتعدّد، ومساحات القول في كتاباته تطول وتتمدّد نظرًا لتعاطيه ضروبًا كثيرة من فنون القول الأدبي، وكلّما نظرت في كتاب من كتبه، أو أصغيت إلى حديث من أحاديثه، أو طالعت مقالا خطّته يداه الكريمتان، راقك منظرُ نتاجه، وشاقك إشراقُ بيانه، وراعك حُسْنُ رصفه للألفاظ، وجودةُ سَبْكه للجمل كأنّك أمام اللّجين المزخرف أو اللّؤلُؤ المُبَهْرَج أو الحرير المُدبَّج، ويتساءل المرء من أيّ زاوية أتناول هذا السّفر الأدبي الذي بين يديّ؟ هل أناقش حُسْنَ ترتيبه وبديع تبويبه أو إحكامَ نظمه وروعةَ نَسْجه أو جودة تنضيد كلماته وبهاءَ تطريز عباراته؟ ويطول بك سَفَرُ التّفكير وأنت تهتزّ سرورا بما تقرأ، وتتمايلُ جذلاً بما تسمع، وفؤادك يطربُ لما يدرك من المعاني الباهرة والأفكار النّاضرة يسوقها من ضمير الغيب، ويقدّمُها في باقات ورديّة ومزهريّات لفظيّة تسرّ النّاظرين وتثلج صدور المتأدّبين!

وقبل أن أُرْخي العنان في نعت بعض كتبه وأعماله، يحسن أن أعرّج بقرّائنا على الميزات والخصائص التي استماز بها أديبنا الدكتور عبد الملك مرتاض عن أقرانه، وعلا بها كَعْبُه على كتّاب زمانه، وأصبحت عنوانا لشخصه وأمارةً على أستاذيّته.

أُولى مناقبه أنّه رجلٌ ألمعيٌّ عصاميٌّ ذو همّة عالية تتربّعُ على هامة النّجم. لا يستطيع التّعبير أن يُوفّيَ همّتَه حقَّها من الوصف إلاّ أن يُردّد القول العربيّ القديم: همّة تعزلُ السّماك الأعزل عُلُوّا، وتجرُّ ذيلها على نجوم الثّريّا سمُوّا.

همّةٌ تُناطحُ الجوزاء في اكتساب العلم، وحرصٌ منقطع النّظير في تعلّم اللّسان العربيّ. كان في صباه الأوّل يقضي بياض أيّامه وسوادَ لياليه في مطالعة الكتب، ومحادثة الشّعراء والكتّاب، يستمع لهذا، ويُصغي إلى ذاك، يتجاذبُ أطرافَ الحديث مع شعراء المعلّقات، ويستأنسُ بأخبار الصعاليك، وهو في منادماته ومُسامراته مع روّاد الأدب ومصاقعة الخطابة وفحول الشّعر عصيُّ العريكة شديدُ المراس لا يُقادُ ولا ينقادُ، بل يُجادل وينافح عن فكرته، وينتقدُ ما يراهُ خطأ، ولا يكاد يستسلم كالكميّ المُدَجّج الذي يرى الموت أهون من الرّجوع إلى الدّيار خاوي الوطاب خائر

العزيمة مهيض الجناح.

تُذكِّرني همّته السّامقة العالية الباسقة قول الشّاعر العربيّ:

وكُنْ رجُلا رجلُه في الثّرى

وهامةُ همّته فوق الثّريّا

والمَنْقَبةُ الثانية التي تفرض نفسها على كل قارئ لمرتاض أنّ الرّجل أُشرِبَ قلبُهُ عِشقَ العربيّة فشَغِفَ بها كلفا، وأصبح بحبّها دَنِفا، وعاشَ مهووسا بصناعة الغريب، يحنُّ إلى الأنساق التّعبيريّة القويّة الجزلة التي كانت تلوكها ألسنة الفصحاء البلغاء من المولّدين والأقحاح. تشعر وأنت تقرأ كتابًا من كتبه أو تطالع مقالا من مقالاته كأنّك في خيمة من خيام عكاظ أو ذي المجنّة، أو أنّك تسير في شارع من شوارع بغداد في عصر الرّشيد والمأمون حيث كانت أسواق الآداب رائجة، ومتاجر الأشعار حافلة بالرّواة الحُفّاظ والشّعراء المطبوعين واللّغويّين المتأدّبين.

إذا قرأت لمرتاض، ستُدرك أنّ العربيّة بخير، وأنّ اللسان العربيّ عصيٌّ على الموت؛ إذ إنّ كتاباته تغصّ بالألفاظ الغريب، والنّظم العجيب، والصّنعة اللغويّة المتينة الرّصينة التي كانت تفيض بها أفواهُ الأعراب الفصحاء والبلغاء الأبيناء، كأنّك في بوادي الجزيرة تتقلّب من إيادٍ إلى تميم، ومن قيْس إلى عَبْس، ومن ذبيان إلى غطفان، وكأنّك على تُخوم الشام ترتحلُ من الغساسنة إلى المناذرة، تطوف بين قبائل العرب، يحدوك حبّ اللغة تجمع لآلئها، وتلتقط جواهرها، وتدوّن دُررها.

وإذا أردت أن تستبين مِصداق ما أقول فاستمع إليه في مقدّمة كتابه: نظريّة اللغة العربيّة، واحكُمْ بعد ذلك على أنّ القول الذي رفعه مرتاض شعارا لكتاباته، وجعله مَهْيعا مُطّردا في مقالاته ومداخلاته:

قال حفظه الله ورعاه: «**وتلكم كلماتٌ زبَرْناها ودَبّجناها، وحلّيناها وحبّرْناها، وهي بلغة القرآن سَفَرْناها، وأفكارٌ من العلم ناقشناها ثمّ قرّرناها، وأطرافٌ من جميلات العربيّة أحييناها فَسُقناها، ثمّ ازْدففناها ونَصَصْناها، نصَصْناها على طبقٍ حريريّ للقارئ الأريب الذي يهواها ولا "يقلاها"، لغة طيّء في "يقليها"، وهي الشاهدُ الذي تلاها فجلاّها:**

أيّامَ أُمِّ الغَمْر لا نَقْلاها

ولوْ تشاءُ قُبِّلت عيناها!

وإنّها لَلْعربيّةُ، رُبَّها لُغةً، ما أبدعها وأحلاها، وأوسعها وأجلاها، وأكملها وأرقاها، وأسهلها وأغناها.........».

لا أودّ الإطالة في سرد مقدّمة الكتاب، وإلاّ فإنّنا إذا تذوّقناها واستسْغناها، ولذّت حلاوتُها في أفواهنا فأحببناها، فإنّنا سنعزفُ عن مواصلة الحديث ونستنكفُ عن إتمام هذا المقال، ونلفي أنفسنا ضحيّة سحر هذا الكاتب الذي أعطته العربيّة مقاليدها، وسلّمته الكتابة البهيّةُ غيدَها وأماليدها.

تعكس كتابات مرتاض فكرا ثاقبا، ومذهبًا من القول ماتعًا جاذبًا، وذهنا متوقّدا، وحبّا للعربيّة عديم الشّبيه، وشغفا بالإبداع الكتابيّ يعزّ عن التّمثيل. يكتب كأنّه ينحت من صخر الألفاظ أو يغترف من بحر العبارات. في التّرسّل والوصف قلمُهُ يسيل كأنّه يغترف من النّيل، يُدبّج فيما يريد القول الجميل، ويصطاد المعنى الجليل، يكاد بسحر بيانه يُحوّرُ الباطل حقّا، ويجعل الحقّ من الأباطيل.

لا يجفّ مداده، ولا يستريح يراعه، وليس هذا ضربا من المبالغة، وإنتاجه الأدبي النّقدي الرّوائي يربو في مجموعه على الثمانين كتابا، كلّها روعةٌ في الأسلوب، وقمّة في التّعبير، وغاية في الإبداع الأدبي، والتّجديد النّقدي. كلّما استسهلت نفسُهُ القعود، واعتراها بعض الفتور والرّكود، تأبّى عليها بعزْمٍ لا يعرف النّوم، وذهن لا يسبق إليه الملل، ولا يدنو منه الكلل، وقارَعها بمشرفيّة الكتابة، وهُندوانيّ التّرسّل، وإذا بالإنشاء تجري أنهارُه وتنهمرُ أمطارُه وتُغرّدُ أطيارُه على أوراقه وقراطيسه.

قد يسأل سائل، وحُقّ لأبناء الجيل المعاصر الذين قضت عليهم أغوالُ التّكنولوجيا فأردتهم صَرعى في مفاوز الشابكة وصحارى المعلوماتيّة الواسعة الأطراف، واجتالتهم شياطين الحياة الماديّة حتى أرْدَتهم هلكى في ساحات اللغات الغربيّة وتبرّتهم تتْبيرا، وفارقوا العربيّة الأمّ حتى إنّهم لا يفقهون ما يسمعون، وإذا اصطدمت آذانهم يومًا مع بليغ القول فإنّهم يفرّون منه كأنّهم حُمُرٌ مستنفرة فرّت من قَسْورة.

نعم، أقول لو سأل سائل: عن سرّ البيان الرّاقي، والأسلوب العالي الذي تربّع به عبد الملك مرتاض على عرش البيان في العصر الحديث، هل هي الموهبة الرّبّانيّة أو الجِبِلّة الفطريّة أو البيئة المساعدة أو الهمّة العالية والاكتساب المستمرّ؟ أو كلّ أولئك وعوامل أُخَرُ؟

لهؤلاء ولغيرهم أقول: لا شكّ أنّ المواهب اللّدنيّة لها دورُها الذي لا يُنكر، وفعلُها الذي لا يُقْهَر، وعلاّم الغيوب جلّ جلاله قد قسّم الأرزاق، وأغدق على كل إنسان أعظمَ إغداقٍ بما يتناسبُ مع شخصه ومزاجه وتوجّهاته وميوله لعلمه – سبحانه – بخفيّات الصّدور. هذا شأنٌ لا ينكره عاقل، ولا يعترض عليه ذو مسكة من علم أو أثارة من منطق سليم، ولكن في الوقت نفسه، علينا أن نعلم بل أن نستيقن أنّ التّميّز والتألّق لا يأتيان من فراغ، وإنّما لهما مهرٌ غالٍ على كلّ مُبتغٍ للنّجاح توّاقٍ للتّفوّق أن يبذله. هذا المهْرُ هو السّهرُ مع الكتاب، ومعانقةُ الأوراق، ومنادمة العلماء والأدباء وأصحاب الكفايات في شتّى التّخصّصات، تُحدّثهم ويُحدّثونك عبر السّطور والطّروس، والكتب والقراطيس، والمقالات والمجلاّت.

إنّ أديبنا شمّر عن سواعد الجدّ في صباه، وطلّقَ التّسويف، وأطال صُحبة عيون مصادر الأدب، وأمّات أسْفار الشّعر العربيّ، وقد أخبرني مُشافهةً، وقد ازدلفت إليه في مجلس خاصّ في ليلة طاب هواؤها ورقّ نسيمها، وغرّدت أطيارها، ورفّت خمائلُها، التمست فيه منه النّصح والتّوجيه في رحلة الأدب والكتابة، قلت: أخبرني أنّه نزل في مُقتبل عمره وريعان شبابه ضيفا على المرزوقي شارح كتاب

الحماسة، وأطال الثّواء في دياره، وطعِمَ من أطايب موائده حتى أُتْخِم، وشرب من فرات شراب أشعاره حتى ارتوى، وجرت أشعار الحماسة في عروقه، وامتزجت عبارات المرزوقي بخلاياه، وانعكس ذلك كلّه في مرآة قريحته أدبا صافيا، وذوقا عاليا، وبيانا شافيا، تحلّت به مقالاته، وتزيّنت به كتاباته.

أقول: جديرٌ بمن يقرأ شرح ديوان الحماسة مرّة واحدة بإتقان وإمعانٍ أن يُجيد الإبانة والتّبيين، والفصاحة والإفصاح، فما بالك بصبٍّ عاشقٍ هيمان بالعربيّة جعل الحماسة جلْسَه وخليطه، ونادم المرزوقيّ حتى كاد يحفظ ألفاظه وعباراته، ألا يُشرِق بيانه؟ ألا يسمو تعبيره؟ ألا يرقى في مدارج الفصاحة والبلاغة تبيانه؟

أسلفت أنّ الدكتور عبد الملك مرتاض من المكثرين في الكتابة، قد حفلت المكتبات الورقيّة والرّقميّة بآثاره وإنتاجه الغزير، وكُتُبُه جمّة غنيّة، منوّعة ثريّة، النّظرُ فيها نعيمٌ مقيم، والاقتباس من بلاغاتها فتحٌ عظيم، وغُنْمٌ ثمين، وما أحرى طلاّب العلم وعُشّاق العربيّة أن يقتنوها ويصطحبوها فإنّها نعمت القنية، ونِعْمَ الصّديق.

تتميّز مؤلّفاته – على تنوّعها واختلاف موضوعاتها – بمقدّماتها المدبّجة المصقولة، المزخرفة المزيّنة، يُلْبِسُها أديبنا أحلى الحلل، وأبهى الفساتين كأنّها عروسٌ حان أوان زفافها، فازّيّنت وتعطّرت، وتسربلت بأجمل الثياب وتجمّلت، ومسّت من العطور المسكَ المضمّخ والعطر الزّكيّ.

استمع إليه، يا قارئي الكريم، في مقدّمة كتابه «السّبع معلّقات» وهو يفتح شهيّة القارئ العربيّ ليلج إلى حمى المعلّقات المقدّس وحدائقها البهيجة: «كيف يُمكنُ لأسرابٍ متناثرة من السّمات اللّفظيّة – حين تجتمع وتتعانق، وتتوامق، وتتجاورُ، وتتحاورُ، وتتضافرُ، فتتناسخُ ولا تتناثرُ – فتغتدي نَسْجًا من الكلام سحريًا، ونظاما من القول عطريًا؛ فأمّا العقولَ فتبهرُها، وأمّا القلوب فتسحرُها. فأنّى ينثال ذلك القَطْرُ المُعَطّرُ، ويتأتّى ذلك السّحرُ المُضَمّخ، لهذا النّسجِ الكلاميّ العجيب؟ وكيف تقع تلك العنايةُ البلاغيّة والتّعبيريّة للشّاعر، فيتفوّق ويستميز؟ ولِمَ يتفاوتُ الشّعراءُ في ذلك الفضل، فإذا هذا يغترفُ من بحر، وذاك ينحتُ من صخر، على حدّ تعبير المقولة النّقديّة التّراثيّة، ولِمَ، إذن، يتفاوتون في درجة الشّعريّة بين مُحلّق في العلاء، ومُعْدٍ في سبيل كأداء، وسارٍ في ليلة دأداء؟ ».

وإذا ولّيت وجهك شطر كتاباته الأدبيّة، فإنّك تحكمُ جازمًا، وتجزِمُ حاكمًا، وتحلِفُ صادقًا وتصدُقُ حالفًا غيرَ حانثٍ ولا مُرغَمٍ أنّك أمام كتابٍ من كتب الميامين التي تُعطى للأديب من قبَل اليمين، أو أنّك أمام الرّوض الزّاهر والشّجر النّاضر والبستان الباهر. أعرْهُ سمعك وهو يتأنّق في مقدّمة كتابه حول «رحلاته العشر وعجائبهنّ» ويتدفّق، ويختارُ أطايبَ الألفاظ وبهيّ العبارات ويتألّق، رغبةً منه في تحبيب أدب الرّحلات إلى فؤادك لتجتني بعض فوائد الارتحال والاغتراب: **«قد يكونُ أدبُ الرّحلِ، بالإضافة إلى أدب السّيَر، من أنبل الآداب جنسا، وأشرفه كتابة، وأصدقه عاطفة، وأذْفَقه وجدانا، وأمتعه تعبيرا، وأخفّه تلقّيا لدُن القرّاء؛ ذلك بأنّ هذا الأدبَ يأخذُ من المجتمع خفاياه وبقاياه، ومن التاريخ أحداثه وأخباره، ومن الحكْي شخصيّاته وسَرْديّته، ومن الجغرافيا تضاريسها وأمكنتها، ومن السّيرة الذاتيّة ملامحها ونضارتها، ثمّ لأنّه لا يعدمُ - أثناء كل ذلك- أن يأخُذَ من الإبداع في أنصع معانيه، ومن زُخرُفِ القول أنضر مجانيه: أدبيّته ورُواءَه».**

هذا، والأديب عبد الملك مرتاض متعدّد الهوايات الأدبيّة، والمشارب اللّغويّة؛ إذ لكتاباته الإبداعيّة حضورٌ في فنّ الرّواية، تقرأ له فتجدُ نفسك أمام بساتين فيحاء وحدائق غنّاء من الإبداع الرّوائي، الواقعيّ والخياليّ، وتحكم، غيرَ مُجانفٍ للصّواب، أنّك أمام روائي عصره وقصّاص دهره، خصّيصى حين يبسط لك القول في وصف أبطال رواياته، منمّقا أحاديثهم بالتّهكّم المقبول والسّخريّة الأدبيّة المرضيّة.

وهو بتعاطيه فنّ الرّواية، قد دحض مقولة: «النّاقدُ لا يُبدِعُ، والأكاديميُّ المنظّر لا يُمتِع»....وإنّ القارئَ المتصفّح لروايته الموسومة بـ « عين التّينة» ليَشُدُّه العجب، بل يستهويه ما يقرأ إلى حدّ الطّرب، ويحمدُ الله الكريم المنّان أنْ وهب لعصرنا الرّاهن صنّاجةً يُغنّي على قيثارة الأدب، فتتمايلُ لديه الألفاظ سَكرى، وتهتزُّ على سنّ قلمه العباراتُ راقصة، مُعجبة مُطربة، مُحرّكة للضّمائر مُلهبة، تقول بملء فيها: إنّ الإبانةَ والتّبيين في الجنس العربيّ تسري في العروق، وتجري في الدّماء، وهي في عبد الملك مرتاض جِبِلّةٌ مُقرّرة، ونعمةٌ مُسطّرة، ومنحةٌ خصّه بها الباري، وأكرمه بها المنعم الوهّاب، والله يؤتي فضله من يشاء من عباده.

وإن كنتَ في ريب من إطرائي لكتابته الرّوائيّة فاستمع إليه وهو يقول في مقدّمة «عين التّينة»: «(....) **وأزيزٌ مُتعالٍ، وهديرٌ مُتوالٍ، وكريرٌ محموم توقّر له الآذانُ وقْرًا. كان أزيزُ محرّك الحافلة المتقادمة يُسمَعُ من بعيد، غيرَ أنّ هذا البعيد لم يكُ بعيدا، بل كان يبدو قريبا. كما كان هذا القريبُ في نفسه يبدو بعيدا، أو لا القريبُ أصبح بعيدا، ولا البعيدُ صار قريبا. زال من الأحوال معانيها، وزاغت الألفاظ عن مبانيها...»**. واحكم أيّها القارئ على ما تسمع، وانظر ماذا ترى، وإنّي لواثقٌ بأنّك ستُثني عليه كما أثنيت عليه، وتُبدي في نفسك ما كنتَ تُخفيه، وترفع تحيّة الإكبار والإجلال، وتقرُّ بأنّك أمام جهبذ الرّواية المُحنّك، وجُذيلها المُحكّك، وعُذيقها المُرجّب، ولسوف تدعو له، كما أدعو له دوما، بالحفظ والسلامة وأن يبعد الله عنه أعين الحاسدين.

وفي نهاية هذه الرحلة الملكيّة، والجولة المُرتاضيّة، أدعوك، أخي القارئ، أن تقتني بعض كتب هذا الكاتب المقتدر ذي الأسلوب السّاحر والبيان الآسر، وتغترف من معين أدبه العذب الزّلال، وتحفظ من كلماته، وتستقي من بيّنات عباراته، وتأتسي بمهيعه في الكتابة والتّرسّل، فإنّك لا محالة ستجني علما نافعا، وأدبا ماتعا، ولسوف تعلو لغتك، ويُشرق بيانك، ويَفْصُحُ لسانك، فهو من الألى لا يشقى جليسهم، ولا يندمُ نديمُهم.

مارك جونسون وجورج لايكوف

الاسْتِعَاريُّ في لُغَةِ عَبْدِ القَاهِرِ الجُرْجَانِيِّ

د. يوسف رحايمي
أستاذ متعاقد في المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس

مدارُ هذه السُّطورِ على الاستعاريِّ في لغة عبد القاهر الجُرجانيِّ (ت: ٤٧١هـ) في كتابَيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وهي مُحاولةٌ تَنهضُ على النَّظَرِ في لُغَةِ الكتابةِ الَّتي اتَّخذَها الجُرجانيُّ سبيلًا من أجلِ تبسيطِ توجُّهاته اللُّغويّة. وعليه، فالمقصودُ بالاستعاريِّ هنا ليس الحديثَ عنِ الاستعارةِ في التَّقاليدِ المتعارَفِ عليها، وليس حديثًا عن الاستعارةِ كما عالَجها شيوخُ العربيَّة في تَقسيماتها وتفريعاتِها، وإنَّما هي الاستعارةُ بالمفهوم التَّصوّريِّ الإدراكي (Cognitive) نسبةً إلى الإدراكيين، تلك الّتي تتسرَّبُ في كَلامنا عنْ وعي أو عن غير وعي، وتَرْسُمُ تصوّراتٍ عابرةً للمجالات، فنَحنُ هنا بإزاءِ الاستعارةِ بوَصفها أداةَ تفكيرٍ واستنباطٍ وتحليلٍ. ونَظُنُّ أنَّ الجُرجانيَّ وهو يفسِّرُ للقارئ صنوفَ النَّحوِ والبلاغةِ كان منْ أدواتِ تعليلِه وتفسيرِه، أنِ اتَّخذَ الاستعارةَ طريقًا مِنْ طرائقِ القولِ ليُثَبِّتَ أفكارَهُ.

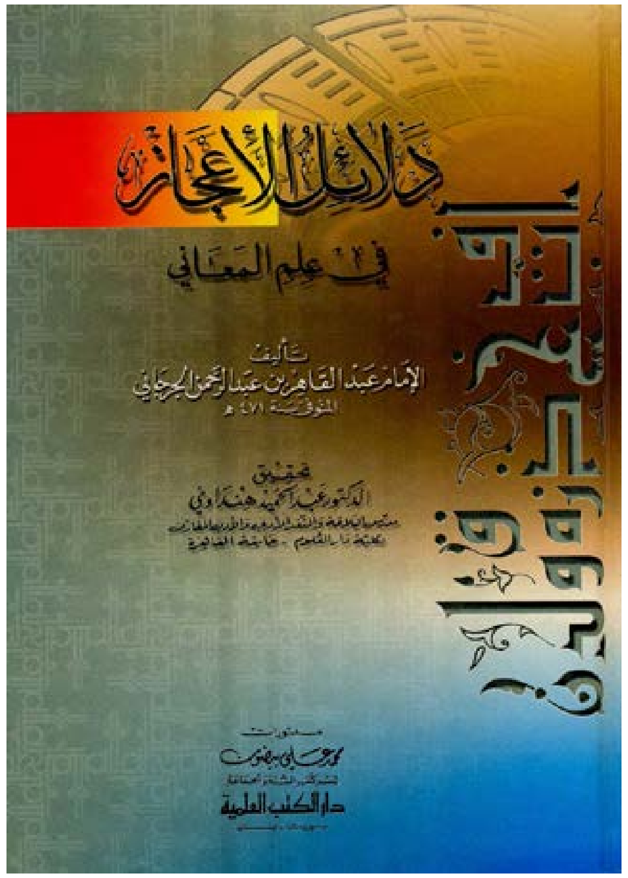

١- مِنَ الحديثِ عنِ الاستعارةِ إلى الحديثِ بالاستعارة:

لقد رأينا –ونحنُ نَتعقَّبُ لُغةَ الجُرجانيِّ الاستعاريَّةَ– أنْ نُمهِّدَ بمقدِّمةٍ نظريَّةٍ سريعةٍ حولَ المغزى مِنْ هذا الاستعاريِّ، حتّى يَجِدَ القارئُ نَفْسَهُ مُهيَأً لِبُلُوغِ المقصد. فالاستعاريُّ هنا ليسَ مُتحدَّثًا عنهُ بل مُتحدَّث به، وتفسيرُ ذلك أنَّنا سَنُفتِّشُ في خطابِ الجُرجانيِّ (الاستعاريِّ) الّذي اتَّخذَهُ وسيلةً للإفهامِ والإقناعِ، وتُسعِفُنا في ذلك نظريَّةُ جورج لايكوف ومارك جونسون المعروفة بالاستعارة التَّصوريَّة (Metaphor Conceptual) مِنْ خلالِ كتابَيهما المشهورِ «الاستعاراتُ الّتي نَحيا بها»(١). والطَّريفُ في شأنِ الاستعارةِ التَّصوريَّةِ أنَّها حَوَّلَتْ وجهةَ البحثِ في الاستعارة عمومًا مِنْ كَونِها مجرَّدَ زُخرفٍ بلاغيٍّ وضَرْبًا مِنَ المجازِ، إلى عدِّها آليَّةً مِنْ آليّاتِ تفكيرنا لها حضورٌ في الذِّهنِ والإدراك، هذا الإقرارُ يَتَجاوَزُ بنا مرحلةَ عدِّ الاستعارة مجرَّدَ حليٍّ في اللَّفظِ إلى عدِّها نَسَقًا فكريًّا لهُ حضورٌ في الفِكْرِ، ومتحكِّمة في تجربَتِنا اليوميَّةِ والحياتيَّةِ كَكُلّ. يقولُ لايكوف وجونسون: «إنّ نَسَقَنا التَّصوريَّ العاديَّ الّذي يُسيِّرُ تفكيرَنا وسلوكَنا له طبيعةٌ استعاريَّةٌ بالأساس»(٢).

ومِنَ المفيدِ أنْ نُنَبِّهَ إلى أنَّ الاستعارةَ التَّصوريَّةَ في جوهرِها قائمةٌ على ضربٍ مِنَ الإسقاطِ بينَ مجالٍ وآخر، وهذا الإسقاطُ محكومٌ بمَنطقٍ معيَّنٍ يَقَعُ فيه التَّناسُبُ بينَ المجالَين، فهي تعرَّفُ بكونها «فَهْمَ مجالٍ تصوُّريٍّ ما بِمَجالٍ تصوُّريٍّ آخر»(٣)، ووَفْقَ هذا نكونُ أمامَ فضاءَين في بناءِ الاستعارة: الفضاءِ أو المجالِ المصدر، والفضاءِ أو المجالِ الهدف، وفي تقاطعِ هذين الفضاءين نفهَمُ استعاراتٍ مِنْ قَبيلِ «اللُّغَةُ حياكةٌ» و«اللُّغةُ غوصٌ» و«اللُّغةُ صياغةٌ».

٢- اللُّغويُّ الحائك:

نَبْدأُ هذا التوظيفَ الاستعاريَّ مع الجُرجانيِّ (ت: ٤٧١هـ) مِنْ خلالِ كتابِه (دلائل الإعجاز)، وتحديدًا ضِمْنَ حديثِه عَنِ الفصاحةِ، حيثُ يَنطَلِقُ بتَشغيلِ استعارةِ الحياكةِ والنَّسجِ، الّتي سَنرى أنَّها تَتواترُ بكثرةٍ في لُغةِ الجُرجانيّ، فَيقولُ في مَعرِضِ حديثِه عنِ الفصاحةِ والبلاغةِ وتَفنُّنِ صاحبِ القولِ في ذلك: «كما يَذْكُرُ لكَ مَنْ تستوصِفُهُ عَمَلَ الدِّيباجِ المنقَّشِ ما تعلَمُ به وَجْهَ دقَّةِ الصَّنعَةِ، أو يَعْمَلُهُ بينَ يديكَ، حتّى ترى عيانًا –كيفَ تَذْهَبُ تلك الخيوطُ وتجيء؟». والمتَمَعِّنُ في هذا الشّاهدِ الّذي يحاولُ فيه الجُرجانيُّ تقريبَ الصُّورةِ للقارئ، يلاحظُ أنَّهُ قائمٌ على ضَرْبٍ مِنَ الإسقاطِ التَّصوريِّ بين مجالَين: مجالِ اللُّغة، ومجالِ الحياكةِ والنَّقشِ على الثِّيابِ، حيثُ يكونُ مجالُ الحياكةِ مجالًا مَصْدَرًا يَغْتَرِفُ منهُ الجُرْجانِيُّ معانيه، ويكونُ مجالُ اللُّغةِ المجالَ الهَدَفَ

(١) جورج لايكوف، مارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد الحميد جحفة، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩.

(٢) جورج لايكوف، مارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ص ٢١.

(٣) Zoltán Kövecses, Metaphor, practical introduction, Oxford University Press, New York, 2002, p4.

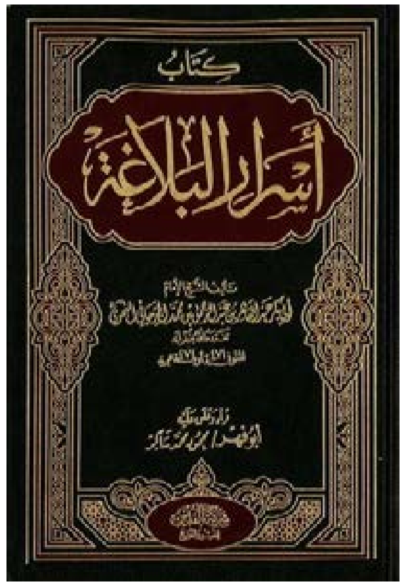

الّذي يُحاولُ الجُرجانيُّ تَبسيطَ تَصَوُّراتِه فيه. ومِنَ المهمِّ أنْ نُشيرَ في هذا السِّياقِ أنَّ ارتماءَ صاحبِ الدَّلائلِ إلى مجالِ الحياكةِ ليسَ اعتباطيًّا، وإنَّما لما بينَ المجالَينِ مِنْ تَناسُبٍ تصوُّريٍّ يسمحُ بنَجاحِ العمليَّةِ التَّقريبيَّة، وهو نجاحٌ تدعمُهُ المرجعيَّةُ الثَّقافيَّةُ، باعتبارِ أنَّ طرائقَ صُنْعِ اللُّغةِ تُحاكي طرائقَ الحياكةِ، والتَّناسُبُ قائمٌ بالأساسِ في التَّدقيقِ ومهارةِ نسْجِ الخيوطِ.

ولم يكتفِ الجرجانيُّ (ت:٤٧١هـ) بهذا النمط من الاستعارة بل بات يردّده في كثير من السياقات، ففي حديثه عن نظم الكلم ينخرط الجرجانيُّ في استعارة عامّة، يقول:«وإنما سبيلُ هذه المعاني سبيلُ الأَصباغِ التي تُعملُ منها الصورُ والنقوشُ. فكما أنك ترَى الرجلَ قد تَهدَّى في الأصباغِ التي عَمِلَ منها الصورةَ والنقشَ في ثوبه الذي نسجَ، إلى ضربٍ من التخيُّرِ والتدبُّرِ في أنفسِ الأصباغِ وفي مواقعها ومقاديرها، وكيفيةِ مَزْجِه لها، وترتيبِه إياها، إلى ما لم يتَهدَّ إليه صاحبُه، فجاءَ نَقْشُه من أجْلِ ذلك أعجَبَ، وصورتُه أغرَبَ؛ كذلك حالُ الشاعرِ والشاعرِ في توخِّيهما معانيَ النحو، ووجوهِه التي علمتَ أنها محصولُ النظْم.» ورأينا حَالَها معه حال الإبريسم مع الذي ينسج منه الديباج، وحال الفضة والذهب مع من يصوغ منهما الحليّ[٤].

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٣٦٢.

واستنادا إلى ما تقدّم، نلاحظ أنّ الجرجاني يتخذ من الاستعارة لغة يتوسّل بها الإفهام وتقريب الصورة إلى القارئ، ووجه الطرافة في كلّ هذا، أنّ المجالين: (مجال الحياكة ومجال اللغة) متناظران، حيث يكون الإسقاط مَنْطقيًّا، فلو لا وجود علاقة تصوريّة تتفق فيها ترسيمات المجالين لما كانت هذه الاستعارة دقيقة، فالعارف بدقائق صنعة الحياكة والنقش يدرك جيدا تناسبها مع مستعمل اللغة، وهذا سرّ الاستعارة التصورية التي تحاول فهم تجربة عن طريق تجربة أخرى.

٣- اللغويّ الصائغ:

ولعلّ من بين الاستعارات التي سيطرت على طرائق الجرجانيّ (ت:٤٧١هـ) التّفسيرية والتعليلية في كتابه دلائل الإعجاز نجد استعارة «اللغة صوغٌ»، والتي اختزلناها في «اللغويّ الصائغ»، حيث يحاول في سياقات متفرقة أن يثبت أنّ ناظم القول هو بمثابة من يصوغ الذهب ويذيبه ليستخرج منه الخواتم والقلائد والأسورة، وهذه الاستعارة في نظرنا دقيقة جدا لكونها تقرّب الصورة في ذهن المتلقي، يقول الجرجاني: «ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبّر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار ...وكما أنا لو فضلنا خاتما على خاتم، بأن تكون فضة هذا أجود أو فصه أنفس، لم يكن ذلك تفضيلا له، من حيث هو خاتم. كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه ألا يكون ذلك تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام، وهذا قاطع فاعرفه[٥]». ويقول في موضع آخر: «واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة[٦]».

وإن حاولنا فهم هذا الكلام الاستعاري فإنّنا سنجد أنّ الأمر لا يتعلّق باللّغة، أي استعمال لغة الذهب والصياغة وإنّما هي «الكيفية التي نُفَهْمُ بها مجالاً ذهنيا وَفْقًا لمجال آخر[٧]»، والحال هنا المجال المصدر وهو مجال الذهب وحرفته والمجال الهدف هو مجال اللّغة، حيث يتناسب المجالان في حُسن التصرف، يقول الجرجاني: «ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصّانع حين يأخذ كسرا من الذهب فيذيبها ثم يصبها في قالب، ويخرجها لك سِوَارًا أو خلخالا[٨]». فاللغوي في نظر صاحب أسرار البلاغة هو صائغ يُذيب الكلمات في بعضها ليخرج لنا نصا منظوماً تدقّ فيه الصنعة.

٤- اللغويّ الغوّاص:

علاوة على الاستعارتين السابقتين نعثر على استعارة كَثُفَ من استعمالها الجرجانيُّ (ت:٤٧١هـ) أيضًا وخاصَّة في كتابه أسرار البلاغة، وهي استعارة اللغة «غوصٌ» التي يقوم بها اللغوي الغوّاص. وهي طريقة معالجة ذكية من صاحب الأسرار، تحاول أن تصوّر صاحب اللغة وهو يفتش عن النكت والمزايا وكأنّه غوّاص يبحر في أعماق البحر ليستخرج الدّرر، يقول الجرجاني واصفا المعنى: «كان درًّا في قعر بَحْرٍ لا بدّ له من تكلّف الغوص عليه». والناظر في هذين المجالين اللذين أسقط فيهما الجرجاني مجال الغوص على مجال اللغة يلاحظ التقارب الشديد، وليس هذا فقط، فالأمر يتجاوز فعل التناسب إلى جعلنا نشعر أننا نغوص حقا ونفتش فعلا، فالبحث عن معنى المعنى مثلا هو عملية غوص تتطلب منّا الإبحار إلى ما وراء البنية لنستخرج المعاني الضمنيّة والبعيدة. إنّ هذا الضرب من الاستعارة يربط مجال اللّغة بفكرة الغوص، ويجعلنا –إن كنا لا نجد غوصا ماديا– نعيش غوصا باللغة.

(٥) نفسه، ص ١٦٥.
(٦) نفسه، ص ٤١٢.
(٧) جورج لايكوف النظرية المعاصرة للاستعارة، ص ٨.
(٨) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤١٤.

وفي مواضع كثيرة ترى الجرجانيّ (ت:٤٧١هـ) ينوّع في اللّغة المستعارة مفسّراً الاستعارة نفسها، فنحن بإزاء خطاب مستعار لتوضيح الاستعارة، يقول: «ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدّة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر[٩]». وإنْ أنت أمعنت النظر في كتاب أسرار البلاغة ستجد اللغة المستعارة تتحكّم في مفاصل الكتاب، حيث عثرنا على استعارة «اللغة طعام»، حيث يُسقط الجرجاني مجال اللغة على مجال التذوق في الطعام، ففي حديثه عن التشبيه العقلي يقول: «فالتشبيه العقليّ، إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفمَ واللسان، وإنما المعنى أنّك تجد منه في حالة الرضى والموافقة ما يملؤك سرورا وبهجة، حسب ما يجد ذائق العسل من لذة الحلاوة.»

صفوة القول من هذا الطواف في السلوك اللّغوي عند عبد القاهر الجرجانيّ (ت:٤٧١هـ)، هو أنّ لغته اتّسمت بطابع استعاري، كان أساسه اغتراف الجرجانيّ من زاد ثقافي تشبّع منه في تلك الفترة، وهو ما يكشف عن دور المرجع الثقافيّ في بناء التصوّر والاعتقاد، ونسْج خيال الشّاعر، ولعلّ الطّريف في كلّ هذه الجولة أنّ الاستعارة انخرطت في التّعليل والتّفسير فكانت حاضرة بقوة واغتدت آليةً من آليات تفكيك المسائل وتبسيطها، نظرا لكونها قادرة على تقريب المسائل.

(٩) نفسه، ص ٤٣.

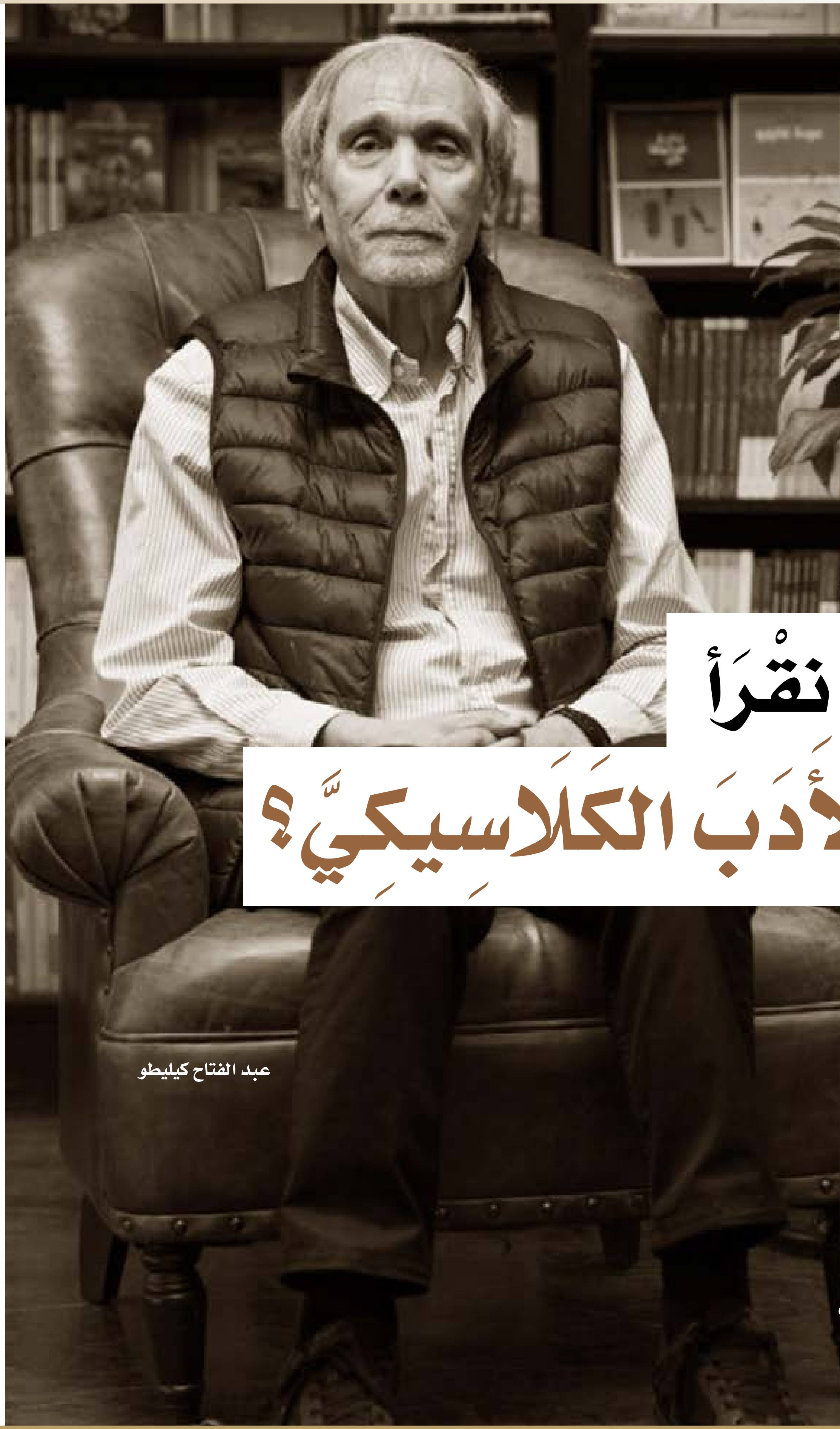

لِمَاذا نقْرأ الأَدَبَ الكَلاَسِيكِيَّ؟

عبد الفتاح كيليطو

عبد الفتاح الحجمري
مدير مكتب تنسيق التعريب
(ألكسو) الرباط

لماذا ننقُد النّصوص الأدبية؟ أمَا زالَ النقد ضروريا؟ هل كل النصوص الإبداعية قابلة لأن تنتقد؟ عمّ يبحث النص النقدي في النص الإبداعي؟

لا شك أنّ هذه الأسئلة وسواها تضع المتأمِّل في جوهر ماهية النّقد الأدبي ووظيفته، مثلما تضعه أمام البحث عن تصور (نظري) لطبيعة موضوعاته ومرجعياته ومناهجه التي يتوسل بواسطتها التعلّق بألوان شتَّى من الأنشطة الإبداعية، وما يوافقها من تجارب ومجالات تحدّدها علاقة الأدب بالثقافة. ويبدو أنّ النّظرية الأدبية لم تحسم الأمر بعد؛ ولذلك، فهي تطوّر وعيها باستمرار كلّما ظهرت الحاجة إلى تجديد علاقة النّصوص الأدبية باللغة الواصفة التي تقاربها، وكلّما أضحى الحديث ممكنًا عن تعميق البحث حول وظيفة الكتابة، وقدرتها على إنتاج متخيَّل اجتماعي يتعدّى نطاق جعل الأدب صورة من الواقع.

ثمة دائمًا اختيارات نظرية وتطبيقية تربط الكتابة الإبداعية بالكتابة النقدية، وتفتحهما على أبرز الإشكاليات الثقافية والفكرية لمجتمع ما، وهذا ما يخرج الكتابة النقدية من دائرة الاستعراض المنهجي ويلحقها بدائرة أكثر اتساعًا، تقترن من فهم القيمة الجمالية للأعمال الأدبية والفنّية. وهذا أمر يتطلب الانتباه إلى موقف إجرائي محتمل: إن الاهتمام بتغيير منظور السؤال النقدي لا يمكنه أن يتمّ بمعزل عن تغيير منظور السؤال الأدبي.

كيف نقرأ الأدب الكلاسيكي؟

لم يثرْ عبد الفتاح كيليطو سؤالاً عن ماهية الأدب بصيغة مباشرة في مجمل أبحاثه؛ بيد أنّه سؤال حاضر ضمنيًا بمفارقاته وبتاريخه، من هنا، لا ينشغل كيليطو في دراساته بالنظرية والتنظير، تجده أقرب إلى فهم «الخاصية الطبيعية» للنّصِّ الأدبي؛ لأنَّها تمنحه اليقين (أو ما يشبهه) وتبعد عنه اليأس؛ فقد قال ذات يوم: «نبدأ باليأس. نقرأ كتابًا ونشعر بأنّنا نرغب في الكتابة عنه، ثم لا نجد ما نقول ونيأس. في لحظة ما نجد صورة أو تستوقفنا كلمة، فنخطّها، ونرسم تلك الصورة، وهكذا تتجمّع الكلمات تتحاور الصور، المهمّ ألا يستمرّ اليأس».

مغالبة اليأس في قراءة الأدب ودراسته تصبح – إذن – لدى عبد الفتاح كيليطو شاغلًا ثقافيًا يمنحه حدودًا مرجعية ويوطّره بجملة من القواعد.

تدور كلّ أبحاث عبد الفتاح كيليطو حول الأدب الكلاسيكي – مع العلم أنه دارس ماهر للأدب الحديث أيضًا – ووفق اهتمام خاصّ ومتلاحق مداره سؤالٌ جوهريٌّ: كيف نقرأ الأدب الكلاسيكي؟ وقبل ذلك: ما معنى الكلاسيكية في الأدب؟ ولماذا نعيد قراءة الأدب الكلاسيكي ونجدّد فهمنا لأبعاده الجمالية والتاريخية والمعرفية؟ هل لاعتقادنا بأنَّ النّصوص التي استطاعت أن تكتسب صفة الكلاسيكية تتميّز عن غيرها بكونها ابتكرت شكلًا ومضمونًا غير مَسْبُوقَيْن؟ هل كانت الكلاسيكية في زمنها حداثة؟ في هذه الحالة، فالكلاسيكية مثلها مثل الحداثة مفهوم زمني. ربما لهذا الاعتبار يتسرّب إلينا الإحساس بكون الأعمال الكلاسيكية مُمِلَّة، وأنّنا نقرؤها فقط لأنّنا نكون مجبرين على ذلك في المدرسة والجامعة؛ الأدب الكلاسيكي بهذا المعنى أداة

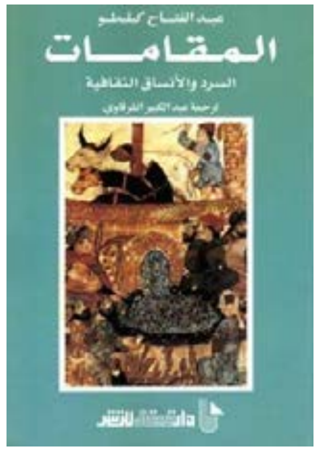

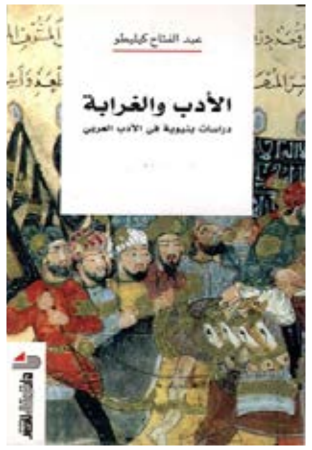

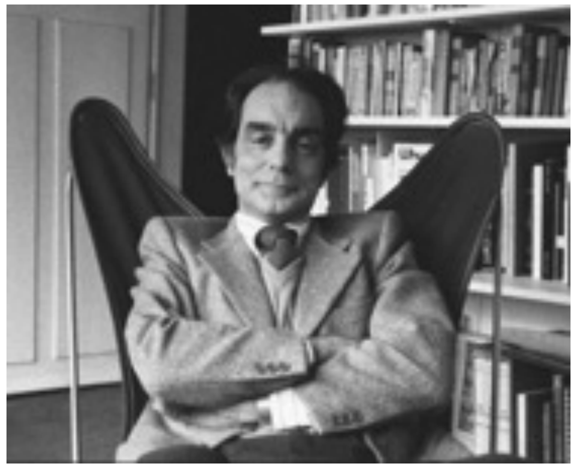

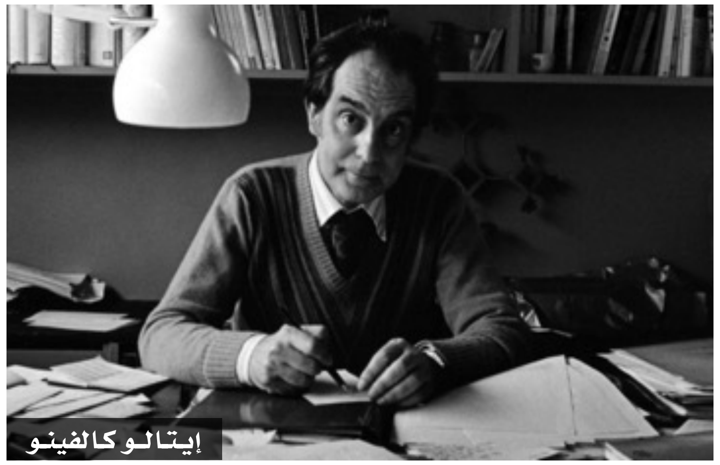
إيتالو كالفينو

بيداغوجية مفيدة للتعلّم.

لإيتالو كالفينو كتاب في هذا الموضوع « لماذا نقرأ كلاسيكيات الأدب؟»، خصّص مباحثه لبحث معنى الكلاسيكية في الأدب، وعلاقتها بأسئلة الكتابة والقراءة والأعراف الاجتماعية والمؤسّسة الثقافية وتاريخ الأدب. وبالرغم من اقتراح كالفينو للعديد من تحديدات الكلاسيكية في الأدب، إلَّا أنَّها ظلّت شخصية وحدسية، تترجم صعوبة التعريف ونسبيته. لم يتحدّث في كتابه عن ألف ليلة وليلة، ولا عن الإلياذة والأوديسة؛ ولم يلتفت إلى سيرفانتيس أو بوكاشيو، لا إلى شكسبير أو دوستويفسكي؛ حلّل ديدرو وديكنز، فلوبير وتولستوي، موباسان وتشيكوف، هانري جيمس، همنغواي وآخرين ... نقرأ بحث كالفينو، ويبقى مع ذلك السؤال عن معنى الكلاسيكية مفتوحًا ومتقاطعًا مع مسوّغات الاعتبار وتحديد السّمات. إن الأعمال الكلاسيكية، في تصوّر كالفينو هي تلك الكتب التي نسمع كثيراً من يقول عنها: إنني بصدد إعادة قراءتها، ولا نسمع أبداً من يقول: إنني بصدد قراءتها؛ إنها الكتب التي عندما تصل إلينا تكون حاملة لأثر القراءات التي سبقت قراءتنا، كما تستدعي الأثر الذي تركته في الثقافة أو الثقافات التي عبرتها.

أشرت سابقًا إلى أنّ عبد الفتاح كيليطو يتّخذ من الأدب الكلاسيكي مدار بحث وتحليل منذ «المقامات» و«الأدب والغرابة» و« الكتابة والتناسخ » و«الغائب» (١٩٧٨)، مرورا بـــ «الحكاية والتأويل» (١٩٨٨) و«لسان آدم» (١٩٩٥) و«أبو العلاء المعري أو متاهات القول» (٢٠٠٠)، و«الأدب والارتياب» (٢٠٠٧)، و«من شرفة ابن رشد »(٢٠٠٩)...قد يبدو من الصعب الإحاطة بكلّ القضايا التي تسمح باستخلاص فهم كيليطو لتصوّر الأدب الكلاسيكي في مجمل دراساته، سأكتفي بإشارات ذات قيمة تمثيلية تسمح بتقديم بعض عناصر الإجابة عن السؤال المركزي المشكّل لعنوان هذا المقال.

عادة ما يدير عبد الفتاح كيليطو فرضياته عن الأدب الكلاسيكي حول مفهوميْ النصّ والنّوع، يبحث في كيفية تعالقهما وتشكلهما بحسب مقتضيات التاريخ والمتخيّل الاجتماعي. لهذه الغاية، يمنح كيليطو لمكوّن اللغة مكانة خاصّة في تحليلاته، متخذا من مستويات القراءة وإجراءات التأويل خيارًا منهجيًا لفهم ماهية الأدب، وإقامة الدّليل على أن تشييد تصوّر للأدب الكلاسيكي يتمّ من خلال قرون متلاحقة تستتبع تقبلًا لمعاني النّصوص كما هي في الماضي والحاضر أيضًا.

خصّص كيليطو أحد مباحث القسم الأول من كتابه «الأدب والغرابة» لدراسة الأدب الكلاسيكي من خلال ملاحظات منهجية أدرجها ضمن سؤال عامّ: كيف ندرس الأدب الكلاسيكي؟ ، مؤكّدًا أنّه من الصّعب الإحاطة بملامح النّسق الكلاسيكي. ولا شكَّ أنَّ علاقة التوتّر الموجودة بيننا وبين النّصِّ الكلاسيكي ستستأثر بمزيد اهتمام ما دامت مؤلفات الماضي لا تقترب منّا إلا إذا بدأنا بإبعادها عنا (الأدب والغرابة: ص ٥٢)؛ ولا شكّ أن إحدى فرضيات «علاقتنا المعاصرة» بنصوص الماضي يمكن إدراجها

ضمن تاريخ للتلقي بوصفه شرطا لازما لفهم الآداب الكلاسيكية من منظور «التطوّر الأدبي».

يتساءل عبد الفتاح كيليطو في كتابه «المقامات»: ماذا نصنع بالهمذانيِّ والحريريّ؟؛ مثلما يتساءل في كتابه «من شرفة ابن رشد»: كيف نقرأ كليلة ودمنة؟، وفي كلّ مرة تقوده تقديرات التحليل إلى اعتبار أساسي مفاده أنّنا حين نعكف على درس أنفسنا نعكف على النّصّ الكلاسيكي، وأنّ الخطاب عن الماضي هو في الآن ذاته خطاب عن الحاضر (المقامات: ص٨). النصّ الكلاسيكي ثابت وقراءته متبدّلة ومتغيّرة؛ النص ثابت لأن لغة الأدب الكلاسيكي تبدو عتيقة ومتحجرة، أي تبدو بعيدة عن لغة الحياة اليومية. إن عتاقة اللغة علامة من علامات الأدبية وشرط من شروط الاعتراف بالكلاسيكية. (انظر: المقامات: ص ١٦٣–١٦٤).

من هنا حين يحلّل عبد الفتاح كيليطو حكايات من ألف ليلة وليلة أو من كليلة ودمنة، من مقامات الهمذاني أو الحريري؛ فإنه ينشغل أساسًا بفهم تمثّلات الكلاسيكية في الثقافة العربية، انطلاقًا من مبرّرات انتساب النص إلى نوع أو إلى تقليد أدبي، مانحًا للغة مفهومًا أوسع من مفهوميْ النصّ والنوع؛ وفي هذه الحالة، لماذا تختلف مقامة القرن ٤ ه /١٠ م عن مقامة نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠؟ الاختلاف كامن بينهما؛ لأنّ لكل منهما نسقًا أدبيًّا يحيل على استعمال معين للغة، وتصوّر للأدب يمنح المؤلف الكلاسيكي امتياز ابتداع القواعد لا اتباعها، لأنّ تطوّر الأدب لا يتمّ فقط من خلال تجديد الأشكال والجماليات، بل يتحدّد في علاقته بإيقاعات الحياة.

الخلاصة:

قراءة عبد الفتاح كيليطو للأدب الكلاسيكي ثقافية: عادة ما يعود إلى فقه اللغة، والتاريخ، والفلسفة، وعلم الأديان وعلم الأساطير ولسان العرب، ويتحدّد تطوّر الأدب الكلاسيكي –في نظره– بالداخل ويتحدّد أيضًا بسيرورة التاريخ الثقافي العامّ. والكلاسيكية في رأيه ليست مجموعة من الأعمال الأدبية، بل هي ممارسة في الكتابة وقدرة الثقافة على إنتاج أشكال أدبية ممتدة في الزمن، وهي ما يلزم تدريسه: في النص الكلاسيكي هناك معارف كثيرة تبني صرحه الأدبي، والكلاسيكية استعمال معين للغة لا بوصفها مادة تعبير، بل باعتبارها مادة تفكير، والكلاسيكية بلاغة وليست مغامرة شخصية لكاتب؛ والبلاغة هنا مجموعة من القيم المشروطة بمجتمع.

المراجع:

مجلة أوال عدد ١١ / ٧ – ١٣ يناير ٢٠١١

عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، توبقال، ط٣ ٢٠٠٦

عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، توبقال،١٩٩٣

Todorov Tzevetan, Critique de la critique : Un roman d'apprentissage, Paris : Seuil, 1984

Calvino Italo, Pourquoi lire les classiques, Traduction Jean-Paul Manganaro, Seuil, coll. Points, 1996

سَـمَــاءٌ غَـيْـرَى

هَـلْ غَــادَرَ الـشُّـعَـراءُ قِـيْـدَ الأُنْـمُـلَـهْ   لأَجُــرَّ مِـنْـهُ قَـصَـائِـدي الـمـتَـعَـطِّـلَـهْ
بِـمَـدِيـحِـهِ كـلُّ الـحـروفِ تَـوَشَّـحَـتْ   وجَـحَـافِـلُ الـمعْـنَـى أَتَــتْ مُـتَـوَسِّـلَـهْ
ولـقـد تــأَذَّنَ بـالـصّـبـاحِ زمـانُـنـا   مِــن بـعـدِ مـا ربّــي إلـيـنـا أرسَـلَـهْ
فـالأرضُ تـشـكـرُ لـلـسّـمـاءِ هـديّـةً   بَـشَـرًا ويسمو بـالـصِّـفـاتِ الـمـكْـمَـلَـهْ
الـوَحْـيُ أَحْـكَـمَ نُـطْـقَـهُ وفِـعَـالَـهُ   واللّٰه فـي خُـلُـقٍ وخَـلْـقٍ جَـمَّـلَـهْ
تُـوصِـي الـسَّـمـاءُ الأرضَ: هـذا حِـبُّـنـا   سـنُـعِـيـدُهُ، فـهُـنَـا بـنَـيْـنَـا مـنـزِلَـهْ
تـشـتـاقُ، تُـرسِـلُ خـلْـفَـهُ بِـسَـحـابَـةٍ   كَـيْـمَـا تَـرَى أخـبـارَهُ وتُـظَـلِّـلَـهْ
مـا كـانَ قَـصْـدِي أنْ أظَـلِّـلَ، إنَّـمَـا   صَـعُـبَ الـفِـراقُ، ولـسـتُ بـالـمـتَـحَـمِّـلَـهْ
سـتّـون عـامًـا وهْـيَ تَـرْقُـبُ مـن عَـلٍ   مـن شـوقِـهـا ثَـكْـلَـى تَـئِـنُّ وأرْمَـلَـهْ
إذْ جـارَ قَـوْمٌ فـي أَذاهُ فـأرْسَـلَـتْ   مَـلِـكَ الـجـبـالِ مـدافِـعًـا، فـاسْـتَـمْـهَـلَـهْ
قَـدْ أرسَـلَـتْ لـلأرضِ تَـطْـلُـبُ حِـبَّـهـا   لا عَـاشَ مُـؤْذِي فَـلْـذَتِـي، لا أُمَّ لَـهْ
مِـنْ حِـضْـنِـهـا عَـرَجَ الـحَـبِـيـبُ لـحِـضْـنِـهـا   ولـسـابِـعِ الأحـضَـانِ نـالَ الـمـنْـزِلَـهْ
ومَـشَـى ولا أحـدٌ هـنـالِـكَ قَـدْ مَـشَـى   ولِـقَـابِ قـوسَـيْـنِ الـنُّـهـى قَـدْ سِـيـقَ لَـهْ
وأتَــى، فَـغَـيَّـرَتِ الـبِـقَـاعُ لَـبُـوسَـهـا   فـالأرضُ عـيـدٌ، والـخـلائِـقُ حَـيْـعَـلَـهْ
وطَـوَى سِـنِـيـنًـا ثُـمَّ عَـادَ مُـخَـيِّـرًا   مـا أسْـعَـدَ الـفِـرْدَوْسَ حـيـنَ اسْـتَـقْـبَـلَـهْ

د. محـمـد حـراث
باحـث أكاديمي وأسـتـاذ جامـعـي

اطِّرَادُ صِيغَة (تَمَفْعَلَ) في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَة

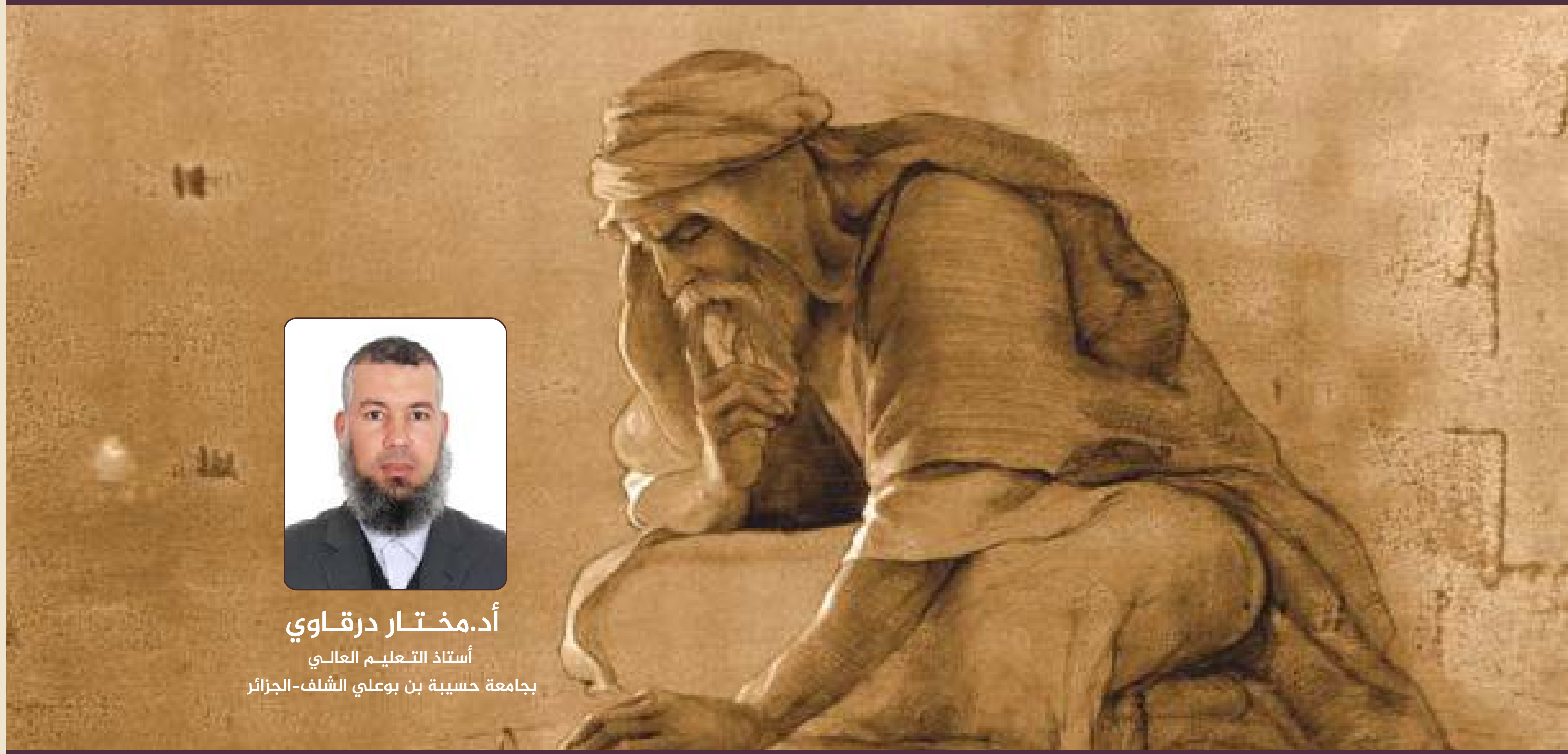

أ.د.مختار درقاوي
أستاذ التعليم العالي
بجامعة حسيبة بن بوعلي الشلف-الجزائر

تَميّزت اللغة العربيّة من بين أخواتها السّاميات بكثرة التفنّن في صيغ الأفعال والتنويع فيها، على نحو ما مثّل سيبويه (ت:١٨٠هـ) في صيغ الفعل الثلاثي المزيد؛ فقد ذكر أنّها اثنتا عشرة صيغة، على هذا الشكل: أفعل، فعّل، فاعل، تفعّل، تفاعل، افتعل، انفعلّ، افعلّ، استفعل، افعوّل، افعوعل، افعالّ[١] . وعند إمعان النّظر فيما كتبه النحاة واللغويون الآخرون تجد أنّهم قد استدركوا عليه سبع صيغ، هي: افَّعل مثل: ادَّبج؛ إذا لبس الديباج، وافْعَلَى مثل: اجْأَوَى الفرس؛ إذا عَلَتْهُ كُدرة، وافعيَّل مثل: اهْبَيَّخ الرّجل؛ إذا تبختر في مشيته، وافْعَوْلَلَ مثل: اعْثَوْجَجَ البعير؛ إذا أسرع، وافْوَنْعَلَ مثل: احْوَنْصَلَ الطائر؛ إذا أخرج حوصلته، وافْعَنْلى مثل: اسْلَنْقى الرجل؛ إذا نام على ظهره، وأخيرًا افْعَنْلل مثل: اسْحَنْكك الليل؛ إذا اشتدّت ظلمته[٢] .

(١) ينظر: شوقي ضيف، تيسيرات لغوية، دار المعارف، ط١٩٩٠، القاهرة، ص٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٨.

ولفت انتباه شوقي ضيف وأحمد مختار عمر وإبراهيم السامرائي –رحمهم الله– في هذه الصيغ السبع المستدركة على سيبويه، أنّ النّحاة واللغويين عزّ عليهم أن يجدوا لكل منها في اللغة العربية أكثر من مثال واحد، وهو مثال نادر وشديد، ولعل ذلك ما جعل سيبويه يُهملها جميعًا[٣] ، في حين كان أولى باللغويين والنّحاة أن يستدركوا صيغة «تَمَفْعَلَ»[٤]، التي ساق لها ابن جني (ت:٣٩٢ه) في الخصائص ستة أمثلة، واحتج لها قائلا: «وجاء تَمَسْكَنَ، وتَمَدْرَعَ، وتمَنْطق، وتَمَنْدَل، وتمَخْرق، وتمَسْلَمَ[٥] فتحمّلوا ما فيه تبقية الزائد مع الأصل في حالة الاشتقاق، كل ذلك توفية للمعنى وحِراسة له، ودلالة عليه، ألا تراهم إذا قالوا: تدَرَّع، وتسَكَّن عرَّضوا أنفسهم لئلا يعرف غرضهم: أمن الدرع والسكون؛ أم من المِدْرعة والمَسْكنة؟ وفي هذا حُرْمة الزائد في الكلمة عندهم حتى أقروه إقرار الأصول[٦] . والذي يمعن النظر في كلام ابن جني، يدرك أنّه لا يكتفي بإثبات صيغة «تمفعل» فحسب بل يضيف احتجاجًا لها ذا شقين[٧]:

- **الشقّ الأوّل:** وهو أنّ العرب لجأت إلى هذه الصيغة للتفرقة بين دلالتين؛ دلالة الفعل المشتق من الحروف الأصلية، ودلالة الفعل المشتق منها ومما زيد معها من الميم، ويوضّح ابن جنّي ذلك في الفعلين: تَمَدْرَع وتَمَسْكَنَ؛ فإنّ دلالة مجرّدهما من الميم: تدرّع وتسكّن تغاير دلالة المزيد، فتدرّع لبس درع الحرب، وتمدرع: لبس مِدرعةً أو قميصًا من الصّوف، وسكن من السّكون ضد الحركة، وتَمَسْكَنَ من المسكنة؛ أي الفقر، ويقال: أسلم الرجل إذا دخل في الإسلام، وتمَسْلَمَ إذا تسمّى باسم مسلم، وواضح أن صيغة تمفعل في الأمثلة كلها تعبّر عن دلالة خاصة بجانب دلالة الفعل قبل زيادة الميم فيه.

- **الشقّ الثاني:** يكمل ابن جنّي (ت:٣٩٢هـ) احتجاجه للصيغة التي بنيت على أساسها هذه الأفعال، وهي صيغة «تمفعل»، فيقول: إن للحرف الزائد في الكلمة عند العرب كحرف الميم في هذه الصيغة ما للحرف الأصلي في حُرمة في الاشتقاق. وواضح أنّ العرب تصنع ذلك حين تريد التعبير عن دلالات جديدة بجانب دلالات الكلمات المجردة، مما يجعل الحرف الزائد في الألفاظ يأخذ حكم الحروف الأصلية؛ وبذلك كلّه يكون ابن جني (ت:٣٩٢هـ) أوّل من بسط النظر في هذه الصيغة «صيغة تمفعل» بما ذكر لها من أمثلة، ولم يكتفِ بذلك فقد وضع في يدها احتجاجًا قويمًا سديدًا.

– أمثلة عصرية لصيغة «تمفعل» في معجم أحمد مختار عمر ومعجم إبراهيم السامرائي[٨]:

– تَمَحْلَسَ له: إذا تزلّف وتقرّب إليه.

– تَمَخْطَرَ: إذا مشى مشيًا فيه عُجْب وخيلاء.

– تَمَذْهَبَ: إذا اتبع مذهبًا أو معتقدًا ما.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٤) أشار سيبويه إلى صيغة «تمفعل»، ولكن لم يضمها إلى حقل أبنية الثلاثي المزيد.

(٥) ذكر ابن جني في سر صناعة الإعراب «حكى ابن الأعرابي عن أبي زياد: فلان يتمولى علينا»، ص٤٣٣.

(٦) ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ٢٢٨/١.

(٧) ينظر: شوقي ضيف، تيسيرات لغوية، ص٩٩-١٠٠.

(٨) ينظر: إبراهيم السامرائي، معجم ودراسة في العربية المعاصرة، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠٠، بيروت، ص٦٣-٦٤-٦٥. وينظر: أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، عالم الكتب، ط١ ٢٠٠٨، القاهرة، ٢٥٨/١...٢٦٣.

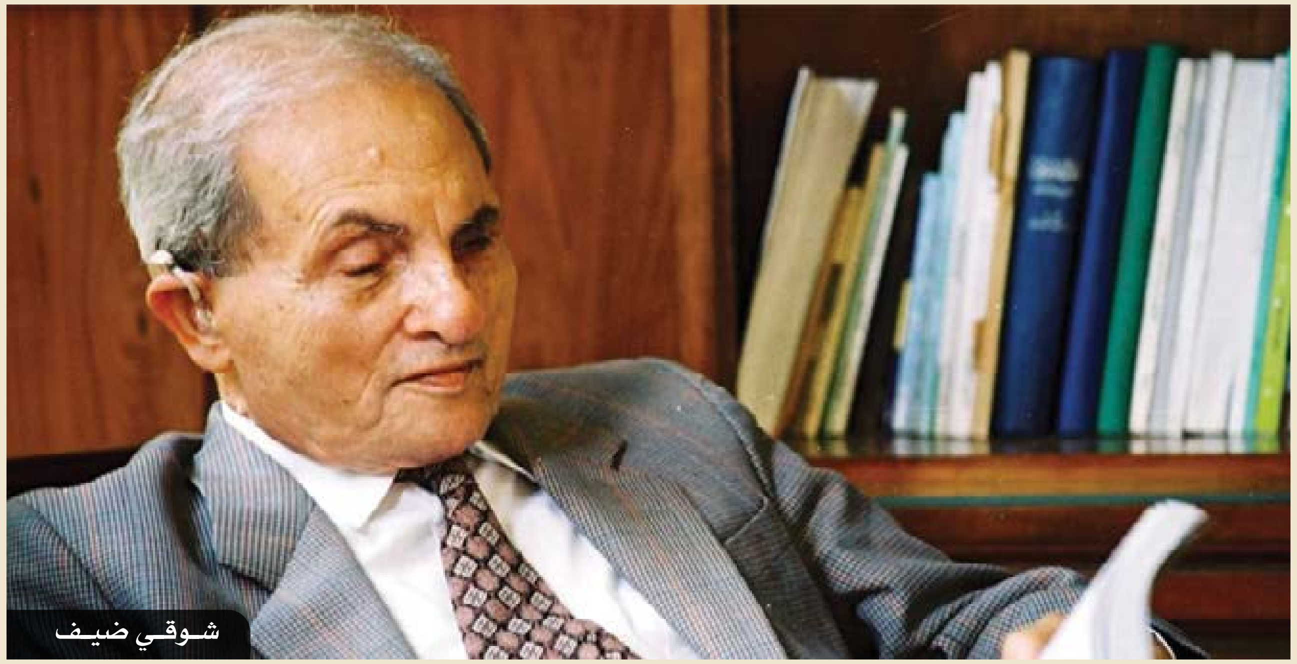

شوقي ضيف

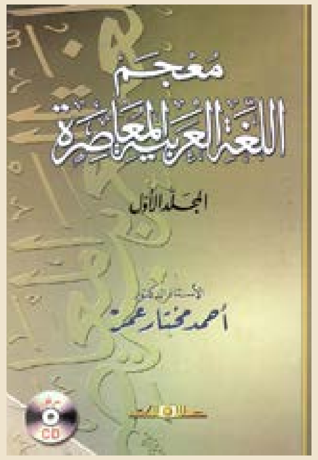

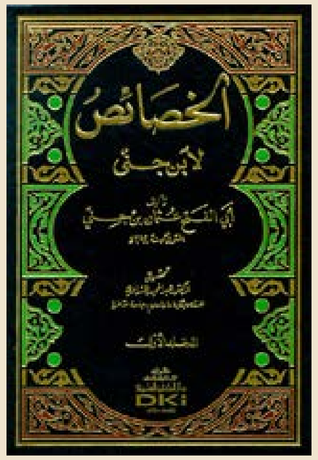

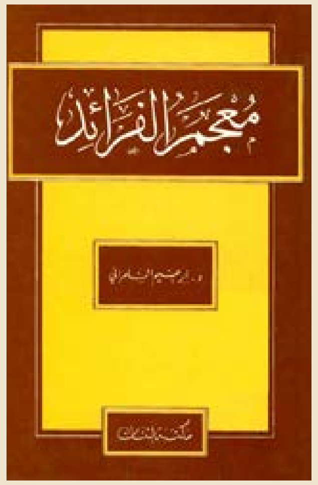

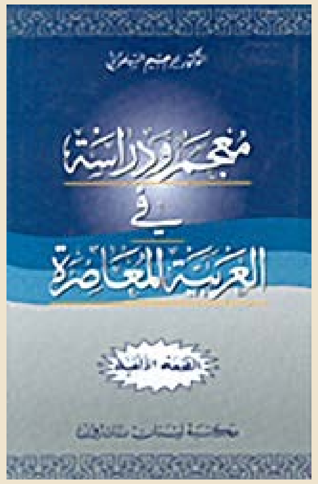

– تَمَرْجَحَ: إذا ركب المرجوحة أو الأرجوحة.

– تَمَرْجَلَ: إذا اصطنع الرجولة.

– تَمَرْقَعَ: إذا أفرط في المرقعة والصفاقة.

– تَمَرْكَزَ: إذا استقر في مركزها.

– تَمَسْخَرَ: إذا فعل ما يثير سخرية الآخرين.

– تَمَسْمَرَ الخشب: إذا شدّ شَدًا قويًا بمسمار.

– تَمَشْوَرَ: إذا سار مشوارًا طويلا أو مشاوير متعدّدة.

– تَمَشْيَخَ: إذا تكلّف الوقار وتظاهر به.

– تَمَطْوَحَ: إذا بعد جدًّا.

– تَمَهْمَزَ: كأنما يتحرّك بمهماز.

وهناك أمثلة أخرى، كتَمَأَلَ عليه بمعنى سخر منه، وتَمَحْوَرَتِ الدولة بمعنى كوّنت مع دولة أو دول محورًا سياسيًا، وتَمَظْهَرَ إذا عُني بمظهره، وتَمَعْجَنَ الدَّقيق إذا اشتدَّ عجنه، وتَمَعْظَمَ وتَمَعْلَمَ إذا ادّعى العظمة والمعلمة، وتَمَفْصَلَ بمعنى تحرّك بما يشبه التحرّك بالمفاصل، وتَمَكْرَمَ إذا صنع مكرمة، وتَمَنْظَرَ إذا أعجب بمنظره أو بفكره أكثر مما ينبغي، وتَمَهْزَأَ به إذا جعل منه مهزأة وسخرية، وغير ذلك من الأمثلة التي تفرض علينا إضافة صيغة تمفعل إلى صيغ الفعل الثلاثي المزيد في كتب التصريف واللغة.

من نوادر الأعراب

خاصم أعرابيٌّ زوجته قبيل صلاة الفجر، فقال لها: اذهبي فأنت طالق. فقالت: قبّحك الله، كم تنافق. ثمّ خرج إلى الصّلاة، فإذا الإمام يفتتح بقراءة: ﴿الأعرابُ أَشَدُّ كُفْرًا ونِفَاقًا﴾؛ فصاح الأعرابيّ، ولم يعلم أنها آية في الكتاب، وأنت ما دخلُك بيننا يا ثقيل؟! أشهِدكم أنّني راجعت زوجتي، نكاية بإمامكم! وترك الصّلاة وخرج.

مات لأعرابيّ ولدٌ صغير، فقيل له: أبشر، فإنّه يكون شفيعا لك يوم القيامة. فقال: لا وكَلنا الله إلى شفاعته. إذًا والله يكون أعْيانا لسانا وأضْعَفَنا حُجّة! ليته فقط يكفينا نفسه.

ترك أعرابي إبله في السفح وانحدر يُصلّي مع الناس صلاة المغرب، فأطال الإمام القراءة، حتى ضجر الناس، وهمَّ الأعرابي، لخوفه الذئب على إبله، بترك الصلاة. ولمّا خرج الناس سمع الأعرابي رجلا يتذمّر ويقول لآخر: لقد أطال الإمام القراءة اليوم! فقال الأوّل: نعم. قرأ فينا من البقرة. فقال الأعرابي، ولم يعلم أن البقرة سورة في القرآن: البقرة؟ كلّ هذا بقرة؟ والله لقد كادت بقرته تذهب بكلّ إبلي!

استأجر أعرابيّ بيتا، وكان خشب السّقف يقرقع كثيرا، فلمّا جاء صاحب البيت يطالبه بالأجرة قال له: أصلح سقف بيتك، فإنّه يقرقع! فقال المالك: لا بأس عليك، إنه يسبّح الله! فقال الأعرابي: أخشى أن يدركه الخشوع فيسجد علينا!

صَاحِبَةُ الجَلَالَةِ؛ لَا تُورَثُ كَلَالَة

د. عبد الحفيظ شريف
جامعة البويرة - الجزائر

من حقِّ صاحب المقام العليِّ أنْ يعرف فينا مقامَه، ومِن كمال العدل أنْ يُنْصَفَ فَيُؤتَى من العِرفان تَمامَه، هي اللُّغة العربية، وقد اجتَمَع لها ما استحقَّت –لو أُنصِفت– مقام صاحبةِ الجلالة، ولكنَّها فُجِعَت بالأمرَّيْن في كريم السُّلالة، واجتمع عليه اليُتم والثَّكْل، أفتورَث كلالة؟

حالُ العربية اليومَ أمٌّ رؤوم عقَّها أبناؤها، والعقوقُ في الأبناء اليوم مَسْلك المُتنوِّرين، وأَسْلمَها سَدنَتُها، والعهد أنَّ السَّادِنَ لا يلين، فكانت مأساةُ العربية في قومِها، قد أدركهم ممَّا أصابها بالتَّبع النَّكال، وفي خفَّة من عقل حسبوها ملهاة، فحاق بِهم من حلَّ بها سوءُ النِّزال، تُصابر العربية اليومَ بين أَثافِيَّ ثلاثٍ، وأنصارُها– على قلَّة– واجِمُون، قد شَردت بهم مطايا الخلاص، ورأوا حتوفَهُم عيانا ما لهم منها مناص، فوَهَنت الوسيلة، وقلَّت الحيلة، وانزوى أهل الرَّأي يكابدون المواجع، ونادى منادي النَّجاة فيهم: أمَا لهذا النَّازل من دافع؟ أيَا لَلْعربية اليوم من وليٍّ خائر؟ ودعيٍّ ماكر، وعدو جائر؟ أيُكشَف عنها إلى مُكْنةٍ واستمرار، أم إلى انحسار فاندثار؟ فمن ذا الذي يُحْيِي في الأُمَّة هذا المَوَات؟ وأيُّ سبيلٍ تُسلَكُ لدفع هذا الشَّتات؟ تَعَالَت دعواتُ التَّرغيب في السُؤْدَد والمجد فقلَّ المُجِيب، وأَنْذَر عقلاءُ القَومِ سُوءَ العاقبةِ فلا أَريب، وتَوزَّع دمُ صاحبة الجلالة بين القبائل، فلم يُعرَف الحَامِي من الطَّاعن حينَ كَثُر الطَّاعِنون، واسْتجارت بِأهلِها تنشُدُهم الله والرَّحِم، وهُم في غَيِّهِم يعْمَهون، أَيُريدون بها كَيْدا؛ أم هم المَكِيدُون!؟

أَيُرْجَى لِلعربية عِزٌّ وحُضُور، وليس لها من مُعلِّمها إلاَّ الشَّكوى والضَّجر، قد رَضِي مِنْ دَرْسِها بما يُمْضي الدَّرس أو بعضَه إلاَّ فيما نَدَر، أحاط به ما أَفْقَدَه شهية الإرث والتَّوْريث، أيرثها وهي لم تعد تُدرُّ خبزا ولا إداما؟ ولمَنْ يُورِّثها؟ أَمُتعلِّما مُدبرًا صار له الهُونُ لِزامًا؟ ترطَّن –مُفَاخِرًا– منه اللِّسانُ، وَعَزَّ عليه– مَا قَلَّ– بالعربية البيانُ؟ وبَعُدت الشُّقَّة بين مُعلِّمٍ حائرٍ، ومُتعلِّم نَافِر، فرَكَنَ كلاهما إلى الدّعَة يبتَغِيَانِها، ورَضِيا بالحال مُستأنسين؛ كيف تَطمَعُ اللُّغة العربِيةُ في عِزٍّ تُؤَمِّلُه، وقد صودر في قاعات الدَّرس حقُّها فلا حُظوةَ لها بين المحابر؟ ولا لها ذكر بين شرائح البحث وأنابيب المخابر؟ تُراوح المكان بين دعوى دَعيٍّ يُشيعُ مستكثرًا ناقمًا: ألا يكفيكم لها أنَّها مَلِكةُ المنابر! ألاَّ تُقرُّون لها بحجز مقام الوعظ في المقابر؟ وفي الدُور والقصور، والمكاتب والملاعب، والمصانع والمزارع، قوم لُكْنٌ، قد تعلَّق منهم بآخرين الجِنَان؟ أَلَيْس كلُّ ما

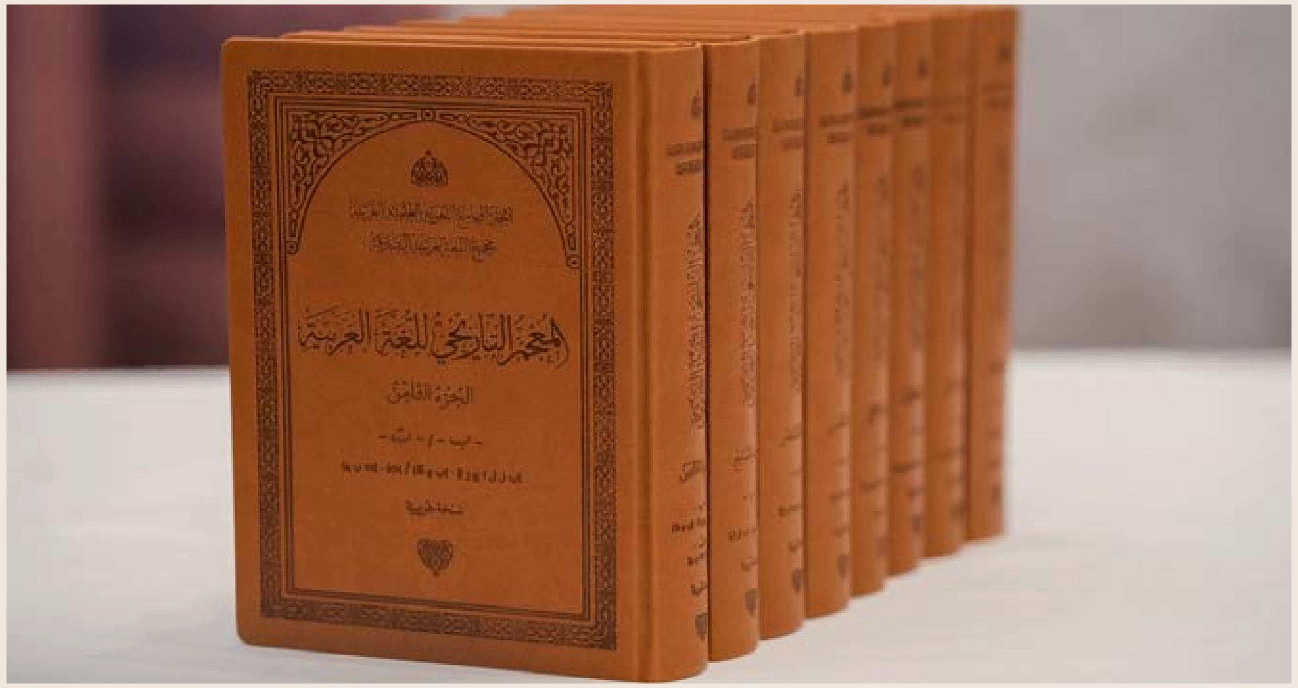

في الدِّيار ذِلَّةٌ وهَوَانٌ؟!

كيف تأمَلُ العربيةُ الموئلَ والمكانةَ عند إعلاميّين رَأوا فيها الزُّلفى لدى فلانٍ وفُلانة، فساموها خسْفا وذُلًّا ومهانة، وجَمَعُوا إليها ضرائرَ بلا حدٍّ من عاميَّاتٍ وأجنبياتٍ ورطانة، وعَيّرَاها بسيِّداتها- زعما- من لُغاتٍ ذواتِ حسنٍ، وجَودةِ إبانة! تُقدِّمُ البَرامجُ المَرئيةُ والمَسموعَةُ في حِماها بغيرها، والدَّعوى: أتريدوننا على لغة الخليل والأصمعيّ وسيبويه؟ أليسوا مَنْ أوْرَدَ «لكلِّ مقامٍ مقالٌ»؟ والمقامُ يَرُدُّ ولا يُرَدُّ عليه! ألَا تَرَوْن لفْظَ القومِ من «عربيزي» و«عرنسي» وما إليه؟ ومن كان في قومٍ فلْيَحلِب في إنائهم.

يا حَسْرَتَا على زَمانٍ تشرَّف بالعربية أعلامُها وباحثوها، وتشرَّفَت بهم حين آوَوْها ونَصَرُوها، وبادَلتْهم حُبًّا بحُبٍّ إذ لانَ لَهمْ منها اللَّفظُ العَتيد، كما ألانَ الله تعالى لداوود الحديد، فانسابتْ في أفواههم- مفتخرين- ماءً زُلالا، وبلغتِ الآذانَ فاتحةً قلوبًا وأقفالا.

هل تَجَّارُ العربيةِ بأربابِ التِّجارةِ والأموال، وفي أيديهم ما يَدفعون عنْها به- لو أرادوا- هذا النَّكال، أتُراهُم لأمرها مُهتمِّين، وبمآلها مُستبْصِرين؟ أفيهم من شرف الاعتزاز بها، ولها، وقد هَجَرُوها مُعْرِضين؟ فهي ليست لغةَ مالٍ ولا أعمالٍ، فطوبى للُغةِ (شكسبير) لُغةِ الدِّرهم والدِّينار، وغير مأسُوفٍ - في صَدى رَنينِهِما- على لغةِ القومِ منَ المُهلهل إلى بشَّار، ألا تَروْن بِمَ تُصَرِّفُ الملايين، وبِمَ تُدارُ؟ إنَّها بالـ «إنق» والـ «شن» فمالَنا دون ذلك مِنْ خيار، أتريدُونها حديثنا مَعَ الشُّقْرِ والصُّفر وهم لا يَفْهمُون؟! أتريدون لنا كسادًا وبَوارًا، وما عهدْناكم يا إخواننا في العُروبة تفعلون؟! وإن كُنتُم على إصْرارٍ فيما تُبْدُون؛ فبيننا وبينكم رأيٌ نَحن به مُسْتمسِكون، وقد سَبق لكم العلم بما أودعنا مِن ثَرواتٍ نَحنُ لها حافظون، ولَنْ نتخلَّى عن لغتنا فنحنُ لها مدينون! ولكن لا بأسَ بلُغةِ المال والتِّجارة «عَربيزي» و«عرنسي» فهي ما يُرضيهم ويرضينا ويُرضيكم، وفي كلٍّ نحن فاعلون!

سيبويه

وا أسفاه على عَربيٍّ يُنكِّل بالعربيَّة شرَّ التَّنكيل! وواعجبا له لم يَحْنُ قلبُه على لغةٍ بلغَ أنينُها حَدَّ العَويل! ولم تَحنُ منهم لَفتةٌ يزيح بها عنها هذا الهَمَّ الثَّقيل! قد رأى أحدُهم أنَّ أمْرَ العربية لا يَعنيه، وهو في غِنى عنها؛ وبيده- بزعمه- ما يكفيه، فمالَهُ ولَها؟! فللبيت ربٌّ يَحميه.

أتُرى في أرباب المالِ والأعمالِ من بَقي فيه من عِزَّة ابن عوفٍ ونَخْوة عُثمان؟ وقد استقرَّ بالشَّرعِ والعقل أنَّ الإنفاق على العربية مِن الإنفاق على القرآن؟

أتُرانا نَسمعُ ونرى بعد مشروع الأمَّة القوميّ «المُعجم التَّاريخيّ للُغة العربيَّة» مَن يُسخِّر من ماله وأعماله ما يرفعُ به للعربية قدرها، ويُعلِي ذكرها؟ وفي ذلك ارتفاعُ قدره، وبقاءُ ذِكْره، وهل بعد التَّخليد في الصَّحائف شيءٌ يُرجى؟

أينتهي الأمرُ بالعربيَّة عند ورثة الخليل (ت:١٧٠هـ) والأصمعي (ت:٢١٦هـ) وابن العلاء (ت: ١٥٤هـ)، وهم في منطوق شريعتنا ورثةُ الأنبياء، فيُحسِنوا وِفادتَها، ويُكرِموا عزيزةَ قومٍ ذلَّتْ، ويأخذوا القُدوة ممَّن سَبَق في حسن الرِّفادة، حين أنزلوها مقاما خُدِمت فيه بإخلاصٍ وتفانٍ وأمانة، لم يبْتغوا بها المَناصب، ولم يتَّخذوها مطيَّةَ المآرب، رَفعوا ذِكْرَها في صمتٍ، فرَفعت ذكرهم بالإعلان، وَاسْتَنْفَدُوا لها ما عزَّ عندهم، فاستبْقَت لهم صيتًا سارت به الرُّكبان، فما لِهؤلاء الورَثَة لا يُغريهم من العربية جمالُها؟ وما لَهُم لا يأخُذُهم الأسفُ لِمَا آلَ إليه مآلُها؟ أليست وَديعةَ السَّابقين في أيديهم، وأمانةَ الأجيال من بَنيهم؟ ألم يَعلموا أنَّ الله اصْطفاها لها دُونَ آخرين، ومَنَّ عليهم بها فَهْمٌ بأيْسَرِ سبيلٍ لها لاهِجين، ولمسائلها وقضاياها مُتحمِّلين ومُؤدِّين؟ وعِظَمُ الفضْل مع عِظَمِ البَذْلِ، ونِعْمَ أجرُ العاملين.

يا عُلماءَ العربيةِ وخُبراءَها، ويا رجالَ جلالتها ونساءَها، ماذا كان للخليل ولاحقِيه يقدِّمونَه للعربيّة إلَّا حبَّهم واعتزازَهم؟ وهل صارَ لها منهُم إلَّا عزُّها وعِزُّهم، ومجدُها ومجدُهم، وقد تواترَ إلينا ما فعلت بهم اللَّيالي والأيام، وذهلت عقولنا لما جادت به القرائحُ وسالت به الأقلام، فأغناهُم الله بالعربيةِ حينَ اتَّخذُوها قضيَّة، وعاشوا لفكرة فلم يكونوا لأنفسهم مطيَّة، ونزَّهوا أنفُسَهم عن كلِّ نقيصة ودَنيَّة.

أخيرا؛ وآخِرُ القَطرِ غيثٌ، وآخرُ اللَّيلِ فجرٌ، هي العربيةُ تبحث في المزاد عن قومٍ هذا شأنُهم، يَحملونها وتَحملُهم، فمن يزيد؟ وتبتغي من يُنذِر لها من نفسه شيئا لله فمَن يزيد؟ وتَعِدُ- ووعدُها صدقٌ- بأنَّ العاقبةَ في الدُّنيا: مجدٌ عتيدٌ، والجزاءُ في الآخرة مرافقةُ القرآنِ المَجيد، تشتكي المَظلمة، وترتجي المَرحَمة، وتتمنَّى منّا، أو من بعضنا أو من أحدنا المَلْحمة.

تقول: آسَفُ على نفسي بينكم، وأنا السَّابقةُ لكم بالأمومة، المنى أنْ لقيتُ منكم العُقوق، ووجَدْتُ منكم الهَجْر مع ما علِمْتم لي عليكم مِنَ الحقوق، أغبِطُ مثيلاتي برَّ بهنَّ بَنُوها وأبْعدتُ، وأعجبُ إذْ أُكرِمتْ وأُهنتُ، أتستنكفون النُّطقَ بي، وبي كلامُ ربِّ العالمين؟ وتَعرِضون عنِّي وقد أَمرَ بي خَيرًا سيِّدُ المُرسلين؟ أَقُبْحٌ فِي رَدِدْتُم جواري؟ أمْ بلغكم عنِّي سوءُ مَنبِتي، وهتْكُ وقاري؟ ألستُ أعْتَقَ لغةٍ باقيةٍ؟ وعلى عِزِّكُمْ أحْدَبُ ساعيةٍ؟ تبتغُون العزَّ في غيْري، والعزُّ شأني وفي دثاري نشأ، وتسْعَوْن سَعْيَ الفَراشِ إلى الهلاك وهو لا يدْري.

أوَما علمْتُم أنَّ سُؤدَدكم أنْ يكون مقامي منكم القلوبَ والأفواهَ والأقلام؟ وأنَّ صلاحَ أمركم رهينٌ بما صرفتموه لي من الاهتمام؟ تَرَوْنَ بأعيُنكم احتضاري من كثْرة الطَّعن، وتعلمون عن مُفرَداتي موْتا قُعاصًا والنَّزْفَ والظَّعن، فلا منكم مَنْ يُنقذ أو يَحِن.

لا أُطيل عليكم المَلام، فأنا أعلمُ مَسْؤوليَّاتكم الجسام، ومهمَّاتكم العِظام، فإنْ كان منكم مَنْ بلغتْه مظلَمتي، فلا يتركْني كاليتيمة في مأدبة اللِّئام، واعلموا أنَّ سُؤدَدكم أنْ أكون في أفواهكم، وسوف أرضى- بعد ذلك- بما ترْضى به الأمُّ من بَنيها: أنْ أكون بعْضَ همِّكم، والسَّلام.

الأصمعي

الخليل بن أحمد الفراهيدي

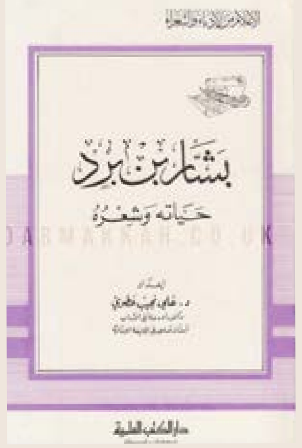

مِنْ تَارِيخ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ
اللَّحْنُ: نَشْأَتُهُ وَطَرَائِفُهُ فِي التُّرَاثِ الأَدَبِيِّ العَرَبِيِّ

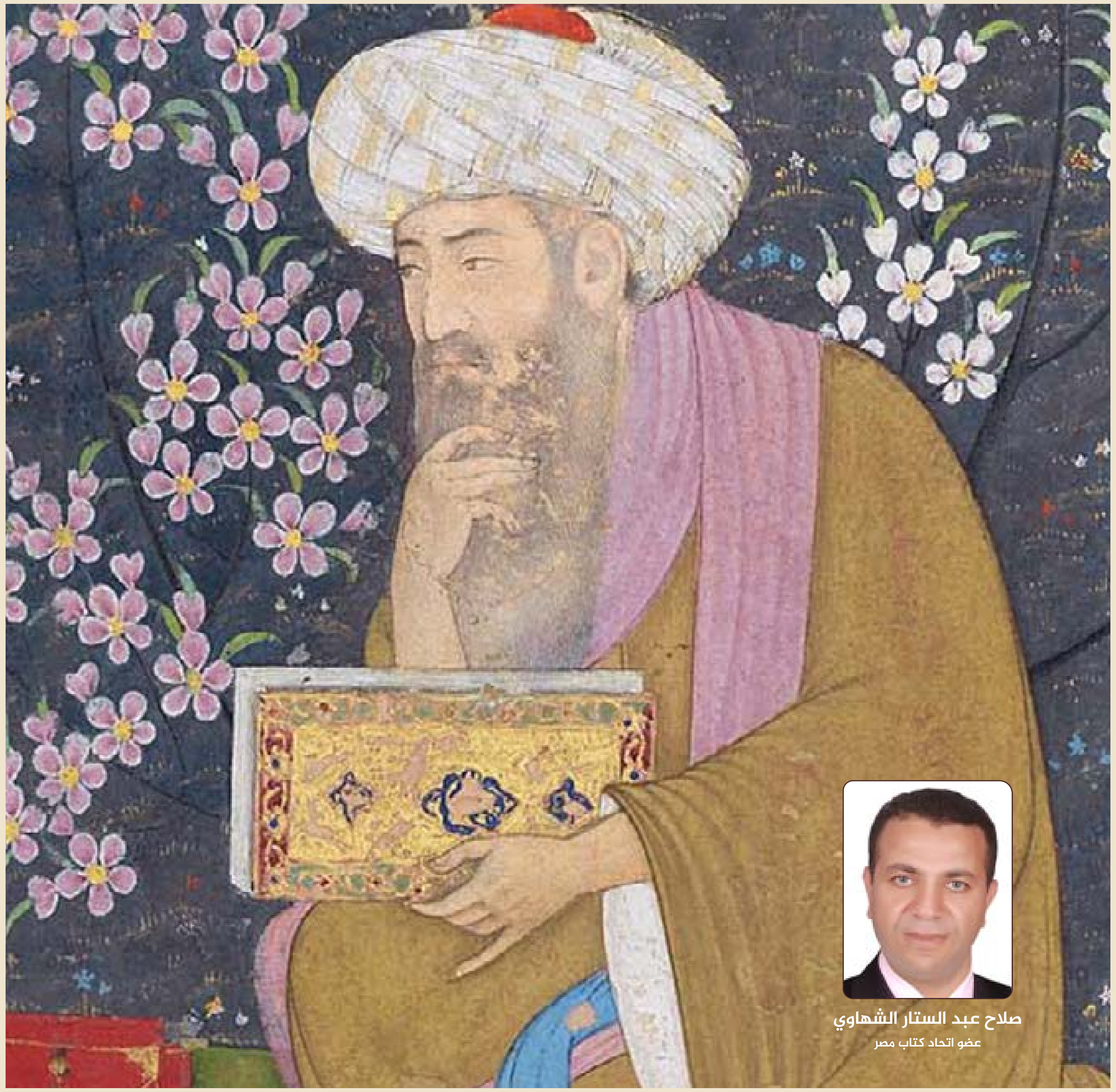

صلاح عبد الستار الشهاوي
عضو اتحاد كتاب مصر

اللَّحن اصطلاحاً: الخطأ في اللغة (الميل عن التعبير الصحيح)، ويكون في الأصوات، أو النحو، أو الصرف، أو معاني المفردات.

تاريخ موجز عن اللَّحن:

رغم أنَّ اللَّحن في اللغة العربية كان مما يُشين ويُزري بصاحبه، إلاَّ أنَّه ظهر في ألسنة بعض العرب في عصر ما قبل الإسلام (العصر الجاهلي)، ومن ذلك مثلهم القائل: «مُكْرَهٌ أَخَاكَ لَا بَطَلٌ»، وصحيحه: «مُكْرَهٌ أَخُوكَ لَا بَطَلٌ»، وإن كان بعض النحاة يُسوّغون هذا الخطأ، ويعلّلون ذلك بأنّ المثل جاء على لغة من يبني الأسماء الخمسة والمثنى على الألف، ويستشهدون بقول الشاعر:

إنّ أَبَـاهَـا وَأَبَـا أَبَاهَـا
قَدْ بَلَغَا فِي المَجْدِ غَايَتَاهَا

كما ظهر اللَّحن في عهد النَّبيِّ ﷺ وكان ذلك في كلام الموالي والمتعرّبين؛ فقد روى أبو الدرداء أنَّ رجلاً لحن بحضرته ﷺ فقال: «أَرْشِدُوا أَخَاكُم». (رواه الحاكم، حديث رقم ٣٦٤٣).

وفي ظل اتّساع رقعة العالم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين والعصر الأموي والعباسي انتشر اللَّحن وشاع، ففي العصر الأموي اتخذ العرب الجواري والإماء في البيوت وخالطوا العجم، واستملحوا من الجواري اللحن، قال الجاحظ (ت:٢٥٥هـ) عن ذلك: «يُستظرف من الجارية أن تكون غير فصيحة، وأن يعتري منطقها اللحن». كما شاع قول القائل: «يُستملح من الجواري ذلك إذا كان خفيفاً، ويُستثقل منهم مطلق الإعراب».

ويقال إنَّ أول خطأ سُمع في البادية كان قول أحدهم: «هذه عَصَاتي» بدلًا عن (هذه عَصَايَ). وأول لحن سُمع في العراق كان: «حَيِّ على الفلاح» بكسر الياء، والصواب بفتحها، ومعظم أخطاء العرب كانت في الإعراب، ومعظم أخطاء الموالي كانت في الأصوات العربية التي لا نظير لها في لغاتهم، ومن ذلك ما رواه الجاحظ (ت:٢٥٥هـ) قائلاً: «إنَّ زياداً النَّبطي – النبط هو الاسم الذي كان أطلقه العرب على سكان جنوب العراق الذين يتحدّثون اللغة الآرامية ثمّ أصبح الاسم يطلق على جميع السريان سواء في العراق أو سوريا– قال لغلامه: من لدُن دَأَوْتَك إلى أن قلت لبّى، ما كنت تَصْنَأ؟ – يريد: من لدن دَعَوْتُك إلى أن لَبَّيْت، ماذا كُنت تَصنَعُ؟».

وبسبب انتشار اللحن في العصر الأموي ألزم كثيرٌ من الخلفاء أنفسهم ألَّا يجلسوا إلى النَّاس، حتى يعرفوا من العربية ما يُصلح كلامهم، فقد رُوي أنَّه دخل رجل على عبد العزيز بن مروان (ت:٨٦ه)، فشكا إليه خَتَنَه (كل من كان من قِبَل المرأة كأبيها، وأخيها، وكذلك، وزوج البنت أو زوج الأخت)، فقال: ومن ختنك؟ قال: ختنني الخَتَّان الذي يختن النَّاس، فقال عبد العزيز لكاتبه: ما هذا الجواب؟ فقال له: أيّها الأمير، إنّه لم يفهم عنك قولك، قال فأفهمه، فقال له: من خَتَنُكَ؟ قال خَتَني فلان. فاستحيا عبد العزيز، وألزم نفسه ألاّ يجلس للنّاس، حتى يعرف من العربية ما يُصلح كلامه، ويزيل اللحن عنه.

وهذا عمر بن عبد العزيز (ت:١٠١هـ) يقول: «إن الرجل ليكلّمني

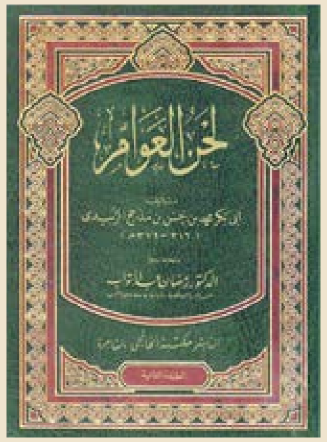

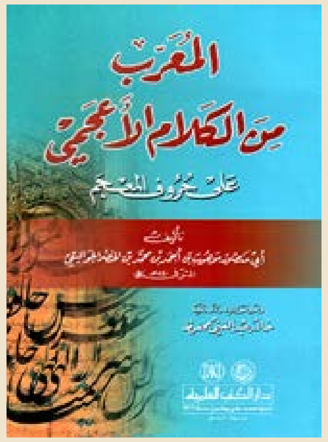

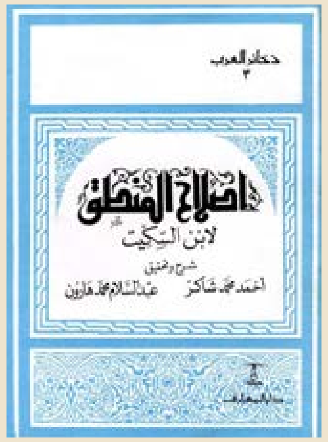

في الحاجة يستجوبها، فيلْحَنُ، فأردّه عنها، وكأني أقضم حبَّ الرمّان الحامض لبُغضي استماع اللَّحن، ويكلّمني آخر في الحاجة لا يستجوبها فيُعرب، فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه».

وشاع اللَّحن في العصر العباسي على ألسنة الموالي والحضر من العرب، حتى إنّ الفرّاء النّحوي (ت:٢٠٧هـ) كان يلحن عند الخليفة هارون الرّشيد، ولم ينكر عليه ذلك، وكان الفرّاء (ت:٢٠٧هـ) يعلّل ذلك بقوله: «إنَّ طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللَّحن، فإذا تحفظتُ لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطَّبع لحنت، فاستحسن الرّشيد قوله».

لذا استوجب هذا العصر قيام تيّارٍ من العلماء والأدباء ليقيموا الوزن للكلمة الفصيحة والقول البليغ، ومما جاء في هذا الصّدد ما رُوي عن الصّاحب بن عبّاد (ت: ٣٨٥ه) أنّه قرأ في كتاب رُفع إليه من طالب لعمل: «إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي في بعض أشغاله»، فوقّع عليه: «من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي».

طرائف اللَّحن واللُّحان:

– مَرَّ عمرُ بن الخطاب – رضي الله عنه – على رُماة، فسمع بعضهم يقول لصاحبه: أخطيت وأسيت. فقال: مَه، فإنَّ سوء اللَّحن أشدُّ من سوء الرِّماية.

– تضجّر عمر بن عبد العزيز من كلام رجل، فقال شرطي على رأسه: قم فقد «أوذيت» أمير المؤمنين. فقال عمر: «أنت – والله – أشدُّ أذًى بكلامك هذا منه».

– لقي أبو زيد البلخيّ (ت: ٣٢٢هـ) أحمد بن سهل الأمير في طريق، وقد أجهد البلخيّ في السّير، فقال له الأمير: عَييتَ أيّها الشّيخ؛ فقال أبو زيد: «نعم، أعييت أيّها الأمير».

– سأل رجل أبا عبيدة معمر بن المثنى الراوية اللغوي (ت:٢٠٩هـ) وهو يلقي درسًا في مسجد البصرة، فقال له: يرحمك الله، ما العنجيد؟ فقال: ما أعرف هذا. فقال: سبحان الله، فأينك من قول الأعشى:

يَوْمَ تُبْدِى لنا قُتَيْلَةُ عن جيد
تليعٍ تَزِينُـهُ الأطـواقُ

فقال: عافاك الله، «عن» حرف جاء لمعنى، و «الجيد» هو العنق. ثم قام آخر في المجلس وقال: يا أبا عبيدة – رحمك الله – ما «الأودع»؟

فقال عافاك الله، ما أعرفه؟ قال: سبحان الله، فأينك من قول العرب: « زاجمْ بعَوْدٍ أو دَعْ». فقال: ويحك، هاتان كلمتان، والمعنى: «اُتْرُكْ وذَرْ»، ثمّ استغفر الله واستمر في الدرس. فقام رجل فقال: رحمك الله، أخبرني عن «كوفا» فقال: رَوَيتُ أنساب العرب وأسماءهم ولست أعرف كوفا. قال: فأين أنت من قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ (الفتح:٢٥)، فأخذ أبو عبيدة (ت:٢٠٩هـ) نعليه وخرج من المسجد وهو يصيح: «من أين حُشرت علينا البهائم اليوم؟».

قال رجل للحسن البصريّ (ت:١١٠ه): ما تقول في رجل ترك أبيه وأخيه؟! فقال الحسن: قُل: ترك أباه وأخاه. فقال الرّجل: فما لأباه وأخاه؟! فقال الحسن: قل: فما لأبيه وأخيه. فقال الرجل للحسن: أراني كلما كلمتك خالفتني.

سمع الأصمعي (ت:٢١٦هـ) رجلاً عند الملتزم يقول: يا ذِي الجلال والإكرام. فقال: من كم تدعو؟ قال: من سبع سنين دأبًا، فلم أر الإجابة. فقال: «إنّك تلحنُ في الدُّعاء، فأنّى يُستجاب لك؟» قال: قل: يا ذا الجلال والإكرام. ففعل، فأجيب.

رُوي أنّ الشّيخ مجد الدين الشّيباني (ت:٦٠٦هـ) كان كثير الإحسان إلى أصحابه وطلابه، يسعى لهم على قدر استحقاقهم، فجاءه بعض طلبته وشكا إليه رقّة الحال، وكثرة الضرورة، فقال له: اكتب قصتك وأنا أتحدّث مع الوالي، فكتب ذلك الطالب: فلان يُقبّل الأرض، وينهي أنه فقير ومظرور (مضرور) وقليل الحض (الحظ). وناولها للشيخ، فلما قرأها تبسّم وقال: «يا فقير، سبحان الله، ضُرُّك قائمٌ، وحَظُّك ساقطٌ».

– كلّم أبو موسى بعض قادته فأخطأ في اللغة. فقال: لم لا تنظر في العربية؟ فقال: بلغني أنَّ من نظر فيها قل كلامه. فقال: «ويحك؛ لأن يقلّ كلامُك بالصواب، خير لك من أن يكثرَ كلامُك بالخطأ».

وبعد: لقد ظلّ العرب حريصين على التمكّن من اللغة وتجنّب اللَّحن، وتمسَّكوا بها تمسّكهم بالسّنة النّبوية، فقد قال رسول الله ﷺ: « رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَصْلَحَ مِنْ لِسَانِهِ» (مسند الشهاب القضاعي، ح. رقم ٥٨٠).

وكان ابن عمر يضرب بنيه على اللَّحن، ودخلت أعرابية على عبيد الله بن أبي بكرة (ت:١٧٩هـ) بالبصرة وقالت: أصلح الله الأمير وأمتع به، حدرتنا إليك سنة اشتدّ بلاؤها وانكشف غطاؤها. أقود صبية صغاراً وآخرين كباراً في بلدة شاسعة تخفضنا خافضة، وترفعنا رافعة لِمُلِمَّاتٍ من الدهر برين عظمي، وأذهبن لحمي، وتركتني والهة أدور بالحضيض، وقد ضاق بي البلد العريض، فسألت في أحياء العرب: مَن الكاملة فضائله، المُعْطَى سائله، المَكْفِيُّ نائله؛ فدللت عليك، أصلحك الله تعالى، وأنا امرأة من هوازن، قد مات الوالد، وغاب الرافد، وأنت بعد الله غياثي ومنتهى أَمَلِي، فافعل بي إحدى ثلاث خصال: إما أن تردّني إلى بلدي، أو تحسن صفدي، أو تقيم أودي. قال: بل أجمعهن لك. فلم يزل يجري عليها كما يجري على عياله حتى ماتت.

الفُقَهاءُ

وَأَثَرُهُمْ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

أ. عبد الحميد محمد الزّاوي

أظهر علماءُ الشّريعة الإسلامية اهتمامهم الكبير بالبحث اللغوي، وقدَّموا الدراسات والأبحاث والمؤلفات في هذا الاتجاه، وانكشف من خلال هذه الأبحاث الأثر الإسلامي في تنمية ألفاظ اللغة العربية، واتّساع معانيها ومبانيها، فكان لأهل الفقه الإسلامي ميدانٌ فسيحٌ من اللغة يتسابقون في جوانبه، فألَّف بعضهم كتاباً مستقلاً في المصطلحات الإسلامية، ومثال ذلك الرازيُّ (ت:٦٠٦هـ) في كتابه (الزِّينة في المصطلحات الإسلامية العربية)، وابن فارس (ت:٣٩٥هـ) حين عقد في كتابه (الصاحبي) باباً أسماه (الأسباب الإسلامية)، وعدَّ من الواجب على أهل العلم معرفة العمق المعنوي في اللغة لئلا يحيدوا في مؤلفاتهم، أو فتياهم عن سنن الاستواء.

لقد بين السّيوطيُّ (ت:٩١١هـ) في كتابه (المزهر) أنّ العلّة في نقل الألفاظ من اللغة إلى الشريعة وجود المعاني التي لم تخطر على بال العرب قبل الإسلام، فأصبح من الضروري أن تُثرى اللغة العربية بالاصطلاحات الخاصة، لتدل على تلك المعاني كما استحدثت الصناعات وعلوم العَروض والنحو وغيره. (المزهر ١/ ٥٧/٥٩).

وفي مجال الترابط بين الأصول الفقهية والنحوية أظهر السّيوطيُّ (ت:٩١١هـ) في كتابه (الاقتراح) شدّة ذلك الترابط، وأفاض بذكر المسائل التي تقوم على السّماع والقياس، والإجماع واستصحاب الحال ونحوها، وهذه هي الأصول المشتركة بين الشريعة واللغة.

أما في مجال التطبيقات الفرعية وبناء المسائل الفقهية على القواعد النحويَّة، فقد كان للأسنويّ (ت:٧٧٢هـ) في كتابه (الكوكب الدُّرّيّ فيما تفرَّع من الفروع الفقهية على المسائل النحوية) الفضل في بسط ذلك وإيضاحه.

وهكذا كان للإسلام وما أتى به من تطور فكري واجتماعي آثار بعيدة في اللغة وتطوير معاني الكثير من ألفاظها، بل إننّا لنرى أنه بعد أن أثر ظهور الإسلام في اللغة العربية هذا التأثير، استعمل ألفاظًا بدلالات جديدة، وألبس ألفاظًا قديمة معاني جديدة لم تكن تلبسها أو تدل عليها، وأصبح الباعث الأول لنشأة العلوم العربية هو الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ فاهتمامهم بأحكامه حفزهم على تدوين الفقه والحديث، ثم نشأة العلوم المتعلقة بهما.

واستمرت حركة التدوين في مضمار البحث عن الدراسات الفقهية اللغوية، فجاء الباحثون المحدثون ليدلوا بدلوهم في هذا المعين، وصدرت المؤلفات العديدة لتكشف الرابط الوثيق بين الفقه واللغة، ولا شكَّ أنّ كثيراً من القضايا والمعاملات تتوقّف على تحديد معاني الألفاظ، وذلك ما دعا رجال الشريعة والقانون إلى بذل الجهود في هذا السبيل.

إن معظم أبواب الفقه وأصوله، والمسائل الفرعية من الأحكام بُنيت على الإعراب ومعاني الأدوات والحروف؛ لذلك نجد معاني الألفاظ –لا سيما الحروف– أخذت نصيبها من الاهتمام لدى أهل اللغة والفقه وأصوله، إما بكتب مستقلة وإما بفصل من فصول كتبهم، ومن ذلك حروف المعاني التي كان لمعانيها شأن في إبراز بعض الأحكام الشرعية، وخاصّة حروف العطف.

الترابط التاريخي بين علوم الشريعة وعلوم اللغة:

هيّأ الإسلام الظروف المناسبة لتنمية العلوم جميعها، ومنها علوم اللغة العربية ولا سيما معاني الحروف والأدوات اللغوية، فكانت الحوافز متوفّرة للنهوض بشأن هذه اللغة الشريفة، وأهم الحوافز لذلك عند العلماء إيجاد الأحكام الشرعية ونشر الإسلام، «فاهتمامهم بأحكامه حفز على تدوين الفقه والحديث، ثم نشأت

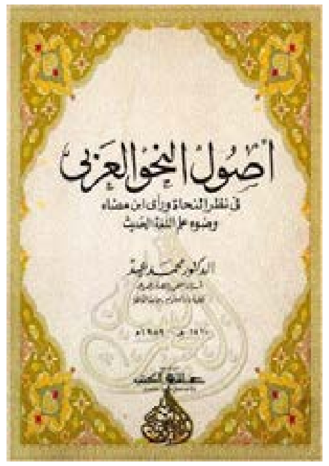

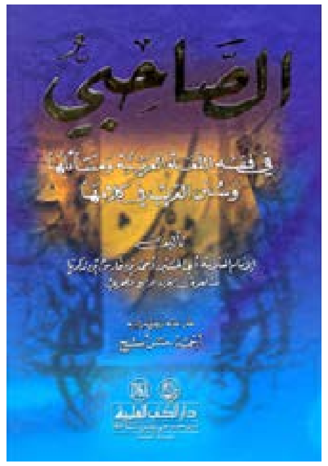

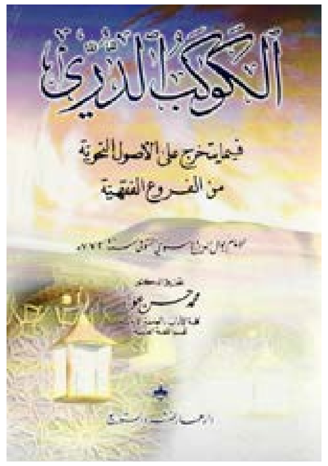

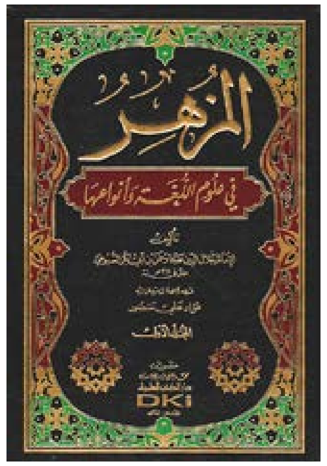

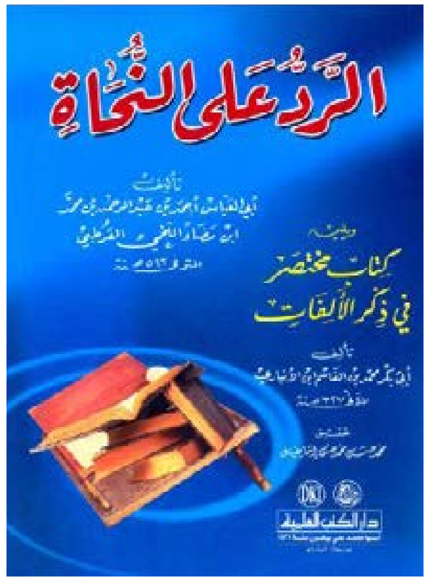

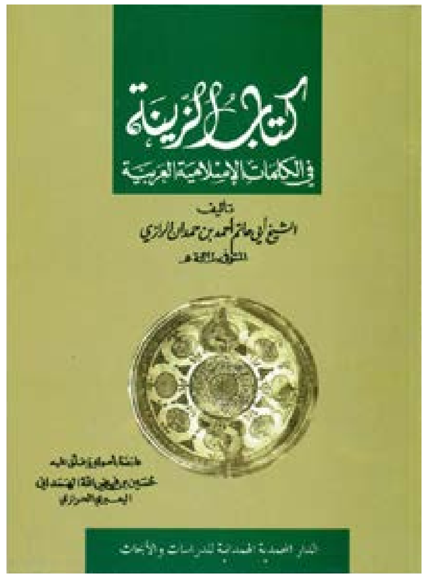

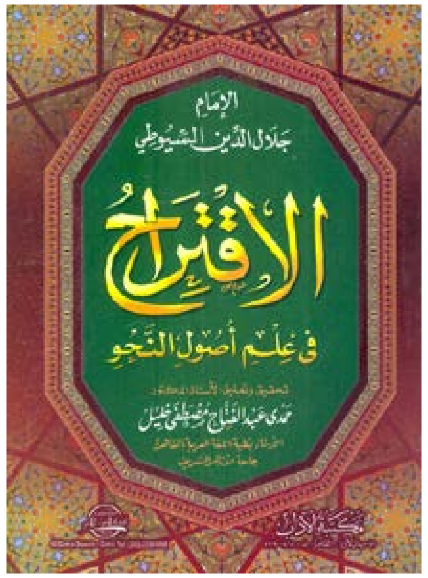

العلوم المتعلقة بها، وعنايتهم بالقرآن الكريم صرفهم إلى الاهتمام بقراءاته وتفاسيره وتاريخه، وذلك حملهم على ضبط اللغة وإحكام قواعدها، حتى كان للفقه كتبه ومذاهبه وأصوله، كما كان للدين أيضاً كتبه وأصوله وفرقه، ودُوِّن أولاً الفقه وأصوله والحديث، ثم جاء النّحو يتقدّم رويداً رويداً» (نقلا عن: في أصول النحو) .

وللفضائل الوفيرة في اللغة العربية استحقت أن تكون لسان النطق بالقرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، وما فيها من معانٍ في منتهى السموّ والرفعة، وما فيها من تعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية لا عهد للعرب بها في جاهليتهم، كما استطاعت أن تكون أداة لكل ما نقل من علوم الهند والفرس واليونان وغيرهم، ولقد كتب الله لسفينة الشرف أن ترسو على شاطئ اللسان العربي، فكانت رسالة نبينا محمد خاتمة الرسالات، وخطاب الله تعالى لخلقه جاء بهذا اللسان العربي ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] .

وإذا عدنا إلى أقوال السلف فسنجد الحثّ والترغيب في استيعاب العربية، إذ يقول عمر بن الخطاب «عليكم بالتفقُّه في الدين، والتفهُّم في العربية، وحُسْن العبارة»، ويقول الإمام الحسن البصري (ت:١١٠هـ) عندما سُئل عن سبب الضّلال: «إنّما أهلكتهُم العُجْمَةُ»، ويقول الإمام النّووي (ت: ٦٧٦هـ): «على طالب الحديث أن يتعلّم من النّحو واللغة ما يَسْلَمُ به من اللّحن والتصحيف».

إنَّ اللغة العربيّة ضرورة يحتاج إليها الفقيه؛ إذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لُغَاتِهِمْ؛ فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة.

ولقد كان نزول القرآن إيذاناً بالحفاظ على اللغة العربية وتنمية مفرداتها وتمتين تراكيبها؛ إذ هي أصبحت الوعاء الكريم ليحمل أكرم شريعة وأشرف نظام للبشرية، ولتصبح لغة العرب لغة العبادة وأهمها صحّة الصلاة، قال ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ): «إنَّ العلم بلغة العرب واجب على كل متعلِّق من العلم بالقرآن والسّنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء لأحد منهم عنه؛ وذلك أنَّ القرآن نزل بلغة العرب، ورسول الله عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله – عز وجل – وما في سنّة رسوله من كلّ كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بُدًّا ».

وقال ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ): «إنَّ الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله ﷺ مبلّغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين».

أما البدايات لهذه العلوم فالصحابة الكرام استنطقوا معاني النصوص وأخذوا الأحكام الشرعية على وفق سليقتهم العربية الأصيلة بدون قواعد لغوية، لأن ألسنتهم وأسماعهم كانت بعيدة عن العجمة فسلمت لغتهم كما سلم فهمهم لها، أما عصر التابعين مع توسع الفتوحات الإسلامية فمن الطبيعي أن تتسرّب العجمة واللّحن المخلّ بفصاحة اللغة العربية إلى أَلْسِنَةِ أبناء المسلمين. فكان اللحن باللغة الذي أصابها دافعاً قوياً من دوافع وضع القواعد، إلى جانب حاجة الفقهاء إلى فهم النصوص العربية من الكتاب والسنة، وهو الدافع الأهم للالتفات حول هذه اللغة الشريفة؛ لذلك نجد جماعة من التابعين كانوا يعدّون في طبقات الفقهاء كما يعدون في طبقات النّحويين.

إنّ حاجة الفقهاء الملحّة إلى العربية كانت سبباً في إثراء اللغة واستمرارها؛ لأنَّ الشريعة عربية فإنَّ علومها تفهم بلسانها، فعلوم الفقه والأُصول، والكلام والتفسير والسنة مرجعها إلى العربية، وافتقار هذه العلوم إلى العربية بيِّنٌ لا يدفع، ومكشوف لا يُقَنَّع، وقال الجرميُّ (ت:٢٢٥هـ): «أنا منذ ثلاثين سنة أفتي النّاس من كتاب سيبويه». (نقلا عن الشاطبي / الموافقات ٤/١١٦). وكانت الدراسات الفقهية سبباً في سموّ بعض الأشخاص في المجتمع وعلو شأنهم في حين لا تتم أي دراسة فقهية إلا بالدراسة اللغوية، ويدل على ذلك ما حصل للموالي من مكانة اجتماعية بسبب تهافتهم وملازمتهم لدراسة اللغة، ثم الفقه مما جعل الخليفة عمر بن عبد العزيز يحيل الفتيا في مصر إلى رجلين من الموالي ورجل من العرب.

إسهامات الآراء الفقهية في تنمية الدراسات النحوية

من الأوائل الذين ربطوا بين مسائل الفقه ومسائل النحو، وفتحوا باباً واسعاً من أبواب التفاعل بينهما الإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت:١٨٩هـ)، ثم توالت الدراسات بهذا الاتجاه حتى وصل إلى قمتها الإمام الأسنويّ (ت:٧٧٢هـ) في كتابه (الكوكب الدريّ)، كما كان هناك تشابه كبير بين منهج النّحاة ومنهج المحدثين من حيث العناية بالسّند ورجاله وتجريحهم وتعديلهم، وطرق تحمّل اللغة فكانت لهم نصوصهم اللغوية كما كان لأولئك نصوصهم، ثم نهجوا منهج تطعيم نحوهم بالفلسفة والتعليل، وفي مجال وضع القواعد للنّحو نجد أصولاً تشبه أصول الفقه، وكذا الأمر في الاجتهاد فيه كما هو الحال عند الفقهاء في بناء القواعد على السماع والقياس والإجماع، كما بنى الفقهاء استنباط أحكامهم على السماع والقياس والإجماع، وذلك أثر واضح من آثار العلوم الدينية في علوم اللغة.

مَكْرُ اللُّغَةِ وَدَهَاؤُهَا:
ظَاهِرَةُ التَّعْرِيضِ فِي العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى

أ. عبد الله آيت الاعشير
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
بني ملال-المغرب

أولا: تقديم وائتناف:

يعدُّ موضوع مكر اللغة ودهائها كنزًا من كنوز البراعة الذي يملأ الطَّرف، ومادة الكاتب البليغ النِّحرير الراغب في اتّساع طرق القول، بما يجعل الخطاب قريب المعنى بعيد المغزى، لا يكشف عن وجهه، ولا يصرح بغرضه من الجهة الظاهرة، وإنما يدلّ عليه بغيره، ويجيء به من سبيل خفية وملمح دقيق؛ الإشارة فيه أظهر من العبارة، والتلويح أغلب من التصريح؛ لذلك لا يخوض فيه إلا مَن كان أحوذيًا لوذعيًا ضليعًا من علوم العربية، ولا يبلغ كنهه إلا عاشقُ اللَّبن الصَّريح الذي يختبئ تحت الرغوة بالمساترة والاختلاس، ويعدُّ الإطناب في هذا الموضوع الشائق الماتع، الذي تلسع مكائد عباراته في معارض الإشارات، وتفتن غمزات ألفاظه في غوامض الاستعارات، دليلًا على أنَّ المخاتلة هي الغالبة الظاهرة في العلاقات بين الأفراد والرِّبْضات والثُّبات والعِزاتِ والرِّبَّات والجماعات، ولاسيّما أنَّ الناس إلى الفتن سراع، ولهم في ال

باطل باع وإبداع؛ لذلك لا بدَّ أن يعظم ويتّسع ويتصلّ ولا ينقطع الاهتمام به ما توالى الملوان وجَدَّ الأجدان. ولقد علّمتني الحياة أنّ استعمالنا للغة في أثناء اتصالنا وتواصلنا يشبهُ الماء، عندما يكون صافيًا يُبدي كلَّ ما في قعره، كما يبدي المتواصل ـــ في أثناء صفاء العلاقات الإنسانية ـــ كلَّ ما في ضميره بلغة الإظهار والإيضاح التي تصيب كبد الحقيقة، لكن في أثناء الكدر يخفي ما في قعره، تمامًا كما نحرص –في فترات الأزمات والمفاوضات– على التناهي في الإخفاء إلى أقصى الغايات.

ثانيا: نظرة طائر إلى أسلوب التعريض في القرآن الكريم

على قَوْدِ هذه الحقيقة، فإن الذي يحوِّم طائره حول موضوع التعريض، ويتغلغل في دقائق استعمالاته للعبارات البهية المظهر، يبصر محاسن تملأ الطرف، ولطائف لا يبلغ كنهها الوصف، ولذلك كان العرب يؤثرون التعريض على التصريح، ويرون أنّه أجود

وألطف من الكشف والبوح، حتى قالوا: فلانا لا يحسن التعريض إلا ثلبًا. وقد استعمل القرآن الكريم التعريض في أكثر من موقف؛ فقد أجازه في خِطبة النساء، ولم يجز التصريح قائلا: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (البقرة :٢٣٥)، وقال الرّسول ﷺ: «إنّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ» (رواه البخاريُّ في الأدب المفرد، حديث رقم ٨٥٧).

والتعريض في أجلى مظاهره مخصوص بالميل مع المعنى، وترك اللفظ جانبًا، وهو يختصُّ باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتَّةَ، والدَّليل على ذلك أنَّه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التلويح والإشارة.

ومما جاء في القرآن الكريم البجيل من التعريض قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الرعد : ١٩)؛ إذ لا يراد من الكلام بعد (إنما) نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، فليس الغرض من قوله تعالى أن يقتصر السّامع على علم ظاهر الآية، «ولكن أن يُذَمَّ

الكفار، وأن يقال إنّهم من فرط العناد، ومن غلبة الهوى عليهم، في حكم مَن ليس بذي عقل، وإنّكم إن طمعتُم منهم في أن ينظروا ويتذكروا، كنتم كمَنْ طمع في ذلك من غير أولي الألباب.» وهذا الضرب من الكلام من كنوز البلاغة، فلو قيل: (يتذكر أولو الألباب) من دون (إنما)، لكان الأمر مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون، ولا يتضمن نفي التذكر عمن ليس منهم.

ومن بديع التعريض القرآني قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم –عليه السلام– عندما كسر الأصنام وأبقى على كبيرهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٢ – ٦٧)، ويُعدُّ هذا الرَّدُّ المفحم من سيدنا إبراهيم – عليه السلام – من أبلغ التعريضات، عندما زعم أنّ الصنم الكبير غضب أن تشرك معه الأصنام الصغيرة في العبادة فكسرها، وإذا كنتم في ريب مما أقول، فاسألوهم لتتعرفوا على الحقيقة منهم إذا كانوا يستطيعون نطقًا، حيث أقام عليهم الحجّة وبكتهم وسخر منهم ومما يعبدون. كما حرَص سيدنا موسى – عليه السلام – على ركوب معاريض الكلام المهذّب مع العالم المُبرِّز الخضر عندما قال له: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ (الكهف: ٧٣)؛ حيث لم يقل سيدنا موسى بأنه نسي، ولكنّه عرف أنّ في المعاريض ما يغنيه عن الكذب فقال: لا تؤاخذني بما نسيت هكذا، وهو لم ينسَ ولم يكذب. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (فاطر:١٨) معرضًا بالذين ليست لهم تلك الخشية، ومؤكدًا أنّ الإنذار لا ينفعهم كأنهم أموات لا يسمعون!

ثالثًا: أسلوب التعريض في أقوال العرب

التعريض موضوع فيه دقة وغموض، يُخفي ويستر ويتجنب القصد ويبتعد عن إلقاء الحقيقة عارية، لكنّه لا يقصّر في التعبير عن المغزى الذي يزيل به المعرِّض الطود من مكانه؛ إنّه تعبير عن حقيقة غير مدخول فيها باستعمال عبارات قريب جناها بعيد مداها، لكنّها عند التدبّر هي أوضح عند المعرَّض به من وضح الصبح. وها أنا ذا ألمع بنُبَذ من غمام هذا الموضوع القائم على الاحتيال والمكر والتلطف الغامض الذي يحتاج إلى الحذق والنباهة في إدراك المراد منه على هذه الشاكلة: روى بعض أصحاب اللغة أنّ قومًا من الأعراب خرجوا يمتارون، فلما صدروا خالف رجل في بعض الليل إلى عِكْم× صاحبه فأخذ منه بُرًّا وجعله في عِكْمه، فلما أرادا الرحلة قاما يَتَعَاكَمان، فرأى عِكْمه يَشُول وعِكْمَ صاحبه يثقل، فأنشأ يقول:

عِكْمٌ تَغشَّى بعض أعكام القَوم
لم أرَ عِكْمًا سارقًا قبل اليوم

فخوَّن صاحبه بوجه هو ألطف من التصريح، وهي إشارة بليغة أوقع من التصريح الفاضح، ويعدُّ مثل هذا التعريض من لُمع المكر الذي يقع بين البلغاء في أثناء مداعباتهم التي يسترون الغامض الباطن بالظاهر الجليّ. ومن تلك التوقيعات الماكرة المندرجة في الحرب النفسية التي تزعزع يقين العدو، ما أورده سليمان بن عبد الملك الأمويّ (ت:٩٩هـ) جوابًا على كتاب قتيبة بن مسلم (ت:٩٦هـ) الذي هدّده بالخلع من الخلافة قائلًا:

زَعَمَ الفرزدقُ أنْ سيقتُل مربعًا
أبْشِرْ بطُول سلامةٍ يا مرْبَعُ

وتحتها أيضا: ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩). لا ريب أنّ الانتقال من البيت الشِّعري الآنف، إلى ما عبَّر عنه سليمان بن عبد الملك يقتضي استحضار الخصومة الكلامية التي اشتعلت نارها بين جرير والفرزدق، ومن ثمّة تأويل ألفاظ البيت الشعري وصرفها عن المعنى الحرفي، إلى المغزى الخفيّ المراد؛ وذلك بالقيام بعمليات استبدال لفظة (قتيبة) بلفظة (الفرزدق) ولفظة (سليمان) بلفظة (مربع)، فيكون معنى البيت: زعم قتيبة أن سيقتل سليمان، أبشر بطول سلامة يا سليمان؛ لأنّ قتيبة ليس سوى طائر بُغاثة يستنسر على الخليفة سليمان.

ومثل هذا قولي لأحد الشُّوَيْعِرين في إحدى المناسبات الاحتفالية باليوم العالمي للشعر في بني ملال: «إنّما أنت نَبيُّ الشِّعْر»، فأبدى الشُّعْرور انتفاخًا وزهوًا وهو يحسب أنّني مدحته، وفي الحقيقة عرَّضت به وقصدت أنّه «رابع الشعراء» بارد الشعر غير مجيد، لأن النبيَّ ﷺ لا ينظم الشعر ولا ينبغي له، كما أكدَ الله تعالى هذه الحقيقة في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس:٦٩)؛ وإنما موَّهتُ عليه باعتماد أسلوب القصر الذي رشّ بعض البهاء على العبارة التي جمَّلها لفظ «النَّبيّ».

ومن التعريضات التي تُرقِّق عن صبوح وتُسرُّ حسْوًا في ارتغاء، والتي فرَّ عن الفضل بن الربيع اختلاس أسرارها، فلم يدرك مكرها ودهاءها ومغزاها إلّا بعد مدّة، هذه الحادثة التي وقعت في المدينة المنوّرة بين هارون الرّشيد (ت:١٩٣هـ)، وجعفر البرمكي (ت:١٨٠هـ)، ثمّ الفضل بن الربيع (ت:١٣٨هـ). وقد كان أهل المدينة وقتئذ يسمون البُهتة واللقيط «فرخًا»، وهو عندهم فرخ زنا، وفي ذات يوم جيء بصحن عليه ثلاثة أفراخ، «فقال الرّشيد لجعفر يمازحه: قاسمني لنستوي في أكلها، فقال: قسمة عدل أم جور؟ فقال قسمة عدل، فأخذ جعفر فرخين، وترك واحدًا، فقال له الرّشيد: أهذا عدل؟ قال: نعم، معي فرخان، ومعك فرخان. قال: فأين الآخر؟ قال: هذا. وأومأ إلى الفضل بن الربيع، وكان واقفًا على رأسه، فتبسّم الرشيد وقال: يا فضل لو تمسّكت بولائنا لسقط

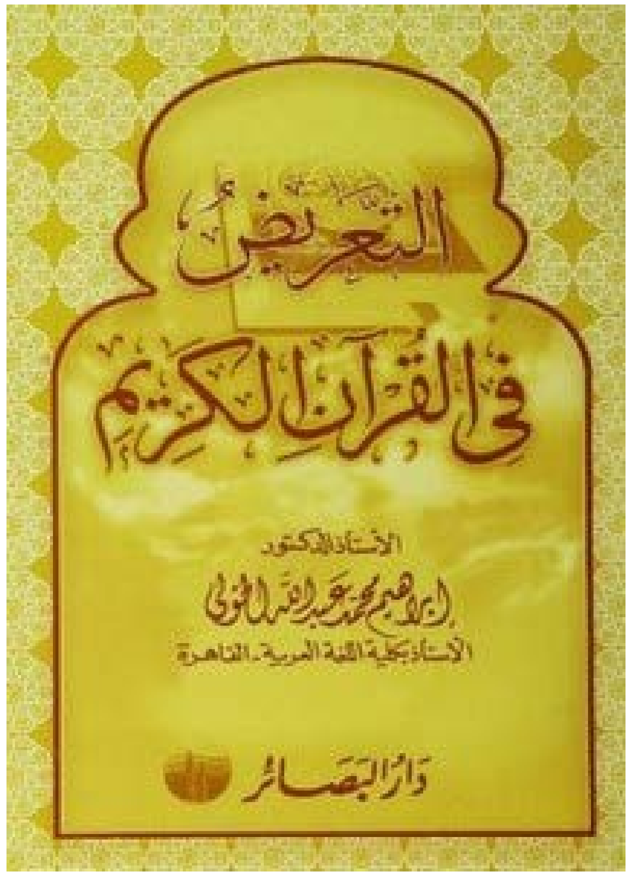

هذا عنك، ولم يفهم الفضل ما قالاه إلا بعد مدة، وقد كان الفضل بن الربيع مطعونًا في نسبه، لأنّ الرّبيع كان مملوكًا، وأنَّ جارية ليونس بن محمّد بن أبي فروة مولى عثمان هي التي ولدت الربيع، فأنكره يونس، ثم باعه، وتقلبت به الأحوال حتى أهدي إلى أبي جعفر المنصور الذي أعتقه، وقد كان الفضل بن الربيع يكنى« أبا روح» لأن اللقيط يكنّى به.

ومن هذا الوادي من التعريض غير المستبين، الذي لا تتكشّف حقيقته ولا يطفو مغزاه، ما قاله المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل الثّقفي في خطبه، بعدما عزله الحجّاج عن الكوفة وولّى مكانه زياد بن جرير: «يا أهل الكوفة مَنْ بغاكم الغوائل وسعى بكم إلى أميركم، فلَعَنَهُ الله، ولعن أمّه العوراء. وكانت أم زياد عوراء. فكان الناس يقولون: ما رأينا تعريضًا قطّ أطيب من تعريضه.

وقبل أن أتوقّف عن النّقر على الأزرار، أختم بهذه الحكاية التعريضية حسنة الدّلالة، التي تعبر عمّا تكابده إحدى النسوة في حياتها الاجتماعية؛ حيث إنّها «وقفت على قيس بن عبادة؛ فقالت: أشكو إليك قلّة الفأر في بيتي. فقال: ما أحسن ما ورَّتْ عن حاجتها، املؤوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما

. لا شكَّ أن هذه العجوز سدَّدت، فأصابت غرض الكلام في هذه العبارة التي جاء فيها ملفوظ:(الشكوى من قلّة الفأر في البيت) مخالفًا لما هو محتمل ثقافيا في المجتمع وقتئذ، لذلك امتصّ قيس بن عبادة تلك المخالفة باعتماد التّأويل، فلم يسوِّف ظنونها، ولم يهمل حاجتها.

رابعا: تأزير

هذا ما رشحت به الأحجار التي استسقيتها، ومَن تاقت نفسه إلى الاستزادة على ما بسطت في هذه المقالة، فليقصد أُمّات المصادر قصد سيدنا موسى – عليه السلام – للعالم العارف الخضر، للاقتباس من معارفها والاستمداد من ينابيعها ما يكمل نقصه ويروي غلته، فقد زكنتها مصادر من أودية مختلفة، لكنّها تنطق من ذروة جبل في العلم بالمعارف الشائقة، والحكايات الرائقة، والمستطرفات الماتعة، والإمتاعات المؤنسة، التي تزيد الوقود اشتعالًا في أثناء القراءة، والتي تغني عن كثير من الكتابات المعاصرة المقحوطة العَريَّة عن الأدبية، البعيدة عن الاكتناز الذي يجعل العبارة لا تنتهي عند دلالة محدّدة، وما ذلك إلّا أنّهم لم يدركوا النّظر إلى الألفاظ اللغوية بوصفها ملفوظات تدلّ على أشياء ليست دائما حرفية ومباشرة، ولذلك تراهم مُفَسْكَلِينَ في اقتحام ساحات العبارات البوائج التي تخفي أسرارها وخباياها، وتأخذ معنى آخر من ذلك المعنى الذي كان لها وهي في المعجم معزولة عن سياقها.

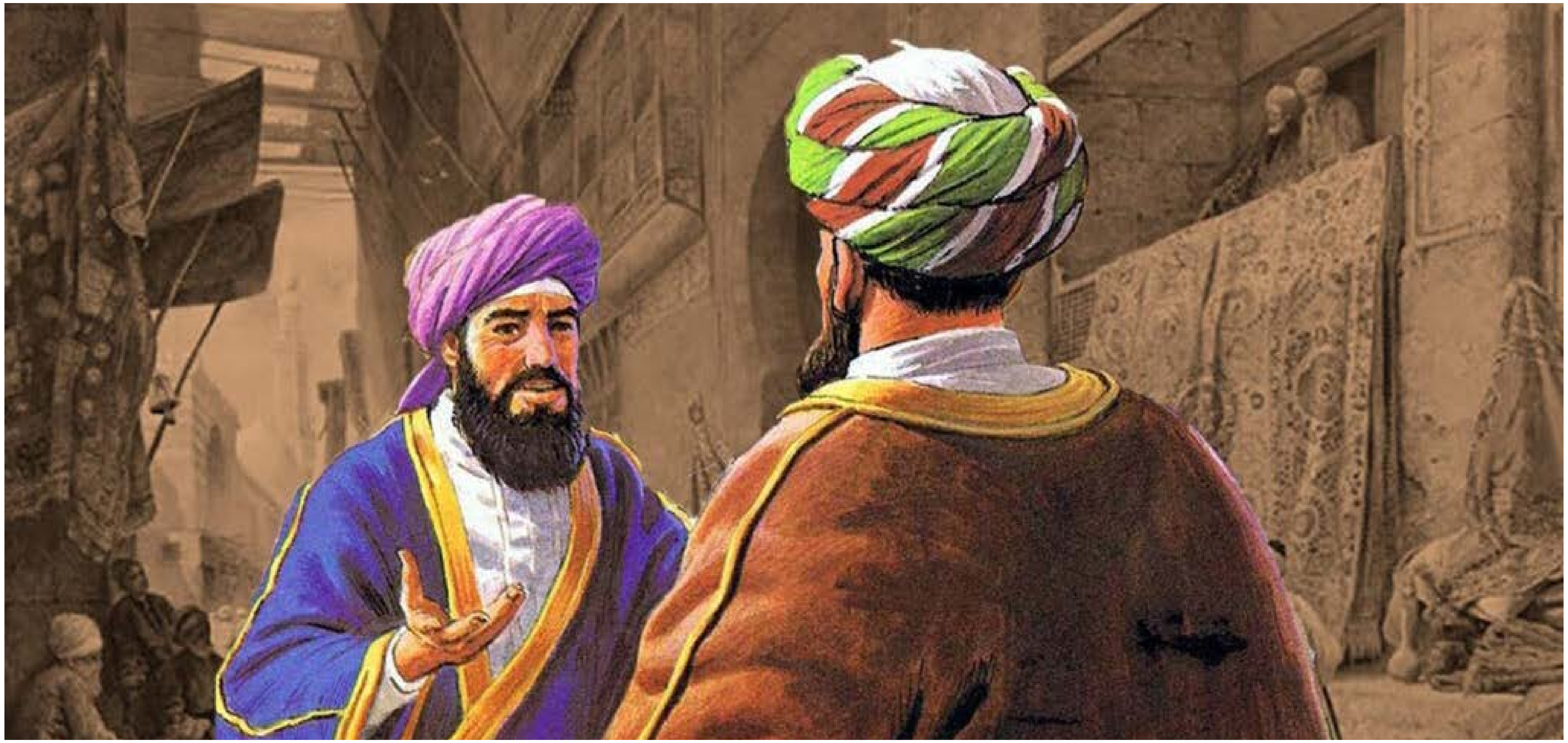

مِـيـزَانُ النَّـقْـد
عِنْدَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ

حسن الحضري
عضو اتحاد كتاب مصر

النَّبيُّ ﷺ وإن لم يكن شاعرًا فقد أُوتي جوامع الكلم، وإنّما منعه الله تعالى من الشّعر كما منعه من القراءة والكتابة؛ حتى يقطع وساوس النَّاس، ويعلموا أنَّ هذا القرآن من عند الله تعالى، وكان النبي ﷺ يعرف لغات القبائل المختلفة ويحادثهم بها؛ كما ورد في حديث الأشعريين، كما كان ﷺ أبصر العرب بنقد الشّعر، وسيرته حافلة بذلك؛ كقوله –صلَّى الله عليه وسلَّم–: « أصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَها الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيد: (ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلٌ). وكادَ أُمَيَّةُ بنُ أبِي الصَّلْتِ أنْ يُسْلِمَ» (رواه البخاري)؛ وكان ﷺ يوجِّه الشعراء إلى اللفظ الأكثر مناسبة وأصدق تعبيرًا؛ نُقل في «سبل الهدى والرشاد» «أنّ كعب بن زهير أنشد للنبي ﷺ (بانت سعاد) حتى انتهى إلى قوله:

إنَّ الرَّسولَ لَسيفٌ يُستضاءُ به
مهنَّدٌ من سيوفِ الهندِ مسلولُ

فقال رسول الله ﷺ «من سُيُوفِ الله» (رواه الحاكم في المستدرك).

وكان النبي ﷺ يوازن بين الشعراء، ويقدِّم بعضهم على بعض؛ وفقًا لحسٍّ نقديٍّ قائم على أساسٍ علميٍّ صحيح، لا محاباة فيه ولا ظلم؛ ومن ذلك ما رُوِيَ «عن البراء بن عازب، أنَّ رسول الله ﷺ أُتيَ فقيل: يا رسول الله؛ إنّ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك؛ فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله؛ ائذن لي فيه؛ فقال: «أنت الذي تقول: ثبَّت اللهُ؟»، قال: نعم؛ قلت يا رسول الله:

فثبَّتَ اللهُ ما أعطاكَ مِنْ حَسَنٍ
تَثْبيتَ مُوسَى ونصرًا مِثْلَ ما نُصِروا

قال: «وأنت يفعل الله بك خيرًا مثل ذلك».

قال: ثم وثب كعب فقال: يا رسول الله؛ ائذن لي فيه؛ قال: «أنت الذي تقول: هَمَّتْ؟»، قال: نعم؛ قلت يا رسول الله:

هَمَّتْ سَخينةُ أنْ تُغالِبَ رَبَّهَا
فلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

قال: «أما إن الله لم يَنسَ ذلك لك».

قال: ثم قام حسان فقال: يا رسول الله؛ ائذن لي فيه؛ وأخرج لسانًا له أسود، فقال: يا رسول الله؛ ائذن لي، إن شئت أفريت به المزاد؛ فقال: «اذْهَبْ إلَى أبِي بَكْرٍ لِيُحَدِّثَكَ حَدِيثَ الْقَوْمِ وَأَيَّامَهُمْ وَأَحْسابَهُمْ، ثُمَّ اهْجُهُمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ» (رواه الحاكم في المستدرك، باب ذِكْر مناقب حسان بن ثابت، ج٣، ٥٥٦).

فحين نقف أمام هذا النّقد النّبوي الشّريف؛ نجد أنَّ له منهجية واضحة سلكها النبي ﷺ فجاءت موازنته بين الشعراء الثلاثة –رضي الله عنهم– من خلال خبرته بأشعارهم، وذلك على النحو الآتي:

أولًا– قوله ﷺ لعبد الله بن رواحة «أنت الذي تقول: ثبَّت اللهُ؟»؛ لا يقصد به هذا القول المذكور؛ وإنما يُلْمِح به إلى بيت آخر نعرفه من الحديث الآتي: «عن عبد الله بن رواحة قال: بينما أنا أجتاز في المسجد، ورسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، إذْ قال القوم: يا عبد الله بن رواحة، يا عبد الله بن رواحة؛ فظننت أنّ رسول الله ﷺ يدعوني، فجئت، فقال: «اجلسْ يا عبدَ الله بن رواحة، كَيْفَ تَقُولُ الشِّعْرَ إذا أَرَدْتَ أنْ تَقُولَ؟»، قلت: أنظر ثم أقول؛ قال: «فعليك بالمشركين»، ولم أكن أعددت شيئًا، فقلت:

فخَبِّروني أثمانَ العباءِ متى
كنتُمْ بَطاريقَ أو دانَتْ لكُمْ مُضَرُ

فعرفت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ أنْ جعلتُ قومه أثمان العباء، فنظرت ثم قلت:

يا هاشِمَ الخيرِ إنَّ اللهَ فضَّلَكمْ
علَى البريَّةِ فضلًا ما لَه غِيَرُ
إنِّي تفرَّستُ فيكَ الخيرَ أعرِفُه
فراسةً خالفَتْهُمْ في الذي نَظَروا
ولو سألتَ أوِ استنصرتَ بعضَهُمُ
في جُلِّ أمرِكَ ما آوَوْا وما نَصَروا
فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ
تثبيتَ موسى ونصرًا كالذي نصروا

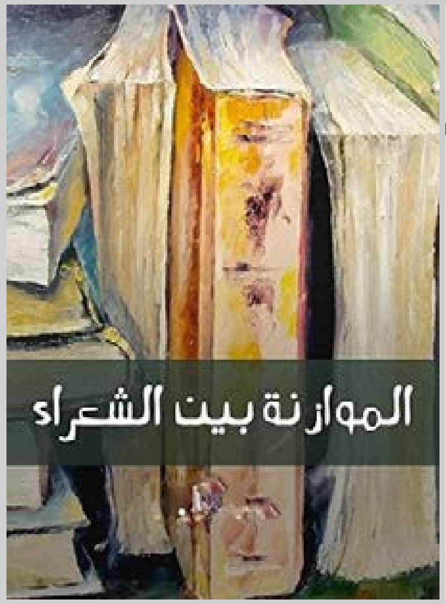

قال: «وأنتَ فثبَّتَ اللهُ يا بنَ رَواحَةَ» (رواه الطبرانيّ).

فالنبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– يذكِّر عبد الله بن رواحة بهجائه قريشًا هجاء عامًّا، فعلِم –صلَّى الله عليه وسلَّم– أنَّ ابن رواحة إن قام بالمهمّة؛ لم يستطع الخلوص إلى المشركين دون أن يؤذي النَّبيَّ شيءٌ من هجائه، ولا سيما أنَّ المراد هجاؤه هذه المرة هو ابن عمِّ النبي ﷺ.

ثانيًا: قوله ﷺ لكعب بن مالك: «أنت القائل: همَّت؟»؛ يقصد به هجاء كعب لقريش في قوله:

هَمَّتْ سَخِينَةُ أَنْ تُغالِبَ رَبَّها
فلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

وكعب يقصد بقوله (سخينة) قريشًا؛ والسخينة: قيل: هي طعام يُتَّخذ من الدَّقيق، دون العصيدة في الرقّة وفوق الحساء؛ وقيل: هي دقيق يُلقَى على ماء أو لبن، فيُطبَخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى؛ وقيل: تُعمل من دقيق وسمن؛ وإنَّما يأكلون السخينة في شدّة الدهر وغلاء السِّعر وعجف المال، وكانت قريش تكثر من أكلها، فعُيِّرت بها حتى سُمُّوا سخينة. فحال كعبٍ هنا كحال ابن رواحة؛ من حيث إنَّ كلًّا منهما عمَّ قريشًا بهجائه، والنَّبيّ –صلَّى الله عليه وسلَّم– يريد من يخصُّ المشركين منهم.

ولذلك قدَّم حسانَ بنَ ثابتٍ –رضي الله عنه– لأنَّ له سابقةً معه، وهي كما رُوِيَ «عن عائشة، قالت: استأذن حسّان بن ثابت، رسول الله ﷺ في هجاء المشركين، فقال رسول الله ﷺ: « فكيفَ بنَسَبِي فيهم؟»، فقال حسان: لَأَسُلَّنَّكَ منهمْ كما تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ العَجِينِ»(رواه البخاريّ)، كما أنَّ حسانَ بن ثابت لم يكتفِ بطلب الإذن كما فعل صاحباه؛ وإنما عرض سلاحه –وهو لسانه– حيث أخرجه وقال: «إن شئت أفريت به المزاد»، فالأمر أشبه بالحرب، والعدوُّ شديد القرابة بالنبي ﷺ لذلك حرص على انتداب رامٍ ماهر يعرف كيف يرمي عدوَّه دون أن يمسَّ تلك القرابة بشيء يؤذي النبي ﷺ فلما رأى النَّبيُّ ذلك؛ أوكل إليه المهمة، وقال له: « اذْهَبْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ لِيُحَدِّثَكَ حَدِيثَ القَوْمِ وَأَيَّامَهُمْ وَأَحْسَابَهُمْ، ثُمَّ اهْجُهُمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ».

ونلاحظ أن النبي ﷺ في ردِّه على عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك –رضي الله عنهما– لم يؤذِهما بقوله، فلم يصِفْهما بالعجز عن المهمّة المنشودة؛ وإنَّما أثنى على ما يستحق الثناء مِن سابق صنيعهما، ثمّ تركهما وقدَّم حسان بن ثابت –رضي الله عنه– بفحولته الشعرية التي يبلغ بها المراد من المهمة التي سيكلفه بها.

هَمْزِيَّةُ حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ:
قِـرَاءَةٌ فـي المَتْـنِ والفَـنِّ

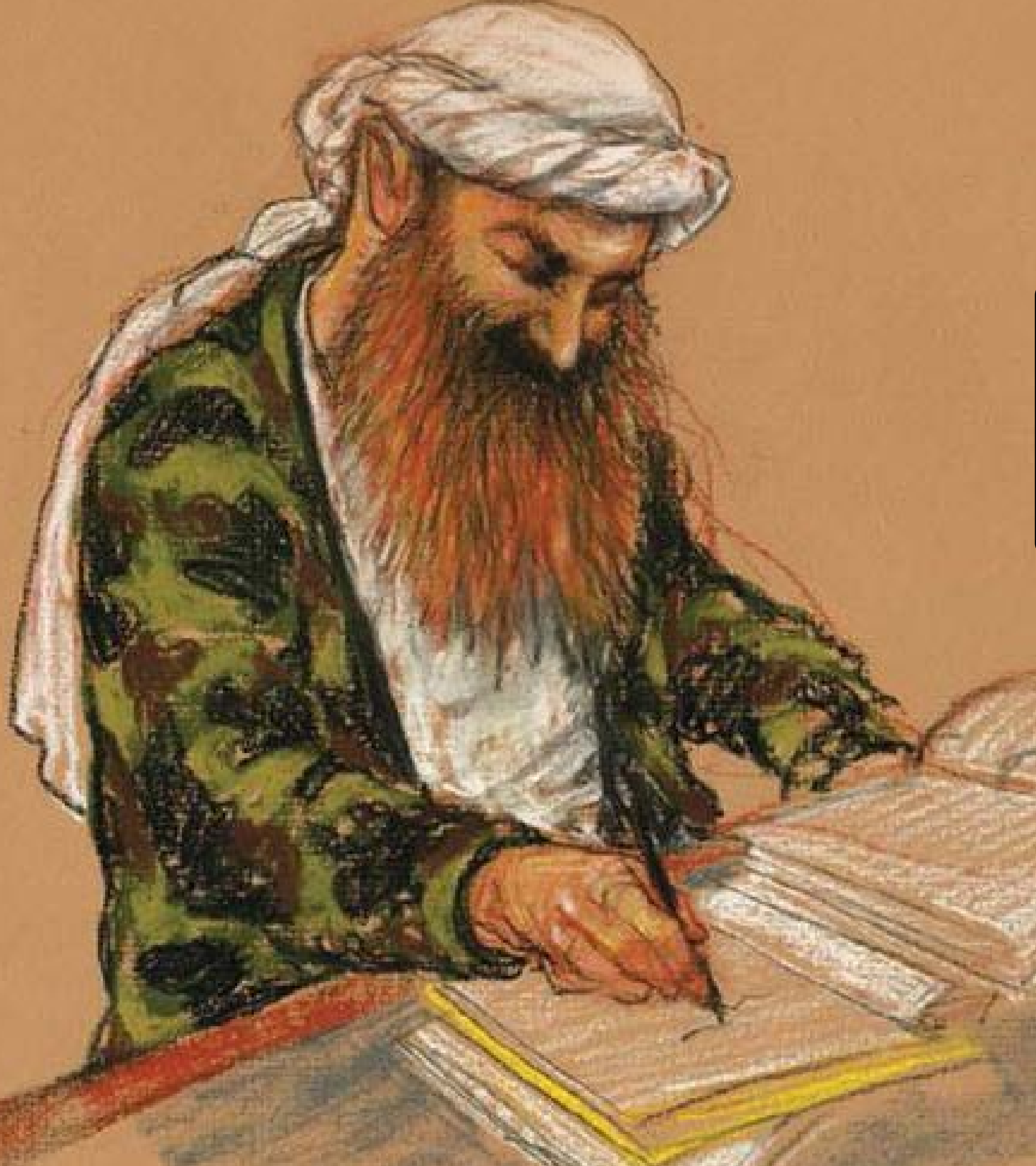

د. سعيد بكور

تُعَدُّ الظّاهرة الأدبية أبطأ الظواهر تغيُّرًا؛ إذ يداخلها التّحديث على مراحل زمنية متباعدة يمسّ فيها التغيير جانبًا دون آخر، ولما كان الشّعر ظاهرة لغوية كان تحوله بطيئًا، هذا إلى جانب كونه نتاج بيئة لها ضوابطها السّياقية وسننها الإبداعية التي تقيّد الشاعر ضمن دائرة مرسومة سلفًا.

جاء الإسلام فطرأ تحوّلٌ ظاهرٌ مسَّ الحياة العامّة، ولم يكن الشّعر بمعزل عن هذا التحوّل الذي مسَّ بناء القصيدة، ومعجمها، ومعانيها على وجه الخصوص.

بيَّنَ الأصمعيُّ في رأيه الشهير أنّ الشّعر في صدر الإسلام لانَ؛ لأنّه صار يعبّر عن مضامين الخير المرتبطة بالدّعوة إلى الدّين الجديد والدفاع عنه، فانزوت إلى الظلّ أغراض الغزل والفخر والهجاء، الأمر الذي أفقد الشّعر عنفوانه الذي كان يميّزه، وقد ذهب النّقاد مذاهب شتّى في فهم كلام الأصمعي، واتّهموا قصيدة صدر الإسلام بالضعف، وغاب عنهم أنَّ الأصمعي إنما قصد مراثي حسّان خاصّة، كما غاب عنهم أنَّ كثيرًا من هذه المراثي إنما أقحمت في شعره وضعًا ونحلًا.

قِراءَةٌ في المَتْنِ

تتجاذب القصيدة ثنائية الاتّباع والابتداع على مستوى المعاني، فالتأثّر بالإسلام واضح في التحوّل الطّارئ على أغراض الهجاء والفخر والمدح، لكنَّ التقليد الفنّي المتمثل في المطلع الجامع بين الطلل والخمرة والغزل يحافظ على وجوده وسلطته الفنية.

للقصيدة سياقها الذي أنتجها، فهي ترتبط بفتح مكّة، وتعدُّ ردًّا على أبي سفيان بن الحارث؛ ولذلك جاءت في أغلبها ذات صبغة تقريرية مباشرة، حيث تغيب عنها الصّنعةُ الفنّيَّة التي وقفنا عليها في معلّقة زهير بن أبي سلمى، وأثّر هذا على الرؤية الفنّيّة.

تمتد القصيدة على مدى اثنين وثلاثين بيتًا، وتتوزّع على معانٍ مختلفة، يستهلها الشاعر كما هو دأب الجاهليين والإسلاميين بمقدّمة يجمع فيها بين الوقوف على الطلل وذكر الغزل، ثمّ ما يلبث أن يخرج إلى وصف الخمرة التي تتداخل مع وصف جمال المحبوبة في نقطة لذّة الرِّيق، ويتخلّص بعدها إلى الفخر والهجاء والمدح بانسيابية.

ويمضي بعيد ذلك، إلى الفخر بشجاعة الفرسان وقوّتهم واندفاعهم، ويقصد حدث فتح مكّة، وفي معرض ذلك يحيل على الدعوة الإسلامية التي جاءت لنشر الحق، ويبيّن الشاعر أنَّ المعركةَ معركةُ سِنانٍ ولِسانٍ، ثمّ يمرُّ إلى مخاطبة أبي سفيان والردِّ عليه هاجيًا إياه بالجبن، مسفّهًا إيّاه لهجائه النّبيَّ ﷺ وفي مخاطبته يقلّل من شأنه ويعيّره وقومه بالمثالب، مادحًا في الوقت نفسه النَّبيَّ ﷺ ومدافعًا عنه.

وإذا كان الشاعر قد حافظ على التقليد الفنّي للمقدمة، فإنّه قد جدّد فيها من حيث جمعُه – ببراعة – بين وصف الطلل والغزل والخمرة، وذلك ملمح من ملامح التجديد الداخلي، أمّا فيما يتعلّق بمضامين القصيدة، فالظاهر أنّ تأثير الإسلام بدا واضحًا في الأغراض المطروقة، فالفخر صار يعبّر عن روح الدِّين الجديد وداخلته ألفاظ جديدة، واقترن في القصيدة بالتهديد، وداخل الفخر يمدح الشاعر الرسولَ ﷺ ورسالته.

قِراءَةٌ في الفَنِّ

يتأرجح معجم القصيدة بين التقليد والتجديد، ويرتبط ذلك بطبيعة الأغراض، والطّابع المميّز للألفاظ هو الفخامة وقوّة الجرس التي تتماشى مع الفخر والهجاء، ويغلب معجم التقليد (تعفيها الروامس، نعم وشاء، ينهنهنا، متمطّرات، الأسل الظماء) على معجم التجديد الذي يكاد ينحصر في جزئية وصف الدِّين الجديد والمدح (روح القدس، جبريل، أرسلت عبدًا، قال الله سيرت جندًا، مباركًا برًا حنيفًا، رسول الله..)، ولعل هذا التجاذب الحاصل بين التجديد والتقليد يبرز التحوّل الذي طرأ على القصيدة الإسلامية في صدر الإسلام.

ويميل إيقاع القصيدة إلى الصَّخب والرَّنين الذي يتماشى مع طبيعة الغرض، ويعكس في الوقت نفسه الواقع الدّاخلي للشاعر الذي يحرّكه الغضب والرغبة في النَّيل من المَهْجُوِّ وتسفيهه

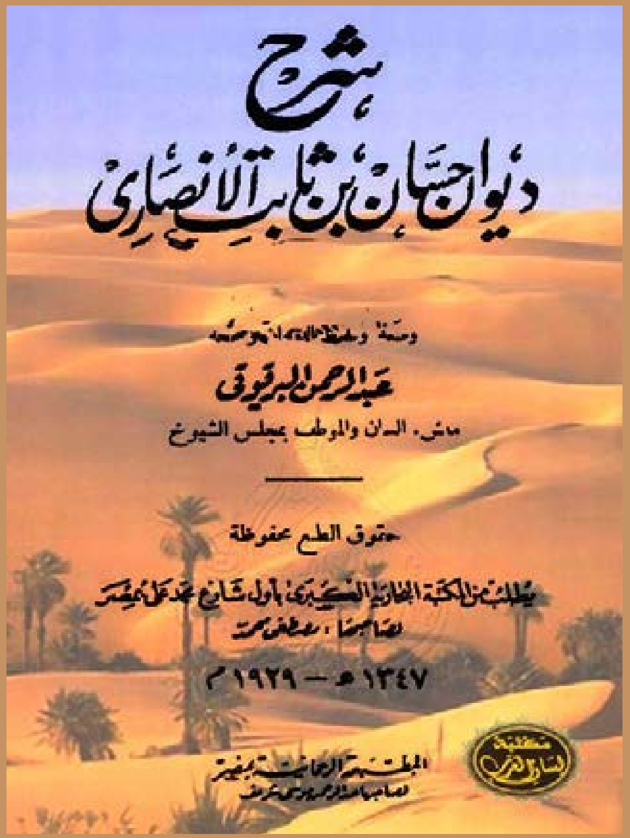

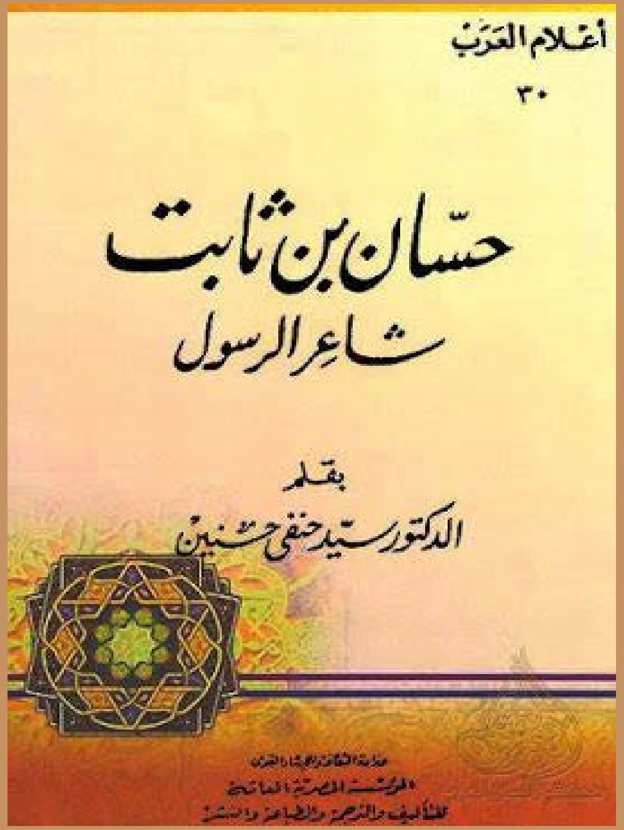

والانتصار للرسول الأكرم والدِّين الجديد، وليس عبثًا أن يختار الشاعر بحر الوافر الذي تتوفَّر فيه (مزية الإطراب الخالص)؛ إذ يتميَّز عن غيره بكونه يصلح (للأداء العاطفي سواء كان ذلك في الغضب الثائر والحماسة، أم في الرِّقة الغزلية والحنين)، وهذا عين ما ينطبق على القصيدة موضوع الدرس، وهو إلى جانب ذلك (بحر مسرع لنغمات كتلاحقها، مع وقفة قويّة سرعان ما يتبعها إسراع وتلاحق. وهذا يتطلّب من الشاعر أن يأتي بمعانيه دُفعًا دُفعًا، كأنّه يخرجها من مضخَّة.

وهكذا يتّضح أنّ اختيار البحر جاء خاضعًا لتصوّر مُسبق، ورؤية فنيّة تقوم على التناسب بين المعنى والإيقاع والبعد النفسي، ولعلّ تلاحق المعاني وتسارعها وتناسلها وانسيابها مما يميّز القصيدة، وكأنّ الشاعر يحمل مدفعًا رشاشًا لا ينقطع مدّه، ويخفي ذلك نفسًا ممتلئة راغبة في ردّ الاعتبار.

ويتزيَّن مطلع القصيدة بظاهرة التقفية، حيث تتّفق العروض والضرب في حرف القافية دون زيادة أو نقصان كما هو الشأن في التَّصريع، وللتدقيق تمثّلت التقفية في مماثلة العروض المقطوفة (جِواءُو: فعولن) للضرب المقطوفة (خلاءو: فعولن)، مما أعطى للمطلع تناسبًا إيقاعيًا له رنينه اللافت والأخّاذ.

جاءت قافية القصيدة مطلقة (**–0–0**)، تسير وَفق نسق مُطّرد منتظم ينتج انتظامًا إيقاعيًا ودقّة هندسية لها بعدها النفسي على المتلقي، والظاهر أنّ حرف الروي المضموم (ءُ) جاء متناسبًا مع جوّ القصيدة المبنيّ على الفخر والهجوم والحماسة وامتلاء النفس، والشّاعر كما هو ظاهر في موقف الغالب المهدّد، ينطلق من قوّة الواقع وقوّة الشّاعرية، وقد عكس ضمُّ الرويّ الرِّفعة والارتفاع، ولا يخفى البعد الصوتي الذي يحدثه توقيع الهمزة بعد مدّ سابق.

إنَّ طبيعة النَّصّ وغايته وسياقه، هذه الظّواهر فرضت على الشاعر أن يلوذ بأسلوب يغلب عليه التقرير؛ لذلك كان حضور الصور الشعرية قليلًا، لكنه نوعيٌّ يندغم في نسيج النَّصّ ويخدم الأبعاد الدّلالية، ويَبُثُّ إشعاعه الجمالي في كلّ الأرجاء.

في البيت الثاني من القصيدة استعارة ومجاز مرسل (تعفّيها الرّوامس والسّماء)، فقد نسب للسماء فعل الدّفن والمحو والتعرية، والسّماء لا تعفي، بل المطر الناتج عن السّحاب الذي يجاور السّماء، وفي الصورة مبالغة بديعة، فكأن السّماء كلّها تكالبت على الدّيار لتعفيها وتسلبها نضارتها، ويخفي هذا المجاز أسف الشاعر على ما حلّ بالدّيار من دمار وخراب، ويسمح المجاز بتصوّر مشهد السّماء القاتمة التي ترسل خيوطها عازمة على سلب الدّار بهاءها، ودفن معالمها الدّالة على حياةٍ كانت آهلة.

وفي قوله (تتركنا أسدَ

ا) يجمع الشاعر بين وصف الخمرة والفخر بطريقة بديعة، وتنطق الصورة بالغرابة المولدة للدّهشة، فالخمرة في الأصل تغطي على العقل وتسلب الرجل رزانته، لكنّها لا تؤثّر في الشّاعر وقومه بل تحوّلهم إلى أسود شرسة لا تخاف من لقاء الأعداء، والتّشبيه رغم أُلفته فإنّه يضخُّ في البيت شيئًا من المبالغة والغلوّ، وفي قوله (ما يُنَهْنِهُنا اللِّقاءُ) زيادة تفصيل وإيضاح.

ومن الصُّور الدّالة التي تَرِدُ في معرض الفخر بالقوّة والفتك بالعِدا، قوله:(على أكتافها الأسلُ الظِّماءُ)، والصورة تحتمل مجازًا مرسلا يظهر في إسناد صفة الظّمأ للأسل (الرِّماح)، والمجاز هنا يحتمل المجاورة والجزئية، فالأسل جزء من عتاد الفارس، بل هو وسيلته في الفتك، وهو أيضًا يجاور الفارس فلا يفارقه، وفي إسناد الظمأ للرِّماح مبالغة في وصف شوق الرِّماح إلى العبِّ من الدِّماء وشفاء الغليل، وكأنّها من خلال هذا التّشخيص تبحث عن الثأر والدم قبل حاملها.

ولا يمكن للباحث أن يتحدّث عن تغيّر في بناء القصيدة، فالفاصل بين الجاهلية وصدر الإسلام لا يجاوز العقدين، وإذا صدَّقنا بقصّة قول المقدّمة في الجاهلية، يزداد التأكّد من الفرضية المطروحة، ويتلو الشاعر المقدّمة بتخلص سلسٍ إلى الفخر المختلط بالهجاء في قوله:

وأسْداً ما يُنَهْنِهُنَا اللِّقاءُ

ليطلق العنان لوصف قوّة قومه ورباطة جأشهم، مشيرًا إلى يوم الفتح، وفي ثنايا الفخر يشير إلى الدعوة الجديدة التي أمر الله رسوله الكريم أن يصدح بها، ليمرَّ بعد ذلك إلى الهجاء الذي يداخله مدح، ولعلَّ تجديد الشّاعر يتجلّى في قدرته على صهر الفخر والهجاء والمدح في أتون لا تنفصل مكوناته، وهو ما يزكّي التّماسك النَّصّيَّ الذي ميَّز القصيدة.

عَيْنٌ على «خِزَانَةِ الأَدَبِ وَلُبِّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ» لِلبَغْدَادِيِّ (1093هـ)

هشام بُحَيري

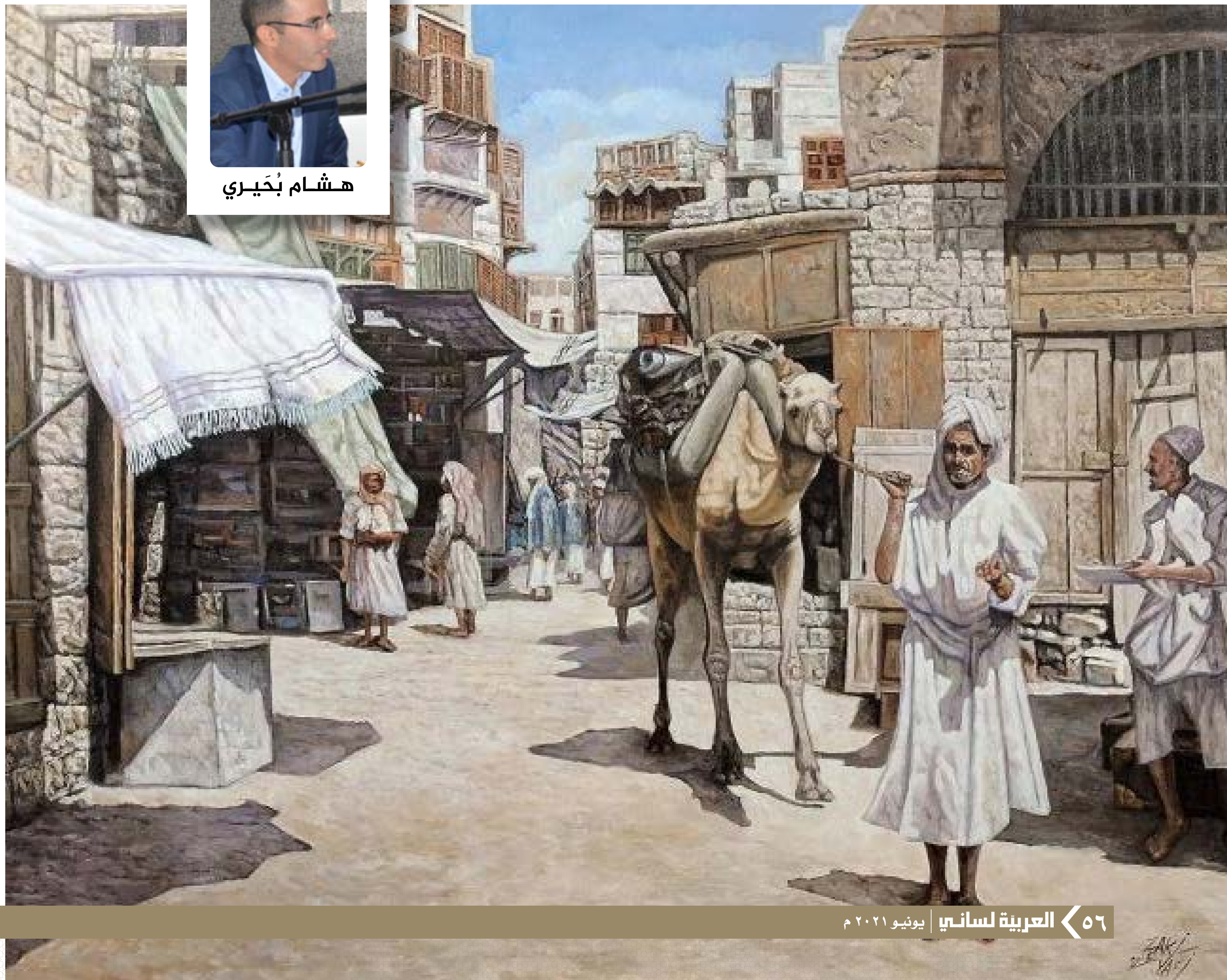

خزانة الأدب هي شرح للشواهد الشِّعرية الواردة في شرح محمد بن الحسن الرَضِيِّ الأستراباذِيِّ (ت:٦٨٨هـ) على كافية ابن الحَاجِبِ (ت:٦٤٦هـ) في النَّحو، وبلغ عدد تلك الشواهد ٩٧٥ شاهدًا. وكان دافعه لشرح تلك الشواهد هو ما أصابها من تَحْريفٍ وَتَصْحيفٍ وعدم التقييد والضبط، فيقول: «إِنَّ أبياته (يعني شواهد الرَضِيِّ) الَّتِي اسْتشْهد بها ـ وَهِي زهاء ألف بَيت ـ كانَت محلولة العقال، ظاهِرَة الإِشْكال، لغموض مَعْنـاهَا، وخفاء مغزاها، وَقد انْضَمَّ إِلَيْها التحريف، وَبان عَلَيْها أثر التَّصْحِيف... فَشَمَّرْتُ عَن ساعد الجِدِّ وَالِاجْتِهاد، وشرعتُ فِي شرحها على وفْق المنى وَالْمرَاد».

ولم يتوانَ صاحبُ الخزانة في الإشادة بنفسه مفتخرًا بما آتاه الله من علمٍ بضروب الأدب وفنونه، وما توفّر لديه من كتب وأسفار، فيقول في مقدمة هذا الكتاب: «وَكُنْتُ مِمَّن مرن فِي علم الْأَدَب، حَتّى صار يُلَبّيهِ مِنْ كَثَب؛ وأفرغَ في تَحْصيله جُهْدَه، وبَذَلَ فيهِ وُكْدَهُ وَكَدَّهُ؛ وَجمع دواوينه، وَعرفَ قَوانينه، وَاجْتمعَ عِنْده بِفضل الله من الْأَسْفار، مَا لم يجْتَمع عِنْد أحدٍ فِي هَذِه الْأَعْصار».

فكان ذلك سبيلًا لإطراء كتابه هذا، فقال عنه: «فجَاء بِحَمْد الله حائزَ المفاخر والمحامد، فائقًا على جَمِيع شُرُوح الشَّواهد؛ فَهُوَ جدير بِأَن يُسمى: (خزانَة الْأَدَب ولبّ لباب لِسَان الْعَرَب)». وهذا أمر تؤكده المصادر التي اعتمدها في تأليف هذا الكتاب، والتي ذكر بعضها في المقدمة أيضا، وهي ضروب وأجناس، استهلها بكتب النّحو مما يؤكد عنايته بالجانب النَّحوي في تلك الشواهد، ثم أردفها بكتب شرح الشواهد، ثم ذكر ما يرجع إلى دفاتر أشعار العرب، وما يرجع إلى فنِّ الأدب. ورجع أيضًا إلى كتب السِّيَرِ والصَّحابة وأنساب العرب، وطبقات الشعراء وغيرهم. كما كان لا بدَّ له في هذا الشَّرح أن يعود إلى كتب اللغة، وما يتعلّق بها من كتب أغلاط اللغويين. ودَعاهُ الاستطراد في الشرح أحيانا إلى كتب الأمثال، وكتب الأماكن والبلاد. وقد وصل عدد العناوين التي ذكرها بالاسم نحو ٩٤٥ عنوانًا. ويرى عبد السلام هارون – محقّق الكتاب – أنَّ عدد المصادر التي اعتمدها صاحب الخزانة قد يتجاوز أربعة آلاف كتاب إذا ضُمَّتْ إليها شروح تلك الكتب وما أُلِّفَ فيها من تلخيص أو نقد، وما يزيد الخزانة قيمة – بالإضافة إلى الجهد الصادق المحقق الذي بذله البغدادي في دراسة الشواهد وتمحيصها، واطلاعه على الكتب النادرة – هو حفظها لكثير من النُّصوص التي ضاع كثير من مصادرها.

ويقوم تأليف خزانة الأدب أساسًا على شواهد النحو، فإنها، كما يبدو من خلال المصادر التي اعتمدت في تأليفها، يمكن عدُّها موسوعة لغوية وأدبية وتاريخية. فالجانب اللغوي حاضر في شرح جلّ شواهدها، فقد عُنِيَ البغدادي عناية بالغة بالقضايا اللغوية، معتمدا كتب اللغة لشرح ألفاظ الشواهد، يقينًا منه بأهمية فهم المعنى اللغوي ودوره في تحليل المسألة النحوية، مثل قوله عند الشاهد ٣٠٠ بعد ذكر محل الاستشهاد به:

أَقامَتْ عَلى رَبْعَيهِما جارَتا صفاً

كُمَيْتا الأعالي جَوْنَتا مُصْطَلاهُما

«ينبغي أن تشرح أولا ألفاظه اللغوية حتى يظهر ما ينبني عليه من المسألة النحوية».

كما اهتم ببيان الفروق اللغوية الدقيقة بين الألفاظ، من ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ بيانه الفرق بين لفظتي «العام» و«السّنة»، فنقل عن ابْن الجواليقي: «وَلَا تفرق عوام النَّاس بَين الْعَام وَالسّنة، ويجعلونهما بِمَعْنى، فَيَقُولُونَ لمن سَافر فِي وَقت من السّنة، أَي وَقت كَانَ إِلَى مثله عَام، وَهُوَ غلط، وَالصَّوَاب مَا أُخْبِرْتُ بِهِ عَن أَحْمد بن يحيى أَنه قَالَ: السَّنة من أَيِّ يَوْم عددته إِلَى مثله، وَالْعَام لَا يكون إِلَّا شتاء وصيفاً».

وعُنِيَ البغداديُّ أيضًا بضبط ألفاظ لهجات القبائل المختلفة التي أخذ عنها النُّحاة اللغة مبينًا الفروق الدَّقيقة بينها، سواء أتعلَّق الأمر بضبط نطقها في لغات مختلفة، مثل قوله: « الرُّفْقَةُ وَهِي

بِضَم الرَّاء فِي لُغَة تَمِيم، وَالْجمع رفاق، مثل بُرْمَة وبِرام، وبكسرها فِي لُغَة قيس، وَالْجمع رِفَق، مثل سِدْرَة وَسِدَر»، أم بتدقيق معناها، مثل قوله: «والكِشافُ فِي لُغَة كِنَانَة وهُذَيْل وخُزاعة: الْإِبِل الَّتِي لم تحمل عَامينِ، وَتَمِيم وَقيس وَأسد وَرَبِيعَة يَقُولُونَ: الْكِشافُ الَّتِي إِذا نُتِجَتْ ضرَبَهَا الْفَحْل بعد أَيَّام فَلَقِحَتْ»، أم باختلاف عملها، إذا كانت عاملة، في لغة أخرى، مثل قوله: «زعم أَبُو حنيفَة الدَّينَوَرِي فِي كتاب النَّبَات أَن نصب الجزأين بــ(لَيْتَ) لُغَة بني تَمِيم».

ويشغل الجانب الأدبي حيزًا مهمًّا في الخزانة، وهو أمر يؤكده العنوان بإضافة الخزانة إلى الأدب، إذ يلحظ قارئها أنَّ شرح الشاهد غالبًا ما يقود البغداديَّ إلى إيراد الأبيات المرافقة له في القصيدة، وقد يذكر أحيانا القصيدة برمتها ويشرحها شرحًا مستفيضًا، فيستدعي الأمر التوقّف عند بعض القضايا البلاغية والنقدية والعروضية، فمن اللفتات البلاغية مثلا بيانه للقصر في الشاهد ٤٤ عند قول الشاعر:

لَا أشتهي يَا قوم إِلَّا كارِهًا

بابَ الْأَمِيرِ وَلَا دفاعَ الْحَاجِب

فيقول نقلا عن السّيد فِي حاشِيَته على المطول: «قصر فِيهِ الشّاعِر نَفسه فِي زمَان اشتهائه بَاب الْأَمِير على صفة الْكَراهَة لَهُ؛ فَهُوَ من قصر الْمَوْصُوف على الصّفة. وَيُمكن أَن يُقال: قصر فِيهِ اشتهاءه بَاب الْأَمِير عَلَيْهِ مَوْصُوفًا بالكراهية لَهُ، لَا يتعداه إِلَيْهِ مَوْصُوفًا بِصفة الْإِرَادَة لَهُ، فَهُوَ من قصر الصِّفة على الْمَوْصُوف».

ومن القضايا النقدية في الخزانة ما نقله البغداديُّ عن ابْن رَشِيق فِي الْعُمْدَة، فِي بَاب السرقات الشعرية: وَمِمّا يعدُّ سَرِقاً وَلَيْسَ بِسَرق اشْتِرَاك اللَّفْظ الْمُتَعَارف، كَقَوْل عنترة:

وَخيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ

عَلَيْهَا الْأُسْدُ تَهْتَصِرُ اهْتِصارا

وَقول عَمْرو بن معد يكرب:

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

وَقول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وَخَيْلٍ قد دَلَفْتُ لَهَا بخَيْلٍ

فدارت بَين كَبْشَيْها رَحاها

والخزانة – أيضًا – سِجِلٌ تاريخيٌّ لأيّام العرب ومغازيهم في الجاهلية والإسلام، وحضارتهم وما تزخر به من عادات وتقاليد، مثل قوله عن الميسر: « كَانَ الْمَيْسِر مَنْقَبَةً فِي الجاهليّة، يَلْعَبُونَ بِهِ فِي أيّام الجدب والقحط؛ وَكَانَ الْغَالِبُ يفرِّق مَا أخذه على الْفُقَرَاء؛ ويقول أيضا تعليلًا لاستحسان العرب للبياض: «الْبَيَاض، لعزّته عِنْد الْعَرَب لِغَلَبَة السمرَة عَلَيْهِم، يستعيرونه لحسن الْحَال والجودة».

والبغداديُّ شديد الحرص على الترجمة لأصحاب الشواهد الشعرية، وضبط أسمائهم، مثل قوله: «والجُمَيح بِضَم الْجِيم وَفتح الْمِيم مصغر، قَالَ ابْن الْأَنْبَارِي: هُوَ لقب، واسْمه مُنْقِذ بن الطَّمّاح بن قيس بن طريف بن عَمْرو ابن قعين بن طريف بن الْحَارِث بن ثَعْلَبَة ...». ويعتني البَغْدَادِيُّ أيضا بتحديد الأوائل منهم في مجال ما، مثل قوله في شرح أبيات من قصيدة الشاهد ٥٠٢: وَأَوَّل من كنّى بالأظفار عَن السِّلاح أَوْس بن حجر فِي قَوْله:

لعَمركَ إنَّا والأحاليفَ هَؤُلا

لَفي حِقْبَةٍ أظفارُها لَمْ تُقَلَّمِ

ثُمَّ تبعه زهيرٌ والنابغةُ فِي قَوْله:

آتوك غير مُقلَّمي الأَظْفارِ

هذا بالإضافة إلى سرد لكثيرٍ من الأمثال وبيان معانيها ومناسبة ضربها وأصولها، وهي كثيرة في الخزانة نذكر منها على سبيل المثال في مناسبة المثل « أُعْطِيَ العَبْد كُرَاعًا فَطلب ذِرَاعا» قوله: «...أقبل رجلانِ من بني الْقَيْن، يُقال لأَحَدهمَا مَالك وَللْآخر عقيل ابْنا فالج، ويروى فارج، من الشَّام، وهما يُريدان الْملك بهدية، فَنزلَا على مَاء ومعهما قينة يُقَال لَهَا أم عَمْرو، فَنصبت لَهما قِدراً وَهَيَّأَت لَهما طَعَاماً، فَبَيْنَمَا هما يأكلان إِذْ أقبل رجلٌ أَشْعَث الرَّأْس قد طَالَتْ أَظْفَاره، وَسَاءَتْ حَاله، وَمدَّ يَدَهُ فناولته الْقَيْنَة طَعَاما فَأَكله، ثمَّ مَدَّ يده، فَقَالَت الْقَيْنَة: (أُعْطِيَ العَبْد كُرَاعًا فَطلب ذِرَاعا) فأرسلتها مثلا».

أمّا منهج البغداديِّ في عرض مادة الخزانة، فنجده يتّبع في جلِّ الأحيان منهجًا واحدًا، فقد حافظ على تقسيم الأبواب النحوية كما وردت في شرح الرضِيِّ، والتزم بترتيب الشواهد حسب ورودها في الشرح، ونجده يولي شواهد سيبويه عناية خاصّة، أمّا الشواهد المجزوءة فيسعى دائما لتتمتها، فإن تعلق الأمر بصدر بيتٍ ذكر عَجُزه، وإن كان عَجُزا ذكر صدره، وإن كان جزءا من صدرٍ أو عَجُزٍ ذكر البيت كلَّهُ، وإن كان الشاهد من قطعة نادرة أَو قصيدة عزيزة أوردها كَامِلَة، وشرَح غريبها ومشكلها. أمّا موقفه من الشَّواهد المجهولة القائل فقد كان واضحًا حين وضع شرطا دقيقا لقبول الاستشهاد بها أجمله في قوله: «الشَّاهِد الَّذِي جُهِل قَائِله إن أَنْشدهُ ثِقَة كسيبويه وَابْن السراج والمبرّد وَنَحْوهم، فَهُوَ مقبول يعْتَمد عَلَيْهِ، وَلَا يضرُّ جهلُ قَائِله».

أما أسلوبه في النَّقل من موارده، فقد نهج البغداديُّ في ذلك أساليب متنوعة، منها النقل المباشر ـ فينقل بعض النصوص من مظانِّها دون تغيير أو حذف أو اختصار للمادة المنقولة، مشيرًا إلى صاحبها والمؤلَّفِ الذي وردت فيه، وهي كثيرة في الخزانة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله في باب الحروف العاطفة عند تحليل الشاهد ٨٩٧:

سِيّانِ كَسْرُ رَغيفِهِ

أَو كَسْرُ عَظْمٍ منْ عِظَامِهْ

«قَالَ أَبُو عَليّ فِي (كتاب الشّعْر): كَانَ الْقيَاس أَن يكون الْعَطف فِيهِ بِالْوَاو دون أَو، لِأَن الْعَطف بِأَو فِي هَذَا الْموضع فِي الْمَعْنى: سيان أحدهما، وَهُوَ كَلَام مُسْتَحِيل، كَمَا أَن سَوَاء زيد أَو عَمْرو كذلك، لأن سواءً وسيانِ واحدٌ في المعنى، وإنّما سِيٌّ من سواء كقِيٌّ من قَواء. فَكَمَا لَا يَسْتَقِيم سَوَاء زيدٌ أَو عَمْرٌو، لِأَن الْمَعْنى سَوَاء أَحدهمَا، والتسوية إِنَّمَا تكون بَين شَيْئَيْنِ فَصَاعِدا، كَذَلِك يَنْبَغِي أَن لَا يَسْتَقِيم».

وقد يلجأ إلى النقل بالمعنى، فيتصرّف في النُّصوص إذ يغيِّر فيها، فَيُقَدِّم أَوْ يُؤَخِّر أو يخْتَصِرُ، لكنَّه على الرُّغم من ذلك يحتفظ بالمعنى المراد مما ينقل، وقد يلجأ صاحب الخزانة إلى النقل غير المباشر، فنجده ينقل أقوالًا وآراءً لعلماء معينين عن طريق علماء آخرين في مسائل وأحكام نحوية متفرّقة.

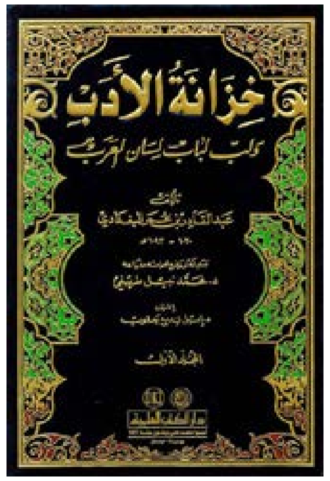

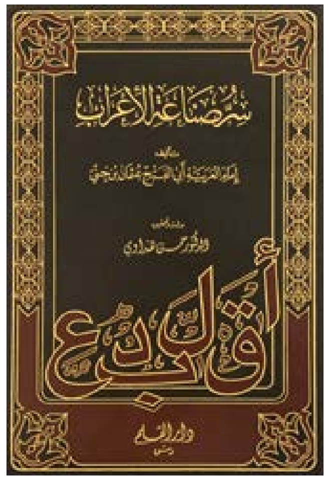

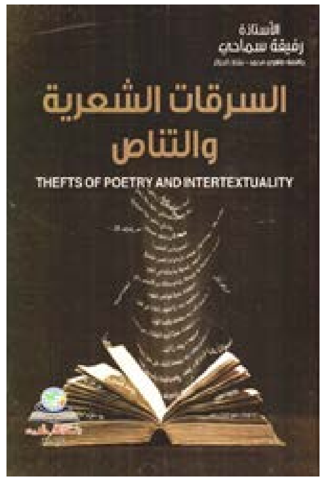

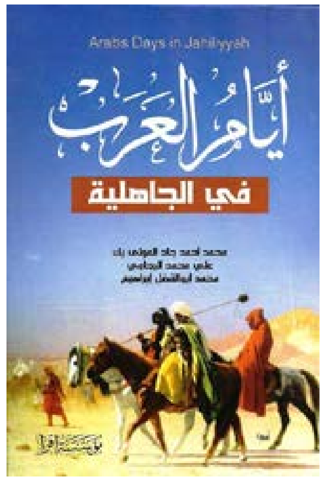

الشِّعرُ بَيْنَ تَزْيِينِ الغَاوِين وَدَفْعِ المُرَابِطِين

الزهراء عبد الحميد محمد
كاتبة وباحثة تربوية

الشِّعر من أهم وسائل حفظ اللُّغة:

لا جدال على أن الشِّعر فنٌّ من الفنون الأدبيَّة الراقية التي تؤدِّي دورَها ورسالتَها على وَفْق ظروف الأُمَّة في حالتَي السِّلم والحرب؛ فالشَّاعر يحمل بارودًا من الكلمات الملتهبة التي يوقد بها حماس الجند الرَّابضين خلف الثُّغور والقلاع، فيجعل منهم بصدق لهجته حُمَمًا وشُهُبًا ولَظًى يُرمَى بها كلُّ معتدٍ أثيم. والشَّاعر المُلتزم هو مَنْ يدرك معنى الالتزام وأبعادَه ومسؤوليَّةَ الحَرْف التي يتعيَّن أن يلتزمَ بها حَمَلَةُ الأقلام، ففي زمن الزَّيف والباطل والتَّردِّي يجب أن يكون الحرفُ جواداً جَسوراً، وسيفاً مسلولاً، ويتحول الشِّعر إلى وسيلة جهاد وسمو من أجل الوصول إلى الغايات الإنسانية النبيلة. (الخصائص الفنية للاتجاه الإسلامي، أحمد محمود مبارك، مجلة الأدب الإسلامي، العدد الرابع ١٩٩٤م، ص٦٩)

ومن هنا كان رسول الله ﷺ يدفع حسَّانَ بنَ ثابت ليُنافح عن الإسلام، ويدافعَ عن مبادئه قائلاً له: «اهْجُهُمْ –أَوْ: هَاجِهِمْ– وجِبْرِيلُ معكَ». (الصَّواعق المرسلة، دار العاصمة، الرِّياض:١/ ٣٠١) [رواه البخاريّ، فتح الباري، ٦: ٣٠٤، عن طريق البراء بن عازب –رضي الله عنه– في كتاب بَدْء الخلق، باب ذكر الملائكة، ح: ٣٢١٢. ورواه مسلم، ٤/ ١٩٣٣، في كتاب فضائل الصَّحابة، باب فضائل حسَّان بن ثابت –رضي الله عنه–، ح: ١٥٣]

والقصيدة الشِّعرية ليست إلا سلسلة من المشاعر والمناظر والأفكار التي تتولَّد في ذهن الشاعر عن موقف بعينه، ثم تُودَع في قوارير الألفاظ لِتَبْقَى أبد الدهر متعة لمن شاء أن يفتح هذه القوارير ليستخرج منها ما استودعته. (فنون الأدب، تعريب الأستاذ زكي نجيب محمود –بتصرف–)، ومن ثَمَّ قال: إن الشَّاعر هو ذلك المتعبِّد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرِحًا مُنَادِيًا مهللًا مصغيًا مناجيًا، ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماءٌ وأفعالٌ وحروفٌ واشتقاقاتٌ جديدةٌ لأشكال عبادته التي تتجدَّدُ في كلِّ يوم، وأنواع إنجازاته التي تتغيَّر في كلِّ ليلة، فيضيف بعمله هذا وتراً فضيًّا إلى قيثارة اللغة، وعُوداً طيِّباً إلى موقدها. (البدائع والطرائف، جبران خليل جبران ص ٧١، مكتبة النهضة، بغداد)

موقف الإسلام من الشِّعر:

والشِّعر كغيره من الفنون سلاحٌ ذو حدَّيْن يمكن استخدامُه في الارتقاء بالأُمَّة ونهضة الشَّعوب، وتوعية إدراكهم، وتنمية إحساسهم نحو الجميل والكريم، فيحملهم ذلك إلى التَّحَلِّي بمكارم الأخلاق .ومن فوائد الشِّعْر الجيِّد أنّه وسيلة عظيمة لإحياء اللُّغة العربيّة، والبحث في بطونها، واستخراج العبارات والألفاظ المذخورة في اللغة ما يثري البلاغة، ويدفع اللِّسان العربيّ إلى طريق واضح معبَّد وأنَّ خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللّغة هي في قلب الشَّاعر، وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشَّاعر هو الوسيط بين قوّة الابتكار والبشر، وهو السّلك الذي ينقل ما يحدثه عالم الحفظ والتدوين، فالشّاعر أبو اللّغة وأمُّها تسير حيثما يسير، وتربض أينما يربض. (البدائع والطرائف، لجبران خليل جبران، كلمات عربية للترجمة والنشر، ص٦٠)

والشِّعر يمثل ضرورةً مهمّة من ضرورات الحياة في المجتمع الإنسانيّ، ومتنفسًا يريح المصدور، ويبرد المحرور، ويؤنس الغريب، ويفكّ العاني. إنه «ضرورة في ذاته؛ لأنّه يرقِّي المدارك، ويُنْضِجُ معرفتنا بأنفسنا وبالعالم، ويرفعُنا من مراغة الوجود الزّائف المستهلك في المطالب اليوميّة العابرة إلى وجود أصيل راق تستشرف فيه الحقيقة». (مدخل إلي إلى علم القراءة الأدبيّة، مجدي أحمد توفيق، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، ص: ١٠٠)

ولكنْ: ما موقف الإسلام من الشّعر عموماً؟ من المعروف أن الإسلام يَنْشُدُ الحَسَن والحُسْن دائماً، ويرغب في الإحسان في كل الأعمال، يترتّب على ذلك أن الخِطاب والقول الأوّل لا بد أن يكون حَسَنًا أيضًا. قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣). فالشّعر كغيره من فنون الأدب إنْ وَافَقَ ذلك فهو حَسَن، وإلا فله حُكم آخر، والنّص القرآنيّ الذي جاء في (سورة الشّعراء) يحتاج إلى إطلالة تراثية وتجلية الأمر مع ربطه بالواقع المعيش، يقول الله تعالي: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ

بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧].

تحليل النص القرآني:

قيل إنّ المراد بذمّ الشّعراء في الآية الكريمة هم الذين يروون الشّعر المشتمل على الهجاء، وما لا يجوز، وقيل المراد شعراء الكفّار خاصّة، وهم يخوضون في كلّ فنٍّ من فنون الكذب، وفي كل شِعب من شعاب الزور يتكلمون، فتارة يمزّقون الأعراض بالهجاء، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجّه السّمع ويستقبحه العقل، وتارة يخوضون في بحر السّفاهة والوقاحة، ويذمّون الحقّ ويمدحون الباطل، ويرغبون في فعل المحرّمات، ويدعون النّاس إلى فعل المنكرات، كما تسمع أشعارهم في مدح الخمر والزّنى واللّواط، ونحو هذه الرّذائل الملعونة.

ثم استثنى الله الشّعراء المؤمنين الصالحين، الذين أغلب أحوالهم تحرّي الحقّ والصّدق، أي دخلوا في حزب المؤمنين وعملوا بأعمالهم الصالحة، وذكروا الله كثيراً في أشعارهم، وانتصروا من بعد ما ظلموا، كمن يَهْجُو منهم من هجاه، أو ينتصر لعالم أو فاضل، كما كان يقع من شعراء رسول الله، وأنهم كانوا يهجون الذين يهجونه، ويقفون في وجهه ويذبون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم.

ويدخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السُّنة، وكافح أهل البدعة، إلى أن يقول: فإنّ الانتصار للحقّ بالشّعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله، المنتصرين للدين، القائمين بأمر الله بالقيام به. (فتح القدير، للإمام الشوكاني، ص: ١٢١)

ويقول ابن الجوزي في هذه الآية: ألم تر أنهم في كل واد يهيمون من الكذب والقذف، والهجاء وهتك الأعراض والأمر بالفواحش (تلبيس إبليس لابن الجوزي، مطبعة المدني، القاهرة، ص:١٨٠). ويقول رسول الله ﷺ: «إن من الشّعر حكمة» (رواه أحمد في المسند)، ويقول رسول الله ﷺ: ﷺأصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَها الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: (أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلٌ)». [أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦)]، ويقول ابْنُ عباس –رضي الله عنهما– (إذا قرأتم شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه فَاطْلُبُوهُ في أشعار العرب) (العمدة لابن رشيق ص١١)، ولقد سأل رجل عكرمة –رضي الله عنه– عن (الزنيم) فقال هو ولد الزنى، وتمثل ببيت من الشعر:

زَنِيـمٌ لَيْسَ يَعْـرِفُ مَـن أبُـوهُ
بَغِـيُّ الأمّ ذُو حَسَـبٍ لَئِـيمِ

وعلى كلٍّ، فإن آية الشّعراء التي عرضنا فيها أقوال جمهور المفسّرين، فيها إخراج الشّعراء المؤمنين من دائرة الغواية والفساد، وأن نتاجهم مطلب لحياة المسلمين الأدبيّة، وفيها بُعد للنتاج نفسه عن دائرة شعر الفساد والغواية، وتقرير بأنّ وجود هذا الشّعر لازم لمسيرة الحياة الأدبية في مجتمع المسلمين (مكانة الشّعر في صدر الحياة الأدبيّة في صدر الإسلام، د. حسن بشير، ص: ٣٢، الدار السودانيّة للكتاب، الخرطوم).

نَخْلُص من كلّ ما سبق إلى أنّه ليس كلّ الشّعر مذموماً، وليس كله ممدوحًا، والشاعر قد يسلك أحد السّبيلين أو كليهما، فإن سلك طريق الغواية والنّقص، كان داخلاً في الذم والتّهديد، وإن سلك طريق الرشد فحمل أمانة الكلمة النظيفة فأقامها حيث ينبغي أن تقام ووضعها في موضعها الذي يليق بها، كان مناضلاً كريماً، ومن هؤلاء: ابن رواحة، وحسّان بن ثابت ومن سلك مسلكهما.

إن الشّعر الأصيل هو الذي لا يتخلّى عن القداسة أبدًا، ولا ينفصل عن تراثه الإسلامي أبدًا، فهو ليس عبقرية أو فنًّا في ذاته، فَمَتَى انفصل عن تراثه الإسلاميّ صار شيئاً خبيثًا كهذا الذي ذكرناه، فالشّعر وحدَه لا يستطيع أن يتمّ عمله إلا بفضل القداسة نفسها، وبدونها فإنّه سيكون عاجزاً أن يحقق نصراً. يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن أَلَدّ أعدائنا وأخطرَ الناس عَلَى نهضتنا أولئك الذين يزيّنون الرّذائل للشّباب ويهيّجون لدمائهم حُبّ الجريمة، ويصوّرون الحياة لهم على أنّها غرائز يجب إشباعها وفرص يجب انتهازها، وحريّة ليس عليها قيد وانطلاق لا يهدأ عند حد». (كفاح دين، للشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ص: ٣٩٣)

وهنا ندرك تمامًا حقيقة الدّعاء الذي كان رسول الله يستعيذ ربَّه منه إذا قام من اللّيل: «اللهمَّ إني أعوذ بك من الشّيطان الرّجيم، من همزه ونفثه ونفخه» [أخرجه أبو داود (٧٦٤)، وابن ماجه (٨٠٧)، وأحمد (١٦٧٣٩) واللفظ له]. وفي رواية أنه سئل ما نفثه؟ قال: الشعر. وبعد هذا العرض السابق يتبين لنا أن إجابته – صَلَّى الله عليه وسلم– إنما تعني الشّعر الخبيث، أو الكلام السّاقط الذي يتداوله الأدباء الذين يسعرون الغرائز لا العواطف، ويلهبون الشهوات، ولا يتسامون بالمشاعر.

مجالات الشِّعر المطلوب:

الشِّعر المطلوب هو الشِّعر الذي يتحدث عن جمال الطّبيعة الفانية.. الذي يتحدث عن القوة.. الذي يتحدث عن انطلاق الطاقة البشرية للعمل والإنتاج.. الذي يتحدث عن العواطف الإنسانية النظيفة.. الذي يدفع ويحرك إلى الأمام.. الذي يفتح الأمل أمام البشرية.. الذي يدعو إلى إزالة المظالم وإصلاح الفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. الذي يصف الحياة كما ينبغي أن تكون، كلّ ذلك شِعْر إسلاميّ؛ لأنّه تعبير عن الفطرة النظيفة، ولو لم يذكر فيه مرة واحدة اسم الدين ولا مفاهيم الدين المباشرة.

المدائحُ النَّبويةُ
في الشِّعر العَربيّ نشأةً وتاريخًا

أميرة الشناوي كيوان

لقد أدَّى الشِّعر دورًا مهمًّا في الدّعوة الإسلاميّة منذ بزوغ فجْرِ الإسلام، فقد سَلَّ الشُّعراء ألسنتهم بمجرد أن اشتبكت السّيوف بين المسلمين والمشركين؛ إذ واجَهَ الشّعراء المسلمون أهلَ الشِّرْك حين ذاع من أشعارهم في القبائل العربيّة التي هجوا بها النبيّ، وصدوا بها عن الإيمان.

وتَكَوَّن في صدر الإسلام فريقٌ من الشُّعراء حمَل على عاتقه عبء الدفاع عن هذا الدين، ومناصرة رسوله الكريم ضد طواغيت الشرك وشعرائهم، فانبرى حسّان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك لهجاء المشركين والدّفاع عن الدعوة الجديدة وصاحبها ضد الحرب الشّعواء التي أشعلها عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرَى، وأبو عَزَّةَ الجُمَحِيّ، وهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ، وضِرَارُ بنُ الخَطَّابِ، وأبو سُفْيَانَ بنُ الحارثِ، وعلى رأسهم الشاعر اليهوديّ كَعْبُ بنُ الأشرف، الذي صبّ جُلّ حَنَقِهِ وبُغْضِهِ على النبيّ وأصحابه.

واحتدم الهجاء بين الفريقين، وخاض الشُّعراء المسلمون معمعة شِعريّة حامية الوطيس، في إثْر كلِّ غزوة من غزواته ﷺ أو حادثة عارضة وقعتْ، فكَثُر الشِّعر في بَدْر وعقب أُحُد والخندق، وغيرها.

فمدح الشُّعراء المسلمون الرسول، ورَدُّوا كيْد شعراء المشركين في نحورهم، وألبسوهم لباس الذل بهجاء مقذع لاذع، ورموهم بسهام الخزي والعار، من ذلك قول كعب بن مالك في غزوة الخندق:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بعضُهُ
بعضًا كمعمعةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ(١)
فلْيأتِ مَأْسدَةً تُسَنُّ سُيُوفُها
بينَ المذادِ وبين جِزعِ الخَنْدقِ(٢)

ومثل قول حسّان بن ثابت في يوم بدر، يمدح النبي ﷺ:

فينا الرَسولُ وَفينا الحَقُّ نَتْبَعُهُ
حَتّى المَماتِ وَنَصرٌ غَيرُ مَحدودِ
مُستَعصِمينَ بِحَبلٍ غَيرِ مُنجَذِمٍ
مُستَحكِمٍ مِن حِبالِ اللَهِ مَمدودِ(٣)

(١) يُرَعْبِل: يمزِّق- المعمعة: صوت لهب النار في القصب - الأباء: أجمة القصب
(٢) مأسدة: أرض كثيرة الأسود - المداد: موضع بالمدينة - جزع الخندق: منعطفه
(٣) منجذم: منقطع

ويُتِمُّ الله النّصر لرسالته ولرسوله، ويفتح الله مكة أمام المسلمين ويدخل الناس في الإسلام، ويؤمن كثير من شعراء المشركين، ويعتذرون عمّا فرطوا في جنب الله، على نحو ما فعل أَنَسُ بْنُ زُنَيْمٍ بعد إسلامه بمثل قوله:

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ(٤)

وتختفي أصوات الشرك إلا صوت كعب بن زُهَيْر بن أبي سُلْمَى الذي هجا أخاه بُجيرًا لإسلامه، هجاء تعرّض فيه للنبيّ بالإيذاء، ويرد عليه أخوه بُجَيْرٌ مقولتَه، ويُفنِّد مزاعمَه بقوله:(٥)

مَنْ مُبْلِغٌ كَعْبًا، فَهَلْ لَكَ في الّتي
تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطلاً وَهِيَ أَحْزَمُ
إلى اللهِ،(لا العُزَّى ولا اللاّتِ) وَحْدَهُ
فَتَنْجُو إذَا كانَ النَّجاءُ فَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمِ لا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ
مِنَ النَّاسِ إلا طاهِرُ القَلْبِ مُسْلِمُ

ويسلك كعب ويعتذر عمّا فعل، ويمدح النبيَّ بقصيدته الرّائعة، الذّائعة الصِّيت في تراثنا العربيّ، التي كان لها أثر بعيد على الشعراء من بعده، ونالت حظًّا وفيرًا من التّحليل والشّرح والتّفسير، والمعروفة بقصيدة «بانت سعاد» أو «البُردة» التي يقول في مطلعها:

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبولُ
مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبولُ(٦)

ويقول في ثناياها في مدح النبي:(٧)

نُبِّئْتُ أنَّ رَسُولَ الله أَوْعَدَني
والعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ الله مَأْمُولُ
مَهْلاً هَداكَ الذي أَعْطاكَ نافِلَةَ
الْقُرْآنِ فيها مَواعيظٌ وَ تَفْصِيلُ

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ٦٩/١.
(٥) الاستيعاب في أسماء الأصحاب، لابن عبد البرِّ، والأبيات منثورة في الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ٤١/١٧، ٤٤.
(٦) متبول: مغرم - مكبول: مقيد
(٧) ديوان الأعشى ميمون بن قيس، ١/٤.

لا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوالِ الوُشاة ولَمْ
أُذْنِبْ وقَدْ كَثُرَتْ فِيَّ الأقاويلُ
إنَّ الرَّسُولَ لَنورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ
مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فخلع عليه النبيّ بردته، وعفا عنه؛ لذا سمِّيت هذه القصيدة (البُرْدَة).

شعراء المدائح النبوية:

وممّن اشتهر بالمديح النبويّ الأعشى الكبير (ميمون بن قَيْس) في داليته المعروفة التي في مطلعها:

أَلَمْ تَغتَمِضْ عَيناكَ لَيلَةَ أرْمَدَا
وعادَك ما عادَ السَّليمَ المُسَهَّدَا

ومنها:

نَبيٌّ يَرَى ما لا تَرَونَ وَذِكْرُه
أغَارَ لَعَمْري في البِلادِ وَأنْجَدَا
لهُ صَدَقَاتٌ ما تُغِبُّ وَنَائِلٌ
وليسَ عَطَاءُ اليوم مَانِعَهُ غَدَا
أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمّدٍ
نَبيِّ الإلَهِ حِينَ أوْصَى وَأشْهَدَا
إذا أنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزادٍ مِنَ التّقَى
وَلاقَيْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَن قد تزَوَّدَا
نَدِمْتَ على ألاَّ تَكُونَ كَمِثْلِهِ
وأنكَ لَمْ تُرْصِدْ لِمَا كانَ أَرْصَدَا(٨)

ومن أبرز شعراء المديح النبويّ في العصر الأمَويّ الفرزدق في قصيدته الميميّة الرّائعة التي نوّه فيها بآل بيت النبيّ واستعرض أخلاق النبي الكريم وفضائله، يقول فيها:

هَذَا الذي تَعْرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ
وَالبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمُ
هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ
إذَا رَأتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
إلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الكَرَمُ
يُنْمَى إلَى ذَرْوَةِ العِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ
عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الإسْلاَمِ وَالعَجَمُ
مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ نَبْعَتُهُ
طَابَتْ عَنَاصِرُهُ وَالخِيمُ وَالشِّيَمُ
يَنْجَابُ نُورُ الدُّجَى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ
كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إشْرَاقِهَا الظُّلَمُ
مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الأنْبِيَاءِ لَهُ
وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهَا الأُمَمُ
عَمَّ البَرِيَّةَ بِالإحْسَانِ وَانْقَشَعَتْ
عَنْهَا العَمَايَةُ وَالإمْلاَقُ وَالظُّلَمُ(٩)

وظل المديح النبوي على هذا النهج قرونًا عدة في العصرين الأمويّ والعباسيّ، وقد تراجع المديح –إن لم أقل ندر– في هذين العصرين لانصراف الشعراء إلى مدح الملوك والأمراء، وذوي الجاه والمال طمعًا في نوالهم.

وحين نصل إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين، نجد بعض العلماء الموسوعيين الذين ألفوا في فنون مختلفة كالفقه والتراجم والشمائل النبوية، ونالوا شرف الانتساب إلى مديحه ﷺ كالقاضي عياض ٥٤٤ه؛ إذ يقول مُلَوِّحًا بِطَيْبَةَ وقبابها وسكانها:

قِفْ بِالرِّكَابِ فَهَذَا الربْعُ وَالدَّارُ
لاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الأَحْبَابِ أنْوارُ
بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ قَدْ لاحَتْ قِبَابُهُمُ
فانْزِلْ لَقَدْ نِلْتَ مَا تَهْوَى وتَخْتَارُ

(٨) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/٢٨٤ وما بعدها

(٩) الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية ١٨/١. رحلتي مع الشعر، للدكتور محمد المختار ولد أباه ص٣٩٥، ٣٩٦

هَذَا النَّبيُّ الحِجازِيُّ الذي شَهِدَتْ
لَهُ بتقديمِهِ رُسْلٌ وأَخْبَارُ
هذا الشَّفيعُ الذي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ
للمُذْنِبِينَ إذَا مَا اسْوَدَّت النَّارُ
بَادِرْ وَسَلِّمْ عَلَى أنْوارِ رَوْضَتِهِ
قَبْلَ المماتِ ولا تَشْغَلْكَ أَعْذَارُ
يَا خِيرَةَ الرُّسْلِ يَا أعْلَى الوَرَى شَرَفًا
قَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِي آثَامٌ وأوْزَارُ
فَكُنْ شَفِيعِي لِمَا قَدَّمْتُ مِنْ زَلَلٍ
وَمِنْ خَطَايَا فإنَّ الرَّبَّ غَفَّارُ(١٠)

وحين نصل إلى القرن السادس الهجري تتخذ القصيدة وِجْهَةً جديدة، تتمثل في إخلاص الوِجْهَةِ للمحبوب فلا يكون عند المحب التفاتٌ إلى غيره، وأن تهب كُلَّكَ لمن أحببتَه حتى لا يبقى لك منك شيء:

لَئِنْ بَقِيَتْ فِي العَينِ مِنِّيَ قَطْرَةٌ
فَإنِّي إذًا في العاشِقِينَ ذَلِيلُ

فلا تكون محبتك فيها شائبة منفعة، ولا تعلق بجنة ولا خوف من نار، فلا يعد – في رأيهم صادقاً من عبد الله طمعاً في جنته أو خوفاً من ناره:

وَما أَنا بِالباغِي عَلى الحُبِّ رِشْوَةً
ضَعِيفُ هَوىً يُبغى عَلَيهِ ثَوابُ

نجد هذا النهج عند عمر بن علي المعروف بشرف الدين بن الفارض (ت٦٢٣هـ) فقد خصص كل شعره بل حياته كلها لنسيان الأغيار، وإخلاص الوجهة للفناء في الله، حتى عُرف بسلطان العاشقين.

وقد يرمز أهل هذا الاتجاه إلى المحبوب برموز متعددة، فيسبغ على محبته ألفاظاً رقيقة ومعاني عذبة، ومن أهم أقطاب هذه المدرسة، رابعة العدوية، وتحفة الزاهدة، والحلاج، وغيرهم.

وابن الفارض لا يرى في الدنيا غير محبوبه، ولا طعم لها دون وصاله وكلامه، وصمتُه وموتُه وحياتُه كلُّها لأجل محبوبه، وأسمى أمانيه ألا يطرد من قرب حضرته.(١١)

فَمَا المنازِلُ لَولا أنْ تَحُلَّ بِهَا
وَمَا الدِّيَارُ ومَا الأَطْلالُ والخِيَمُ
لولاكَ مَا شَاقَنِي رَبْعٌ ولا طَلَلٌ
ولا سَعَتْ بي إلى نَحْوِ الحِمَى قَدَمُ
في كُلِّ جَارِحَةٍ عَيْنٌ أَرَاكَ بها
مِنِّي وفي كُلِّ عُضْوٍ للثَّنَاءِ فَمُ
فِإنْ تَكَلَّمْتُ لم أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ
وإن سَكَتُّ فَشُغْلِي عَنْكُمُ بِكُمُ

ولا بد من الإشارة إلى أن مدرسة بن الفارض، وإن التزم أصحابُها نهجَ المديح بمعناه الواسع، لكنَّ شِعْرَهم ينطلق من فلسفة عرفانية شفيفة، على حين يلتزم أصحاب المديح النبويّ منهج أوصاف النبي ﷺ الخلقية والخُلقية بعيداً عن الفلسفة ومصطلحات المدرسة السالفة الذكر.

وحين نصل إلى مستهل القرن السابع الهجري، يتخذ المديح النبوي شكلا جديداً على نحو ما كان عليه في العهد النبوي، لكنه أصبح فناً مستقلاً، ولوناً من ألوان الأدب له مميزاته وخصائصه، وأصبحت قصيدة المديح مثالا يحتذى ونموذجًا يتبع.

نجد ذلك في شرف الدين البوصيري (ت٩٦٩هـ)؛ فقد أصبح قدوة في منهجه الفريد الذي يمزج فيه بين حسن الثَّناء والحب، وبين قوة العاطفة وحلاوة التعبير، حتى صار نهجه في المديح متبعاً، وقصائده المعروفة محل تقليد ومعارضة من طرف الشعراء الذين جاؤوا بعده.

ونختم بقطعة لأحد أعلام التصوف في القرن الرابع عشر، وهو أبو مدين بن الشيخ أحمد بن سليمان الديماني (ت١٣٦٤هـ) وقد أجاد حين يقول:

حَلَّ بالقَلْبِ حُبُّ طَهَ فَتَاهَا
إنَّمَا الفَخْرُ كُلُّهُ حُبُّ طَهَ

(١٠) الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية ١٨/١.

(١١) الشعر والشعراء في موريتانيا، للدكتور محمد مختار ولد أباه، ص٢١٤ – ٢١٥

إنَّ مَنْ ذَاقَ حُبَّهُ لـم تَصِدْهُ
ذَاتُ حُسْـنٍ بِحَلْيِهَـا وَحُـلاهَـا
حُبُّ طَهَ يُنْجِي النُّفُوسَ إذَا مَا
عَنْ قَرِيبٍ دَاعِي الـمَنُونِ دَعَاهَا
حُبُّ طَهَ حُبُّ الإلَهِ فَمَنْ كَانَ
مُحِبًّا لَـهُ أَحَـبَّ الإِلـهَا[١٢]

وينتقل النبي ﷺ إلى جوار ربه بعد مشوار جهاده، في سبيل إعلاء رسالة الإسلام، ويرثيه حسان بن ثابت بقوله:

وَمَا فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ محمَّدٍ
ولا مِثْلهُ حتَّـى القيامة يُفقـدُ

وما كان يرجو كل هؤلاء من مدح النبي والذَّوْدِ عن دعوته، إلا الجزاء من الله، يستبين ذلك في رد حسان على أبي سفيان بن الحارث حين هجا النبي ﷺ:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْـهُ
وَعِـنْـدَ اللهِ فِــي ذَاكَ الجَـزَاءُ

وازداد دور الشعر وضوحاً في هذا الجانب في ظل الحروب الصليبية، فقد كانت الأمَّة تمرُّ بحالة تدهور مظلم، ولم تفق إلا على جحافل الأعداء، يدوسون أرضَهم ويدنِّسون مقدّساتِهم، ويدمِّرون حضارتهم، وينهبون تراثهم، وفقدت الأمة القدوة، فعاد الشعراء إلى النماذج المشرقة في تاريخنا يحيونها لتقتدي بها الأمة في دفع ما حل بها من نوائب.

وكانت صورة النبي في جهاده وصبره في سبيل نشر دعوته هي خير نموذج، فكانت المدائح النبوية سمة واضحة من سمات تلك الفترة، وتعاونت جميع الطوائف على سحق أعداء الأمة وتدميرهم، فوقفوا صفاً واحداً في مواجهاتهم، وقيَّض الله للأمَّة مَنْ قَادَها في جهادها، فرأينا المتصوفة الذين شاعت المدائح النبوية في بيئتهم يقرنون الإيمان بالعمل في عهد القائد صلاح الدين فنزلوا إلى ساحة القتال مع غيرهم من أبناء الأمة.

ونظم الشعراء قصائدَ لا تُحصَى للحثِّ على الجهاد، وأطالوا في وصف جهاد النّبي وأصحابه ضدّ الشرك ليشعلوا الحماسة في قلوب المسلمين، ويحيوا روح الجهاد في الأمة من جديد.

واتّخذ الشعراء من حُبّ النّبي وسيرته العطرة نبراسا في قصائدهم، فحرَّكوا المشاعر الرَّاكدة، وألهبوا النُّفوس، فدوَّى شِعْر المديح النبويّ وازْدهر، وتكاثر في بيئة الصوفية وغيرهم وإن اشتط بعض الصوفية في شعره، وجانب جادة الصواب في مديحه.

وظهر شعراء كبار نافحوا عن البلاد بأنفسهم ونفيس أشعارهم كما فعل (الصَّرْصَرِيّ) (ت: ٦٥٦هـ) الشاعر المكفوف البصر، الذي طلب من أبنائه أن يحملوه إلى ساحة القتال، وانهال على الأعداء ضرباً حتى استُشْهِد في ميدان القتال، بعد أن ترك أشعاراً كثيرة يلهج فيها، بحب النبي ﷺ، فكثر شعر المديح في تلك الحقبة الذي دبج شعراؤها حب النبي، وسيرته في ثوب شعري جميل صار على نهجه شعراء العصر الحديث، كلما جاءت ذكرى مولد سيدنا رسول ﷺ.

(١٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٧٢-١٢٨

نحبُّك ياربـاه

شعـر: د. شهـاب غـانـم

لـكَ الحَمْدُ يا ربّـاهُ في كـلِّ لحظةٍ
وفي جنّة المَأوى، وفي القبر قبلها،
نُـحـبُّـكَ يـا ربّـي ونـدري بأننا
ونـطـمعُ يـا ربّـي بـعـفـوكَ دائـمـاً
ففي القلب حُـبٌّ أنت أدرى بعُمقهِ
وفي الرّوح، لا ندري مدى الدّهر كُنْهَها،
نَعَمْ نحنُ نخشى، إنّما الحبُّ عندنا

وكـلِّ مكانٍ في الوجودِ ..وفي الحلمِ
وفي النّار.. إنْ لم تَعْفُ يا ربّ عن جُرْمي
خُلِقنا عبيدا، للعبادةِ والحَزْمِ
فأنت الكريمُ الواسعُ العَفْوِ والحِلمِ
تغلغلَ في الذّرّات في القلبِ والجِسمِ
فوَحْدَكَ تدري أمرَها يا مدى العلمِ
يكادُ يُزيلُ الخوف في لحظة الهمِّ

اهتمامُ المعاجِم العَربية بالقرآن الكَريم

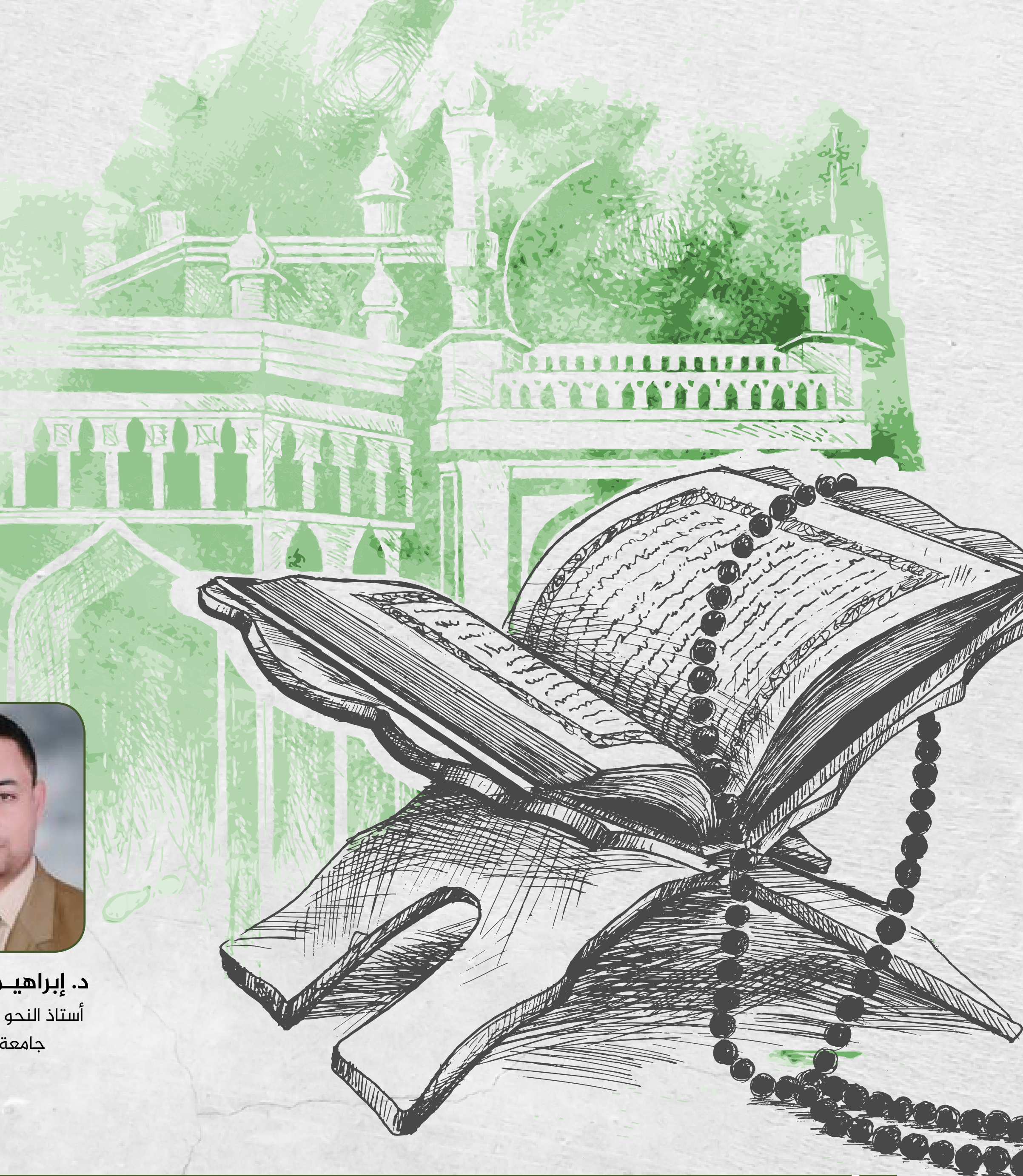

د. إبراهيم سند أحمد
أستاذ النحو والصرف والعروض
جامعة المنيا، مصر

لقد نشأت الدراسات المعجمية انطلاقًا من مبدأ الاعتناء بلغة القرآن الكريم والاهتمام به، وحرصًا على بيان غريب ألفاظه وشرح معانيه، ولا يكاد يخلو معجم من المعاجم العربية – [سواءً التراثية أو المعاصرة] – من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، بل لا تكاد تخلو مادة معجمية في معاجم العربية من الشواهد القرآنية؛ مما يدل على أثر القرآن الكريم، ودوره البارز في حفظ العربية، وفَهْم تراكيبها اللغوية وأبنيتها الصرفية؛ ولذلك اعتنى المعجميون الأوائل بالشواهد القرآنية في تفسير المواد المعجمية، وشرح غريب ألفاظها.

وإذا كان الهدف الأسمى من علم التجويد ومن الدراسات الصوتية هو ضبط نطق النصّ القرآني، والغاية من الدراسات الصرفية هي ضبط أبنية العربية، والغرض الأول من الدراسات النحوية ومن قواعد الإعراب هو ضبط بناء الجملة القرآنية وإعرابها، فإن الغرض الأساس من المعاجم العربية هو فهم معاني كلمات القرآن الكريم وتفسير ألفاظها وشرح غريبها.

وإن نظرة سريعة في أول معجم عربي، وهو معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ) توضح لنا مدى اعتناء المعجميين واهتمامهم بالشواهد القرآنية في تفسير ألفاظ العربية، وبيان معانيها، وشرح دلالاتها المتعددة في سياقها التركيبي، ومن ذلك ما أورده الخليل بن أحمد الفراهيدي في مادة (شفع)، حيث يقول: «الشفع: ما كان من العدد أزواجًا، تقول: كان وترًا فشفعته بالآخر حتى صار شفعًا، وفي القرآن الكريم: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣]، الشفع: يوم النحر، والوتر: يوم عرفة»، فقد استشهد الخليل بن أحمد بالآية القرآنية الكريمة ليوضح معنى الشفع لغة، وهو العدد الزوجي، ويوم النحر هو يوم العاشر من شهر ذي الحجة، وهو عدد زوجي، أما يوم عرفة فهو يوم التاسع من شهر ذي الحجة وهو عدد فردي أو وتري.

ويقول في مادة (شَكَس) مستشهدًا بآيات القرآن الكريم في إيضاح المعنى: «الشَّكِس: السيء الخلق في المبايعة وغيرها، والليل والنهار يتشاكسان، أي: يتضادان، ولا يتوافقان، وكذلك الشركاء الشَّكِسُون، وفي القرآن الكريم: ﴿شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] ورجل شَكِسٌ بَيِّنُ الشَّكَس».

وقد ألَّف كثير من اللغويين في المعاجم العربية؛ فظهرت مجموعة كبيرة من المعاجم التراثية، منها: جمهرة اللغة لابن دريد (ت: ٣٢١هـ)، والبارع في اللغة لأبي علي القالي (ت: ٣٥٦هـ)، وتهذيب اللغة للأزهري (ت: ٣٧٠هـ)، وتاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (ت: ٣٩٣هـ)، ومقاييس اللغة، ومجمل اللغة لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، والفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ)، والمحكم والمحيط الأعظم، والمخصص لابن سِيدَه (ت: ٤٥٨هـ)، وأساس البلاغة للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، ومختار الصحاح للرازي (ت: ٦٦٦هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت: ٧١١هـ)، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير (ت: ٧٧٠هـ)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ)، وتاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)،... إلخ.

وهذه المعاجم العربية وغيرها الكثير والكثير تعتمد الشاهد القرآني بكثرة واضحة في تفسير موادها المعجمية، وإيضاح معانيها اللغوية المتعددة، ومن ذلك ما أورده ابن دريد في مادة: (أزز)، حيث يقول: «أَزَّ يَؤُزُّ أزًّا، والأَزُّ: الحركة الشديدة، وأَزَّت القدرُ إذا اشتد غليانها، وفي كتاب الله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، والمصدر: الأَزّ والأزيز والأزاز»، ومن ذلك أيضًا ما أورده في مادة: (زمل)، حيث يقول: «الزمل من قولهم: زملت الرجل على البعير وغيره فهو زميل ومزمول، إذا أردفته أو عادلته،... وتَزَمَّلَ الرجل بثوبه تَزَمُّلًا: إذا تَغطَّى به، وذكر أبو عبيدة أن مجاز قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١] هو المتزمل، فأدغمت التاء في

الزاي فثقلت الميم، والمزمل: المتلفف بثيابه».

وما جاء أيضًا في تهذيب اللغة للأزهري في مادة: (عَزَر)، حيث يقول الأزهري: «عزر: قال الله جل وعز: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩]، وقال: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة:١٢] جاء في التفسير في قوله تعالى: «لتعزروه»، أي: لتنصروه بالسيف، ومن نصر النبي –صلى الله عليه وسلم– فقد نصر الله تعالى، وقال أبو عبيدة في قوله: «وَعَزَّرْتُمُوهُمْ»، أي: عظّمتموهم، وقال غيره: عزرتموهم، أي: نصرتموهم.

وقد كانت النواة الأولى لظهور المعجم العربي بتفسير ألفاظ القرآن الكريم وإيضاح معانيه، ومن ذلك: مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس –رضي الله عنه– يسأله عن معاني بعض ألفاظ القرآن الكريم، فكان ابن عباس يجيبه عن معاني هذه الألفاظ مستشهدًا بما حفظ من أشعار العرب؛ فوضع عبد الله بن عباس بذلك منهجًا متميزًا في تفسير كلمات القرآن الكريم وشرح غريب ألفاظه، ولا عجب في ذلك فقد كان من أفصح فصحاء العرب، ويلقب بـ(حَبْر الأمَّة وترجمان القرآن)، وهو الفائز بدعوة رسول الله ﷺ: «اللهم فَقِّهْهُ في الدين وعَلِّمْه التأويل».

وكانت هذه الاجتهادات اللغوية من عبد الله بن عباس في تفسير غريب ألفاظ القرآن والاستشهاد بما روته العرب في أشعارها أول باكورة الدراسات المعجمية، وهي تعد بحق نواة المعجم العربي، وهذه المسائل قد ذكر بعضها أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت٣٢٨هـ) في كتابه: (إيضاح الوقف والابتداء)، وأبو القاسم الطبراني (ت٣٦٠هـ) في كتابه: المعجم الكبير، وقد أشار الإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) إلى هذين الموضعين في كتابه: (الإتقان في علوم القرآن)، ثم ذكر هذه المسائل إلا نَزْرًا يسيرًا منها قد حذفه دون ذكر السبب؛ فقال: «هذا آخر مسائل نافع بن الأزرق وقد حذفت منها يسيرًا نحو بضعة عشر سؤالًا».

وبعد ذلك قام الدكتور إبراهيم السامرائي بجمع هذه المسائل ونشرها في كتاب مستقل بعنوان: (سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس)، وافتتح مقدمة الكتاب بقوله: «ننشر مسائل نافع بن الأزرق التي توجه بها إلى عبد الله بن عباس والأجوبة التي رد بها ابن عباس؛ وذلك لأهميتها التاريخية في علم التفسير؛ ذلك أن عبد الله بن عباس قد اعتمد فيها منهجًا لم يسبق إليه، وهو شرح ألفاظ القرآن والاستدلال عليها بما جاء في شعر العرب».

وقد تتابع التأليف اللغوي بعد ذلك في معاني القرآن الكريم وشرح ألفاظه، ومن ذلك: معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ)، ومعاني القرآن للأخفش (ت ٢١٥هـ)، ومعاني القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٣هـ)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١هـ)، ومعاني القرآن للخزاز (ت ٣٢٥هـ)، ومعاني القرآن وإعرابه لأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ).

ثم ظهرت بعض المصادر والمؤلفات التي تهتم بشرح غريب ألفاظ القرآن الكريم وتفسير معانيه، وهي تحمل عنوان: (غريب القرآن)، ومنها: غريب القرآن للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، وغريب القرآن لمحمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ)، وغريب القرآن للسجستاني (ت ٢٥٠هـ)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، والتبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم (ت ٨١٥هـ)، .... وغيرها الكثير والكثير من كتب غريب القرآن، وهذه المؤلفات جميعها تدور حول معاني القرآن الكريم، وتفسير ألفاظه، وشرح غريبه، وهذه المؤلفات اللغوية على تنوعها وتعددها تعد من أوائل المؤلفات المعجمية التي عنيت بلغة القرآن الكريم وتفسير ألفاظه وإيضاح معانيه.

وفي العصر الحديث ظهرت مجموعة من المعاجم العربية اعتمدت أيضًا الشاهد القرآني في تفسير موادها المعجمية، ومن هذه المعاجم: المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فقد جاء في تفسير معنى (المشاكلة) أنها: المماثلة وعند أهل البديع أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤]، وجاء في تفسير معنى (الصواع) أنه «الصاع، بمعنى: المكيال، أو الإناء يشرب به، وبهما فسر قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٢]، والجمع: صيعان».

كما ألَّف الدكتور أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، وألف أيضًا معجم الصواب اللغوي، وقد اعتمد التصحيح اللغوي في هذا المعجم على الشاهد القرآني بالدرجة الأولى، ومن ذلك تعليقه على قولهم: (أثاب الله المسيء على إساءته) بقوله: يستخدم الفعل (أثاب) في الخير وفي الشر أيضًا، إلا أنه في الخير أخص وأكثر استعمالًا،... ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦]، وفي هذا دليل اعتماد المعجميين [قديمًا وحديثًا] على الشاهد القرآني في تفسير المادة المعجمية وشرح معانيها، واهتمام المعاجم العربية بالقرآن الكريم.

تحقيق كتاب سيبويه

بين هارون والبَكَّاء

د. أحمد عبد الله المغربي
دائرة الشؤون الإسلامية بدبي

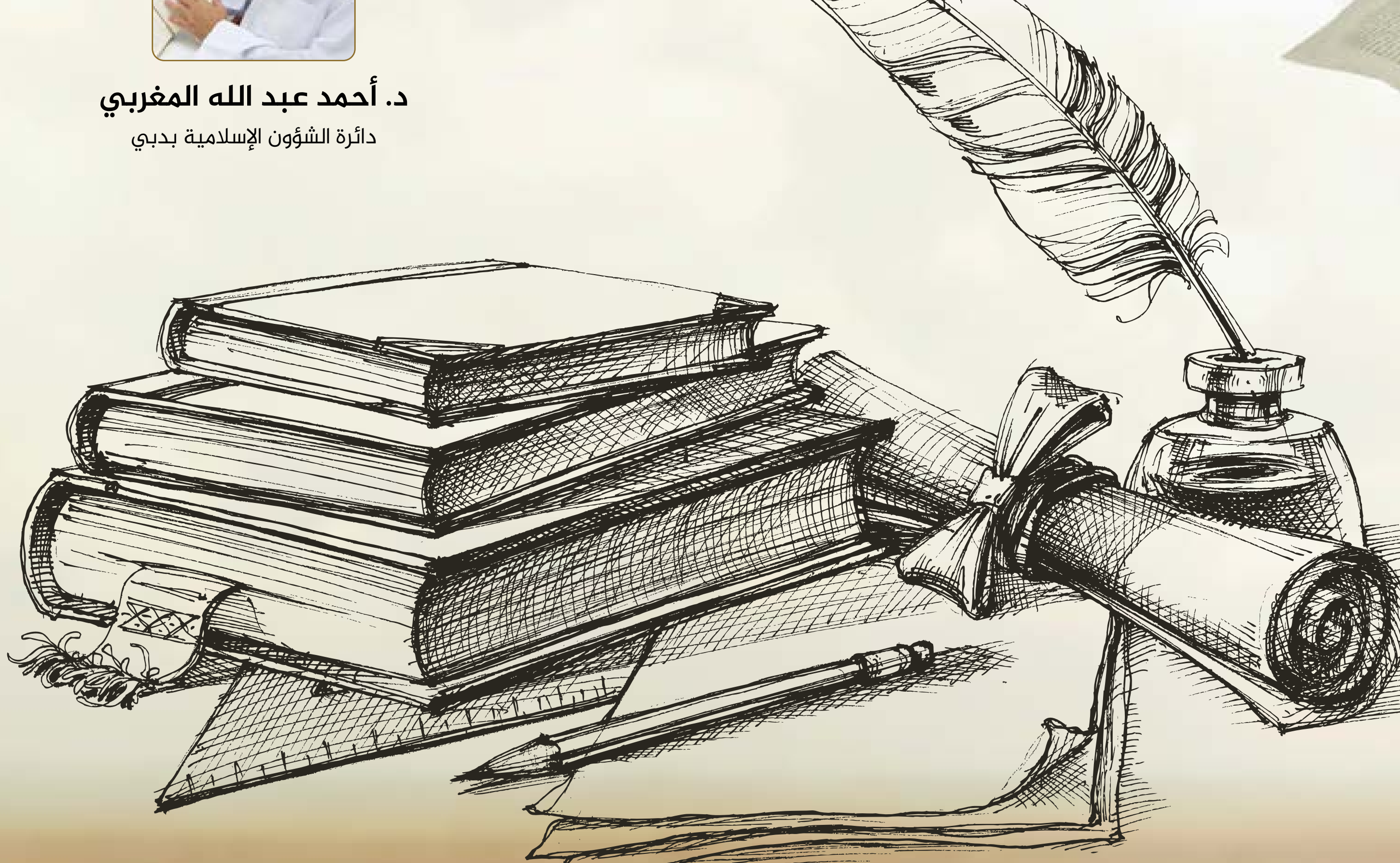

كتاب سيبويه لا تخفى منزلته السامقة في الدرس النحوي، فهو لعلو شأنه قد سمي (قرآن النحو)، وهو سفرٌ عظيمٌ قمنٌ بالدراسة والتحقيق، جدير بالخدمة والعناية، ولقد تشرف الباحث بخدمته أول مرة بدراسة منهجه في الترتيب، واليوم يخدمه – بإيجاز– بدراسة نقدية موازنة بين تحقيقين له، الأول : تحقيق عبد السلام هارون، والآخر: تحقيق محمد البكاء، وقبل الخوض في الموازنة النقدية، تحسن التوطئة بالتعريف بالمؤلف والمحققين تعريفاً موجزاً.

١- التعريف:

١-١ - المؤلف:

هو عمرو بن عثمان بن قنبر، بصري النشأة، فارسي الأصل، توفي سنة (١٨٠هـ)، لُقّب بسيبويه، تتلمذ للخليل (ت١٧٥هـ)، ويونس (ت١٨٢هـ)، وأبي الخطاب الأخفش (ت ١٧٧هـ)، وعيسى بن عمر(ت١٤٩هـ)، وكان في لسانه حبسة، وقلمه أبلغ من لسانه.

١-٢ - المحقق الأول:

هو عبد السلام محمد هارون، أشهر محققي التراث العربي في القرن العشرين، ولد بالإسكندرية، سنة (١٩٠٩م)، ثم قضى ثلاثاً وستين سنة في تحقيق كتب التراث، حتى توفي سنة (١٩٨٨م).

١-٣ - المحقق الآخر:

هوالأستاذ الدكتور محمد كاظم البكّاء، المولود سنة (١٩٤٢م) بالعراق، أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعتي المستنصرية وبغداد.

٢- منهج التحقيقين:

٢ - ١ - تحقيق هارون:

تتجلى للقارئ من أول مطالعة لكتاب سيبويه في طبعة عبد السلام هارون، العنايةُ الفائقة بهذا الكتاب، فقد تحرى في تحقيقه منهجا دقيقا؛ ولذلك جاء كثير الإيجابيات، نادر المآخذ:

٢-١-١- الإيجابيات :

١) إخراج الكتاب تاماً ، دون نقص أو بتر أو حذف.

٢) إخراج الكتاب منسقاً ومفهرساً.

٣) إخراج الكتاب في مجلدات متقاربة الحجم .

٤) إفراده المجلد الأخير كله للفهارس الفنية، التي بلغت خمسة عشر فهرساً.

٥) اعتماده على إحدى عشرة نسخة بين مخطوطات وأصول وشروح ومطبوع.

٦) مقابلته بين النسخ ، وفاضل بينها .

٧) اعتماده نسخة واحدة جعلها هي الأصل، وقد يعدل عنها ويرجح ما في النسخ الأخرى، كترجيحه للنسخة المطبوعة بباريس ذات الرمز ط. ومن ترجيحاته لـ ط. كل ما وضعه بين معقوفتين.

٨) ضبْط الألفاظ المشكلة .

٩) تعليقه على المشكل في المعنى، معتمداً على شرح الأخفش (٢١٥هـ)، والسيرافي (٣٦٨هـ)، والشنتمري (٤٧٦هـ).

١٠) تخريج الشعر وشرح غامضه.

١١) عزو الآيات القرآنية.

١٢) ترجمته لجميع أعلام الكتاب.

١٣) فهرسته للكتاب فهرسة فنيه بلغت خمسة عشر فهرسا .

٢-١-٢- المآخذ:

١) ذكر أن عمله تميز بضبط النص، غير أن الضبط وجد قاصراً على المشكل فقط مما يعد مخالفة لشرطه، إلا في القرآن والشعر فالضبط كامل.

٢) مقابلته بين النسخ كان قاصراً– في الغالب– على نسختين: الأصل وط. ونادراً ما يشير إلى ب. و أ.

٣) لم يشر في وصف المخطوطات إلى مخطوطة أ. لكنه أشار إليها في المقابلة بين النسخ! وقد يذهب الظن الحسن بالمحقق إلى أنه يعني بها الأصل!

٢-٢- تحقيق البكاء:

أول ما يستهلُّ به الباحث حديثه هنا: قيامه بمقابلة طبعة البكاء بطبعة هارون صفحة صفحة، فوجدها طبعة ناقصة، تنتهي بنهاية باب الحكاية، وذلك يقابل ٣/ ٣٣٤، في طبعة هارون، أي بنقص نحو مجلد ونصف، وذلك يساوي نحو (٨٠٠) صفحة[(١)] .

---

(١) يذهب الباحث إلى هذا القول اعتماداً على أمرين:
أ) الواقع ، حيث ظهرت طبعة البكاء في خمسة أجزاء ، تنتهي بنهاية باب الحكاية.
ب) تصريحه في المقدمة (٤/١)، بأنه سيخرج طبعته في قسمين : القسم الأول لأبواب النحو في أربعة أجزاء، والقسم الثاني لأبواب الصرف والأصوات في ثلاثة أجزاء، أي فالمجموع سبعة أجزاء، ولكن الطبعة المتداولة، نشرة مؤسسة الرسالة ببيروت، ودار البشير بعمان، ط١، ١٤٢٥هـ الموافق ٢٠٠٤م، ظهرت في أربعة أجزاء، والخامس صغير جداً، أفرده للفهارس، جاء في (١٥٣) صفحة، فالطبعة الحالية المشار إليها آنفاً، هي – بحسب تصريح المحقق – ناقصة حتى تظهر الثلاثة الأجزاء الأخيرة، علماً بأنه قد مضى على ظهور الطبعة نحو سبع عشرة سنة.

٢-٢-١- الإيجابيات:

١) استحدث عناوين جديدة للأبواب مع الإبقاء على عناوين سيبويه.

٢) وضع عناوين جانبية للفقرات، وهذه ميزة أهم من السابقة؛ لأنها إضافة جديدة، أما السابقة فلا تخلو من شيء من إبعاد القارئ عن عناوين سيبويه التي هي خاصية تميز كتابه.

٣) ومما يحسب له أنه كان مستقلاً في تحقيقه، بدليل مخالفته لبعض ترجيحات هارون، فمثلا رجح هارون رواية (فر)[(٢)]، في قول الشاعر :

مَن فر عن نيرانها ... فأنا ابنُ قيسٍ لا بَراحُ

فخالفه ورجح رواية (صد)[(٣)].

ورجح هارون نسخة: « لأنه قبيح»[(٤)]، فخالفه البكاء ورجح نسخة « لأنه يقبح»[(٥)].

٤) صنع فهرسا لمقابلة الكتاب بشرح ابن عقيل، وجعله في عمودين : اليمين لأبواب ألفية ابن مالك مرتبة، واليسار جعل فيه أرقام صفحات ما يقابلها في الكتاب.

٥) تناول في المقدمة الطبعات السابقة للكتاب، ولاسيما طبعة المستشرق الفرنسي درنبرغ، وطبعة عبد السلام هارون ، وأثنى على عملهما .

٦) صرح بأنه لم يغير في ترتيب أبواب الكتاب، وقد التزم بهذا حسبما قوبلت طبعته بطبعة هارون.

---

(٢) الكتاب ، بتحقيق هارون ١/٥٨.
(٣) الكتاب، بتحقيق البكاء ١/٩٧.
(٤) الكتاب ، بتحقيق هارون ٢/١٢٢.
(٥) الكتاب ، بتحقيق البكاء ٢/٢٢٧.

٧) ذكر بأنه وقف على مخطوطات لم يقف عليها السابقون.

٨) رجع إلى ست نسخ من شرح الكتاب .

٩) علق بنصوص من شروح الكتاب.

١٠) علق على بعض المشكلات .

١١) ذكر أنه أعاد النظر في مواضع الاستشهاد من شواهد الكتاب ووقف على بعض الأخطاء في الكتب المعنية بشرح الشواهد، وصححها .

١٢) عزا الآيات .

١٣) ترجم للأعلام .

١٤) علق في الحاشية على المواضع المشكلة في المعنى.

١٥) خرج الأشعار من دواوينها – أو من المصادر المعتمدة– مبينا الشاهد.

١٦) رقّم الأبيات ترقيما تسلسليا ، وهذا مما يحسب له.

١٧) عزا كل بيت إلى بحره.

٢-٢-٢- المآخذ:

١) أنه باستحداثه عناوين جديدة للأبواب ومن ثَمَّ إبرازها بالبنط الأسود، ثُمَّ دمجه عناوين سيبويه بالمتن، أدى ذلك إلى التقليل من أهمية عناوين سيبويه ، وإلى إزاحتها عن صدارة الباب.

٢) أخرج طبعته في مجلدات متباينة الأحجام بصورة لافتة، فقد جاء أحدها في نصف حجم نظيره، وعلى سبيل المثال ، ينظر المجلدان الأول والثاني، حيث جاء الأول في (٥٥٣) صفحة ، وجاء الثاني في (٢٤٨) صفحة، مما جعل بين المجلدين بوناً شاسعاً في الحجم.

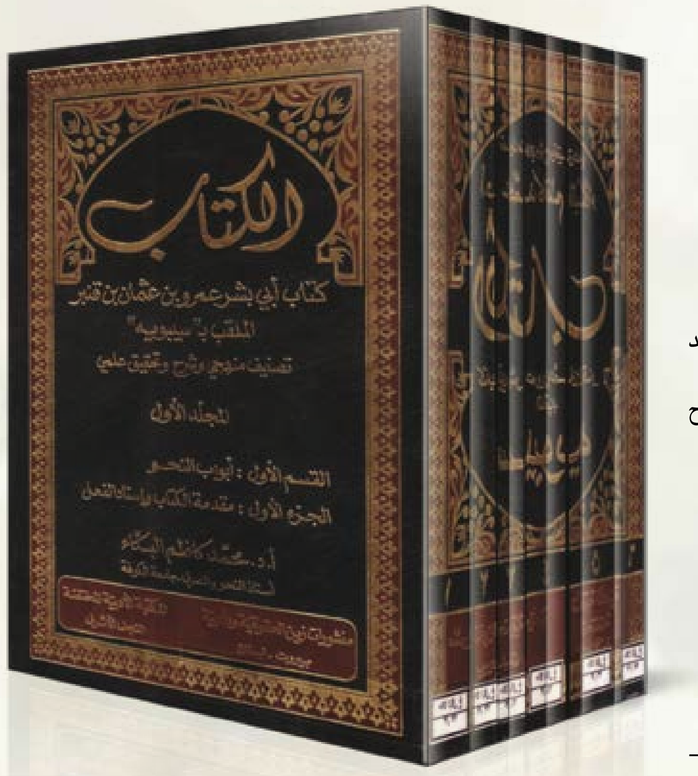

٣) ومما يؤخذ عليه إشارته إلى الترحم برمز (رح) .

٣ - الموازنة بين التحقيقين:

٣-١- موازنة سابقة:

سبقني إلى الموازنة بين هذين التحقيقين د. عبدالفتاح حبيب، في بحث طويل نشره بمجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق (٢٠١٦م)، العدد (٣٦)، وبمطالعة ما كتبه يتبين أمران:

١) أنه لم يكن موضوعياً بصورة تامة، وإنما كان ميالاً إلى تحقيق البكاء بصورة واضحة تظهر في أسلوبه وألفاظه، فقد عبر عن سهو هارون بعبارات فيها شيء من التهويل، كقوله: سقط، وتحريف، وأكّد تهويله: إبراز هذه العبارات ببنط أسود، ثم وضعها في أرقام تسلسلية، في شكل عناوين جانبية، وهذا يوحي بعدم الموضوعية التامة في الموازنة بين التحقيقين.

٢) لم يشر إلى النقص الكبير في طبعة البكاء، وهذا يوحي بعدم

التدبر، بل وبالعجلة في الموازنة، والعجلة تسفر عن عمل غير مكتمل.

٣-٢- الموازنة الحالية:

٣-٢-١- موازنة بين التنسيقين:

١) في طبعة هارون جاء توزيع الأجزاء مقبولاً، حيث إن التفاوت بين الأجزاء لم يصل إلى حد أن يكون أحد المجلدات في حجم نصف نظيره، بينما جاءت أحجام المجلدات عند البكاء متباينة بصورة واضحة ، فقد تفاوتت المجلدات إلى حد أن يكون أحدها أقل من نصف نظيره.

٢) في طبعة هارون جاءت عناوين الأبواب الأصلية بارزة، بينما هي في طبعة البكاء مدمجة بالمتن بعيدة عن الصدارة.

٣-٢-٢- موازنة بين مقدمتي التحقيقين:

جاء قسم الدراسة في طبعة هارون أوسع من طبعة البكاء بكثير، بينما أوجز البكاء بصورة لافتة.

– المخطوطات التي قابل عليها البكاء أكثر من التي قابل عليها هارون، بل وقف على مخطوطات عراقية ويمنية، لم يقف عليها هارون، وهذا من مرجحات إعادة التحقيق، أما مخطوطات هارون ، فهن خمس مصريات كلهن، وبعضهن غير مكتمل، لكنه اعتمد على طبعتي باريس وبولاق، فأعانه ذلك على الوثاقة من إخراج نص أقرب إلى الصورة التي أرادها المؤلف.

٣-٢-٣- موازنة بين منهجي التحقيقين:

١) النص في طبعة هارون جاء تاماً، بينما جاء في طبعة البكاء ناقصاً.

٢) كلاهما قام بضبط المشكل.

٣) كلاهما ضبط الشعر وخرج أبياته من الدواوين والمصادر المعتمدة، بل انفرد البكاء بترقيم الأبيات ترقيما تسلسلياً، وبعزو الأبيات إلى بحورها، وهذا الانفراد مما يحسب له.

٤) كلاهما ضبط الآيات القرآنية .

٤ - الخاتمة:

يصل الباحث بعد هذه الموازنة إلى:

١) أن التحقيقين كليهما قد اعتنيا عناية كبرى بالكتاب.

٢) أن طبعة هارون تامة، وأن طبعة البكاء ناقصة.

٣) أن التحقيقين يكمل أحدهما الآخر، ففي كل منهما ماليس في الآخر.

وإلى هذه الكلمة، وبهذه الخويتمة المختصرة، ينهي الباحث سرد هذه الموازنة النقدية، راجياً من الله تعالى التوفيق والسداد.

إلى اللغة العربية
الأم الخالدة

د: محمد عدنان الخطيب

تيهي مع الحُبِّ عطْراً وامْرَحي غيَدُ ... شَأنُ الطُّفولةِ أن يَضْنَى بها الرَّشَدُ
أَشْبَهْتِ في الطَّبْعِ أُمًّا في تَأنُّقها ... حَسْبُ الأُمُومَةِ مَا يَسْمُو بِهَا الْوَلَدُ
لأنَّكِ الأُمُّ لا يَرْقَى لها أَحَدٌ ... وأَنْتِ كاليَمّ بالآلاءِ يَحْتشدُ
وأنتِ ما كان مِنْ فكْرٍ وعاطفَة ... ومِن خيالٍ بهِ الآهَاتُ تَبْتَرِدُ
وأنتِ لِي الفَخْرُ للْعَلْيَاءِ أَرْفَعُهُ ... فلا يطاولنا في عزّه أحد
وأَنْتِ مَنْ أَنْت أيّ السِّرّ تحمِلُهُ ... هذي العيونُ وهذا الجدولُ الغَرِدُ
يا دوحةَ الحُبّ مُذْ ليلى وعاشِقها ... يسعى مع الشِّعر من شُطآنه يَرِدُ
ومنْذ رَابِعَة تَسمُو بِلَوْعَتِها ... في ذكْر خالِقِهَا تَشْدُو وتجتَهِدُ
هذي التراتيلُ في سَمْعِ الجَمَالِ بها ... مُؤَنَّقُ الجِيدِ مَفْتُولٌ بهِ العَضُدُ
تَرِقُّ لِلْغيدِ في هَزَجٍ وفي رَجَزٍ ... حتَّى لَتَحْسَبُهَا في لُطْفِهَا الغَيَدُ
وتَقْطَعُ البِيدَ تَحْدُو فِي مَجَاهِلِهَا ... فِي مَتْنِ ميمونةٍ يُغْرِي بها الوَخَدُ
وَأَجْمَلُ البِيدِ هذي الغيدُ من دمِها ... ملتفّة القدّ ممشوق بها جسدُ
مبيضّة الزند كالياقوت مبسمها ... عيونها كخيولِ البَرقِ تتَّقِدُ
ما كنتُ أحسبُ أنّ البيد عاصفُها ... يرقُّ للعُرْبِ ألحاناً ويتَّئِدُ
قد جمَّلتْ يَدَهُمْ كُلُّ الصِّفَاتِ بما ... أعطوه من لغة أمّ وما اعتقدوا
فلستَ تذْكرُ قومًا أبدعوا لغةً ... حكيمةً ملؤُها الإيمانُ والرَّشَدُ
مبثوثةً في حنايا الرُّوحِ خالدةً ... يعيا الزمانُ ولا يعيا بها رِفَدُ
قامتْ بها الهمّةُ الشَّمَّاءُ مِن أَمَدٍ ... يشدو زهيرٌ بها والصَّحْبُ والولَدُ
أُمٌّ تَعَتَّقَت الْأذْواقُ فِي فَمِهَا ... فَأَفْهَمَتْ ولسانُ الخَلْقِ مُنْعَقدُ
تَوَسَّعَتْ فَاحتَوَتْ آيَ الحَكيم فَهَلْ ... فَوْقَ البيانِ بيانٌ صاغَه أَحَدُ
وَأَوْجَزْتْ فَاكْتَفَتْ بِالحَرْفِ فِي جُمَلٍ ... كَ(قِ) الخِصَالَ وَ(فِ) الوَعْدَ الذي تَعِدُ

وَصَوَّرَتْ فَارْتَقَتْ بِالسِّحْرِ وَاعْتَدَلَتْ   كَيْ لَا يَهِيمَ بِسِحْرِ الْقَوْلِ مَنْ لَحَدُوا
وَصَرَّفَتْ كَلِمَاتٍ، بَعْضُ طَاقَتِهَا   هَذَا الثَّرَاءُ وَهَذَا الْمَوْرِدُ الصَّمَدُ
حَتَّى لَتَذْهَلُ إِنْ طَافَ التَّصَوُّفُ فِي   أَرْجَائِهَا فَزَهَتْ تَسْمُو وَتَنْفَرِدُ
أُمٌّ تَفَجَّرُ بِالآيَاتِ مُخْلِصَةً   فَلَيْسَ يُنْقِصُهَا أَنْ عَقَّهَا وَلَدُ
أُمٌّ تَفِيضُ بِهَا الحُسْنَى لِسَائِلِهَا   حَتَّى لَيَنْعَمُ بِالسُّقْيَا وَيَبْتَرِدُ
كَذَاكَ كَانَ رِجَالٌ أَخْلَصُوا شَرَفًا   فَكَانَ مِنْ فَضْلِهَا العُلْوِيِّ أَنْ خَلَدُوا
فَاسْأَلْ قَبَاوَةَ فَخْرَ الدِّينِ هَلْ قَصُرَتْ   عَنْهُ الحَفَاوَةُ أَوْ هَلْ نَالَهَا أَحَدُ
خَجُولَةُ اللَّفْظِ وَالإِفْصَاحُ شِيمَتُهَا   رَقِيقَةُ الطَّبْعِ لَكِنْ سَمْتُهَا الجَلَدُ
عَفِيفَةٌ مِثْلَمَا اليَنْبُوعُ صَافِيَةٌ   فِي لَفْظِهَا الدُّرُّ إِلَّا أَنَّهَا شَهَدُ
مَقْتُولَةٌ بِرَحِيقِ المِسْكِ، مِنْ دَمِهَا   هَذِي العُطُورُ، وَهَذَا الكَوْثَرُ الرَّغَدُ
مَرْبُوطَةٌ بِذُرَى الإِيمَانِ مَا خَفَقَتْ   بِهِ القُلُوبُ وَمَا أَحْيَا لَهُ الأَبَدُ
فِي كُلِّ أَرْضٍ لَهَا ذِكْرٌ فَإِنْ رُفِعَتْ   (اللهُ أَكْبَرُ) فِي إِفْصَاحِهَا سَجَدُوا
وَكُلُّ قَلْبٍ لَهَا رُكْنٌ؛ لِأَنَّ بِهَا   وَحْيَ الإِلَهِ لِكُلِّ الْخَلْقِ مُذْ وُجِدُوا
هِيَ الطَّهُورُ كَمَاءِ القَطْرِ قَدْ شَرُفَتْ   بِالمَكْرُمَاتِ وَأَعْلَى مَجْدَهَا الصَّمَدُ
تَمَّتْ مَحَاسِنُهَا فِي آيِ خَالِقِهَا   فَلَيْسَ يُعْوِزُهَا مِنْ غَيْرِهِ مَدَدُ
مَا دَامَ رَبُّكَ قَدْ أَوْحَى بِهَا لُغَةً   لِلْعَالَمِينَ فَمَنْ يَعْلُو وَيَنْتَقِدُ
فِي غُرَّةِ المَجْدِ إِلَّا أَنَّهَا لُغَةٌ   تَعْلُو عَلَى الْمَجْدِ فِي اللُّقْيَا وَتَتَّحِدُ
مَا شَابَهَا أَنَّهَا مِنْ غَيْرِ ذَاتِ يَدٍ   يَشْقَى العَيِيُّ بِهَا دَوْمًا وَيَرْتَعِدُ
وَلَمْ تَكُنْ مِيزَةٌ أَسْمَى لِصَاحِبِهَا   مِنْ أَنَّهَا فِي ذُرَى العَلْيَاءِ تَقْتَصِدُ
مِنْ فَاتِنَاتِ ذَوَاتِ الْقَوْلِ يَفْتِنُهَا   فِي لَحْظِهَا أَنَّهَا تَهْوِي بِهَا الأُسُدُ
مَأْخُوذَةٌ بِرَهِيفِ الْحِسِّ إِنْ مُنِعَتْ   وَإِنْ تَجَلَّتْ فَمَأْخُوذٌ بِهَا الْجَسَدُ

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ فِي آلَائِهَا حُجِبَتْ   فَمَنْ تَغَنَّى بِهَا يَغْنَى بِمَا يَجِدُ
قَامَتْ لَهَا أَعْيُنُ العُشَّاقِ تَحْرُسُهَا   مِنَ العُيُونِ فَكَانَتْ عَيْنَهَا الحَسَدُ
وَأَسْعَدَتْ بِبَيَانٍ كَيْ تَلِيقَ بِهَا   أَرْضُ الجِنَانِ فَطَابَ الخُلْدُ وَالخَلَدُ
وَمِنْ غَرِيبِ جَمِيلِ الْقَوْلِ أَنَّ لَهَا   فِي الأَهْلِ مَا يَدْرَأُ البَلْوَى وَمَا يَئِدُ
مَدَدْتُ كَفِّي لِأَكْفِي حَقَّ سَيِّدَتِي   مِنَ الوَفَاءِ فَمَا أَوْفَتْ لَدَيَّ يَدُ
يَا خَيْرَ مَنْ وَضَعَتْ لِلْعِلْمِ مُصْطَلَحًا   وَفَتَّقَتْ أَحْرُفَ المَعْنَى لِمَنْ رَشَدُوا
قُولُوا لِمَنْ تَرَكَ الْفُصْحَى هَلِ انْتَفَعَتْ   مِنْهُ الْعِبَادُ أَوِ اسْتَغْنَى بِهِ الْبَلَدُ
شُلَّتْ بِهِ لُغَةُ التَّفْكِيرِ وَاخْتَلَطَتْ   بِهِ الأُمُورُ فَكَيْفَ الْجَهْلُ يُعْتَمَدُ
أُمٌّ لِقَوْمٍ إِذَا مَا أَقْبَلُوا رَفَعَتْ   مِنْ شَأْنِهِمْ وَإِذَا مَا أُنْكِسُوا بَعُدُوا
مَا عَافَهَا لَكِعٌ أَوْ شَانَهَا رَقِعٌ   إِلَّا وَأَضْحَى بِزَيْفِ الغَرْبِ يُضْطَهَدُ
فَمَنْ يُسَاوِي بِطُهْرٍ قَامَ فِيهِ هَوًى   لِلْأَنْبِيَاءِ بِمَا أُعْطُوا وَمَا وُعِدُوا
بِلُوثَةٍ مِنْ حُرُوفٍ لَا يُمَاثِلُهَا   فِي شُؤْمِهَا حَطَبٌ فِي اللَّيْلِ أَوْ (مَسَدُ)
أُمٌّ هِيَ اللُّغَةُ العَصْمَاءُ شَيَّدَهَا   عُرْبٌ وَقَدَّسَهَا رَبٌّ بِمَا تَلِدُ
قَدْ صَاغَهَا النَّحْوُ مَعْنًى لَا يُفَارِقُهُ   طَبْعٌ سَوِيٌّ وَلَا فَهْمٌ بِهِ سَدَدُ
كَأَنَّهَا وَمَعَانٍ فِيهِ تَنْظِمُهَا   عِقْدٌ، وَبَاقِي لُغَيَّاتِ الوَرَى عُقَدُ
مِنْ حُسْنِهَا أَنَّهَا بِالرَّسْمِ قَدْ جَمُلَتْ   فَلَيْسَ فِي رَسْمِهَا أَمْتٌ وَلَا حَيَدُ
فَمَحْبُوكَةٌ بِفُنُونِ الخَطِّ مُتْقَنَةٌ   حُرُوفُهَا مِثْلَ نَظْمِ الدُّرِّ تَنْعَقِدُ
أَعْظِمْ بِهَا لُغَةً فِي مَهْدِهَا كَمُلَتْ   هَلْ فِي اللُّغَاتِ فَتَاةٌ مَهْدُهَا الرُّشْدُ
يَا قِبْلَةَ الضَّادِ كَيْفَ العَوْدُ قَدْ نُكِثَتْ   فِينَا العُهُودُ وَشَطَّ القَوْمُ وَابْتَعَدُوا
كَيْفَ الوُصُولُ إِلَى قَوْمِي أَيُوحِشُنِي   هَذَا المَكَانُ وَفِيهِ الأَهْلُ وَالوَلَدُ
كَيْفَ المَسِيرُ تَعَالِي نَتَّبِعْ سَبَبًا   إِلَى الوُصُولِ فَأَنْتِ الْأَهْلُ وَالسَّنَدُ

الشُّعَراء الرُّوَاة

د. أحمد الذهب

نعني بالرواية حمْل الشِّعْر ونقله عن الشّعراء المتقدّمين، فالرّواية في أصلها اللُّغَوِيّ: حمْل الماء، قال ابن سِيدَه: الرّاوية المزادة فيها الماء، والرّاوية البعير الذي يستقى عليه، والرّجل المستقي أيضاً. كما ورد في لسان العرب.

وهي في المصطلح الأدبي ما ينقله الرّاوي من شعر غيره فينشره على المَلَإِ ويقدمه لمن يطلبه من مريدي الشّعر وطالبيه.

وقد نُقِلَ الشِّعْرُ العربيّ في عصوره الأولى شفاهاً عن طريق هذه الرّواية جيلاً بعد جيل حتّى وصل إلى عصر التّدوين ليستقرّ آمناً في بطون الكتب ويحتلّ صدور المكتبة العربية الثريّة. ولعلّ تفرُّد الرّواية الشّفويّة بحفظ الشّعر الجاهليّ راجع إلى أنّ الشّعر فنّ منطوق يكمن الكثير من قيمته الفنيّة في إيقاعه وإيحاءاته الصّوتيّة المعبّرة عن تجربة صاحبه النفسيّة وتشكيلاتها الحِسِّية من ناحية؛ وإلى ندرة الكتابة في ذلك العصر من ناحية أخرى، رغم ما يصرّ عليه بعض الباحثين (كصاحب كتاب مصادر الشّعر الجاهليّ) من أنّ الشِّعْر الجاهليّ كان مدوَّناً معروفاً مستدلين على ذلك بقصّة المكتبة التي تركها النُّعمان بن المنذر في قصره، وما قيل من كتابة القصائد السبع الطوال وتعليقها على أستار الكعبة، وإرسال بعض الشعراء كالنابغة الذبياني ولقيط الإيادي قصائدهم مكتوبة في أغراض معيّنة. إلا أننا نجنح إلى قول ابن سلاّم الجُمَحِيّ في كتابه طبقات فُحُول الشُّعراء: (فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشِّعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عليهم منه كثير)، وتحقيق الدكتور جواد علي في الجزء التاسع من «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» الذي يفضي به إلى القول: (ليس في الشعر الجاهلي بيت واحد يستطاع أن يثبت أنه كان مدوّناً في الجاهلية، وأن رواة الجاهلية وجدوه مكتوباً بأبجديّة جاهلية فنقلوه عنها). وعلى هذا فإن رواية الشعر قد تركت الصحف القليلة التي حملت بعض النصوص ومالت في عمومها إلى النقل شفاهاً، يؤيد هذا استخفاف الشُّعراء وغيرهم بمن ينقل عن المكتوب لا المسموع كما في قول أبي نُوَاس راثياً خلفاً الأحمر:

لا يَهِمُ الحاءَ في القراءِةِ بِالحَاء
ولا لامها مع الألِفِ
ولا يُعمّي معنى الكلام ولا
يكونُ إنشادُهُ عن الصحُّفِ

وقد قسّم الباحثون الرواة إلى طبقات متعددة منها: طبقة رواة القبيلة وهم الذين يحفظون ما سجّله الشعراء من أمجاد قبائلهم ومفاخرها. وطبقة رواة الشاعر وَهُمْ جماعة يصحبون الشعراء ويلازمونهم فيحفظون شعرهم ويروونه وينشدونه في المحافل. ومنها أيضاً طبقة أبناء الشعراء الذين كانوا يهتمون برواية أشعار آبائهم والحفاظ على تراثهم.

أمّا الطبقة الأهم والتي نريد الحديث عنها فهي طبقة الشعراء الرواة. فقد دأب الشاعر العربي في بداية حياته الأدبية على التزام شاعر مبرّز ممن عرف في عصره ليتخذه أستاذًا وقدوةً ينسج على أمثلته الشعرية ويستقي من نفَسه الفني ويتبّع نهجه الأدبي.

وتعدّ هذه الملازمة ظاهرة فنية اتخذها الشاعر الصاعد ليصقل موهبته ويغني تجربته على يد شاعر متمرّس ثريّ التجربة، عريض الخبرة، بلغ من النضج الفنيّ ما يجعله مثلاً يقتدى به. هذا وقد أوردت الموسوعات الأدبية الكبرى التي ترجمت لشعرائنا ككتب الطبقات وأغاني أبي الفرج معلومات وافية عن هذه الظاهرة وأصحابها، ابتداءً من عصور الشعراء الأوائل، فقد ذكروا أنّ امرأ القيس كان راويةً لخاله المهلهل الشاعر، وأنّ الأعشى كان راويةً لِلْمُسَيَّبِ بْنِ عَلَس. كما ذكروا سلسلة مهمة من الشعراء الذين روى متأخرهم عن متقدّمهم حتّى شكلوا مدرسة شعريّة واضحة المعالم قريبة الخصائص الفنية، تبدأ بأوس بن حجر وراويته زهير بن أبي سلمى صاحب المعلّقة الشهيرة، وروى عن زهير ابنه كعب بن زهير صاحب قصيدة البردة «بانت سعاد»، وكذلك روى عن زهير الشاعر المخضرم الحطيئة. ثم كان هذا

أستاذاً لهُدْبَة بن خَشرَم الشاعر، الذي روى عنه جميل بن مَعْمَر العُذْرِيّ، وكان آخر هذه السلسة كثير صاحب عزّة.

وإذا تابعنا هذا الكتاب فإننا نتنقل بسهولة بين تلك السلاسل أو الثنائيات الشعرية على أقلّ تقدير، فلا بدّ أن يَقْضِيَ الشاعر الناشئ ردحاً من الزمان – وإن قصر – مع شاعر كبير ليتعلّم على يديه ويشحذ بخبرته موهبته وفنّه. فمما نجده في كتاب الأغاني – تمثّلاً لا حصراً– ما نقل عن أشعب الشاعر المدني، قال أبو الفرج: قدم جرير المدينة فاجتمع إليه الناس يستنشدونه ويسألونه عن شعره ويأخذون عنه وينصرفون، ولزمه أشعب من بينهم ولم يفارقه، فقال له جرير: أراك أطولهم جلوساً وأكثرهم سؤالاً، فقال له: يا أبا حرزة أنا والله أنفعهم لك، قال: وكيف ذلك؟ قال: أنا آخذ شعرك فأحسّنه وأجوّده، قال كيف تحسّنه وتجوّده؟ فاندفع فغنّاه فطرب جرير وبكى وجعل يزحف إليه وقال: أشهد أنك تجوّده وتحسّنه فأعطاه من شعره ما أراد.

كما ينقل الأغاني قصة طريفة عن لقاء البحتري بأستاذه أبي تمّام حين أنشد الأول قصيدته:

أأفاق صبٌّ من هوىً فأفيقا

قال البحتري: دعاني أبو تمّام وضمني إليه وعانقني وأقبل يقرضني ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به. كما أنّ ابن جنّي وهو شاعر أيضاً إلا أن علمه الحاذق باللغة وآثاره فيها غلبت على شعره كان راويةً للمتنبي، وقد قيل إن المتنبي كان إذا سئل عن شعره يقول: اسألوا هذا الأعور فهو أعرف مني بشعري.

هذه بعض التراجم مما يسعه الحديث هنا، ولا شكّ في أنّ للشاعر الراوية تأثيراً على أستاذه كما كان للأستاذ أثر في راويته، من خلال المناقشات والمحاورات النقدية التي كانت تجري بينهما مما عرضته ذخائر الأدب العربي الزاخرة في تراثنا العربي، مثلما كانت آثار الأستاذ واضحة في إبداع راويته.

الأصل المعرفي للتشبيه

أسماء صلاح الدين

تناول البلاغيون ظاهرة التشبيه في اللغة على ما هو معلوم في مدوناتهم قديمها وحديثها، وعلى ظاهر ما تجلت لهم مما أعطتهم ظواهر العبارات اللغوية على اختلافها، فعرفت أركانه وأدواته وصوره، وضربت له الأمثلة على تنوعها وثرائها، لكننا سنتوقف عند هذه الظاهرة من باب غير بابها البلاغي ، وإن كان سيعود عليه بالثراء كما سنرى ذلك إن شاء الله، وذلك من خلال محاولة رد باب التشبيه إلى أصله المعرفي.

تقتضي هذه المحاولة خوضًا في معرفة أخرى وباب آخر من أبواب العلم لأن الحكمة تقتضي معرفة الحقائق والأمور من حيث أسرارها ومعناها، والأمور في حقائق الوجود قد ترتبت على ظاهر وباطن وعلل ومعلولات وجمع وتفصيل، فثم حقائق مفردات وثم حقائق جامعات، من هنا تأتي مشروعية السؤال عن التشبيه الأكبر الذي يعقل فيه هذا التشبيه الأصغر إن جاز لنا التعبير بذلك، وبالإجابة عن هذا السؤال تكون حقيقة التشبيه البلاغي قد اكتملت في عين الرائي لها، وهذا هو المقصود برد هذه الظاهرة إلى أصلها المعرفي الذي يؤول بدوره إلى الثراء في معرفتها.

١–سنجد في أروقة التصوف حديثًا مفصلاً وعناية كبرى حول عالم أطلقوا عليه: عالم الخيال، أو عالم البرزخ والمثال. هذا العالم لم تكن العناية به أمرًا يتعلق بغير هموم طريقهم إلى الله تعالى، فابن عربي مثلاً، وهو الذي نعتمد نصوصه في هذا السياق، لا يعتد بعلم العارف إن لم يكن متمكنًا من معرفة الخيال؛ إذ أنَّى له التحفظ من الشيطان الذي مكنه الله من حضرة الخيال إذا ألقى له فيها ما ليس بحق، أو دلس عليه في مشاهداته وتجلياته؟.

يعرف ابن عربي الخيال بأنه «حضرة مستقلة وجودية صحيحة»، أو حضرة علمية معقولة. أما جانب معقوليتها المجرد فذلك أنه ليس لها ذات قائمة، وأما جانب وجودها فمعناه أن الخيال هو عين المتخيلات والبرزخ هو عين الصور البرزخيات، كما نعقل حضرة الحس مثلاً مجردة عن الوجود، لكن المحسوسات موجودة ذات أعيان وجودية، فنحن ندرك الصور الخيالية إذن من حضرة الخيال أعيانًا وجودية.

وحقيقة الاستقلال في حضرة الخيال تفهم من معنى توسطها وانفرادها بالاستقلال بين حضرتين أو رتبتين؛ حضرة المعاني وحضرة الحس، أو عالم المعاني وعالم المحسوسات، وتوسط الحقيقة البرزخية أو الخيالية بينهما يعني أنها تجمع أوصاف ما توسطت بينهما، وهذه هي دلالة البرزخ عمومًا، أيًا ما كانت العوالم التي يتوسطها، فالنخلة مثلاً مخلوق برزخي يتوسط عالم الحيوان وعالم النبات لجمعها بين صفات كل منهما، كذلك الأمر في عالم الخيال، يتوسط عالم المعاني المجردة التي لا تتقيد بالصور وعالم الحس الذي لا يعقل دون صورة، فيكون عالم البرزخ أو الخيال من أهم صفاته «إنزال المعنى الروحاني إلى المحسوس في العيان»، فيكون حاكمًا على المعاني ألا تعقل في حضرته دون أن تكون مكسوة بصورة الحس كالعلم في الرؤيا في صورة اللبن، وكجبريل عليه السلام في صورة أعرابي أو دحية، أي في صورة حسية تدرك بالبصر المحسوس أو بالحس المشترك في عالم الرؤيا الذي يطلع عليه عامة الناس وكذلك أيضًا يحكم الخيال على الحس فيجعل له حكم العالم اللطيف، ومن هنا تَتَرَوْحَنُ بعض الأجسام الكثيفة كما نقل عن قضيب البان مثلاً، فيكون الخيال بذلك حاكمًا على حضرتي الحس والمعنى.

غاية الأمر، أن الحقائق لا تقبل الدخول في حضرة الخيال من أي حضرة كانت دون صورة تتقيد بها، هذه الصورة تجمع حقائق الحس والمعنى كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومن ثم تعددت التسميات على هذه الحضرة أو هذا العالم، فهو عالم الخيال، وعالم البرزخ والمثال، وهو عالم الجبروت ومجمع البحرين لمعنى التوسط الذي ذكرناه، وهو حضرة التضاهي الخيالي وعالم التمثيل وحضرة الانفعال الممثل لدخول المعاني فيه في صور بينها وبين هذه الصور مناسبة أو جامع للشبه كالعلم في صورة اللبن، فكان الأول غذاء الأرواح وكان الآخر غذاء الأشباح.

فعالم الخيال إذن وجود محقق، تتوسط حقائقه حقائق عالم الحس وعالم المعنى. وهو وجود يفعل فعل التشبيه؛ لذا كان من أسمائه: حضرة التمثيل على ما سبق تقريره، أو حضرة التشبيه، فالتشبيه هنا أو التمثيل صار خلقًا وجوديًا، ولم يكن مجرد فعل لُغويّ أو صنعة لُغويَّة بلاغية غاية وجودها حروف الرقم، بل هو عالم مخلوق اكتست فيه المعاني صورًا حسية على أساس من المناسبة الرابطة بين المعنى والصورة أو–بتعبير آخر– على أساس من وجه الشبه.

يقول ابن عربي تأكيدًا لهذا المعنى في سياق الحديث عن أقلام المحو والإثبات أن «لقلوب الأولياء من طريق الكشف الإلهي الحقيقي في التمثيل من هذه الأقلام كشف صحيح كما مثلت الجنة لرسول الله ﷺ في عرض الحائط، وإنما قلنا إن ذلك الممثل حقيقة مع كونه ممثلاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأيتموني حين تقدّمت أردتُ أن أقطف منها قطفًا لو أخرجته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا...».

٢– يقرّر ابن عربي صورتين للاطلاع على هذا العالم الوجودي، عالم التمثيل وعالم الخيال، أما الصورة الأولى فيسميها الخيال المتصل، وأما الصورة الثانية فيسميها الخيال المنفصل.

فالخيال المتصل سمي بذلك لاتصاله بذات المتخيِّل وتعلقه بقوة مخلوقة في أول دماغه تسمى القوة المتخيلة، ويكون الفارق بين هاتين الصورتين أن الخيال المتصل تذهب الصور المتخيلة فيه بذهاب المتخيل والرائي لها خلافًا للمنفصل.

ثم إن الخيال المتصل كذلك على نوعين؛ نوع يكون عن تخيل ونوع آخر لا عن تخيل، فأمَّا الذي لا عن تخيل فهو الذي يطلع عليه عموم الناس في النوم فيرون الحقائق ممثلة أو الحس ملطفًا، وأما الذي عن تخيل وإرادة من صاحبه (الرائي) فمثاله ما ورد به الأمر الشرعي في الحديث الشريف: (اعبد الله كأنك تراه)، وهو ما يأتي فيه التفصيل لاحقًا. وكلا النوعين من الخيال المتصل يذهب بذهاب المتخيل، بمعنى يقظة الرائي في النوع الأول، وخروج صاحب الشهود عن شهوده في النوع الثاني.

ومثال الخيال المنفصل ما وردت به الكثير من الأخبار عن تشكل الأرواح النورية (الملائكة) والنارية (الجن) في الصور من خارج ذات الرائي، وعدم ارتباط هذه الصورة المتخيلة لدى الإنسان، فالصحابة رضوان الله عليهم قد رأوا جبريل عليه السلام متمثلاً في صورة أعرابي مرة، وفي صورة دحية الكلبي –رضي الله عنه– مرة، فمثل هذه المجالس التي تمثل فيها لو فرض أن أحدًا من المجلس انصرف عنه أو غاب لم تذهب الصورة أو تفنى، وهذا هو معنى انفصالها وعدم تقيدها بالرائي.

٣– بقي بعد بيان هذه اللمحة المختصرة عن حقيقة الخيال النظر في التشبيه الذي نقصده، وسنورد أمثلة يتحقق فيها هذا المعنى الوجودي المخلوق له، وإن كانت الصنعة اللغوية من حيث الظاهر عادة لا تجري وفق الصور التي أقرها البلاغيون للتشبيه:

١–٣ من أوضح الأمثلة على ذلك ما ورد في حديث جبريل عليه السلام الذي سبقت الإشارة إليه عن قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب –رضي الله عنه– راوي الحديث: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»، وذلك أن هاء الضمير في قوله «فإنه» تشير إلى الصورة التي رآها الصحابة رضوان الله عليهم ووقع بها الوصف في الحديث الشريف «إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب...»، وهي؛ أي الصورة صورة مثّل ظهر بها جبريل عليه السلام من حقيقة الحضرة الوجودية التي سبق التفصيل فيها، ومن ثم فإن هاء الضمير تمثل ركن المشبه به وقوله «جبريل» يمثل الركن الآخر وهو المشبه.

ويعد هذا المثال، وما يجري على نسقه، مثالاً بيِّنًا على التشبيه الوجودي المخلوق؛ لأن لدينا وعيا بمعقولية الفصل بين المشبه والمشبه به، هذا الوعي جعلنا نعود بهاء الضمير لا إلى ذات جبريل عليه السلام، ولكن إلى صورة المثل التي ظهر بها، فكأن فارقا دلاليا قد صار بين دلالة الهاء ودلالة جبريل جعل «الهاء» هي المشبه به و«جبريل» هو المشبه.

وبدون هذا البيان يُعد هذا النوع من التشبيه خفيا؛ إذ لم تظهر عليه صنعة التشبيه، لكن معقولية التشبيه متحققة فيه على ما سبق بيانه، بل كان التشبيه فيه أقوى وجودًا؛ إذ كان المشبه به أو التشبيه نفسه يمثل صورة وجودية مخلوقة فيراها الناظرون بعين الحس، فهي هنا مثال للخيال المنفصل على ما سبق تقريره.

٢–٣ ورد في نفس الحديث الشريف في قوله: «اعبد الله كأنك تراه»، وفيه يذكر ابن عربي أنه يشير إلى مقامين للإحسان، وكلاهما منوط به الرؤية، أما الإحسان الأول فالإشارة فيه ضمنية من قوله: «فإن لم تكن تراه»، أي أن هناك من يراه، وهذا مقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وورثته، وقد ثبت هذا المعنى بأحاديث أخرى مثل قوله ﷺ: «إن الله في قبلة المصلي» وقوله: «وجعلت قُرَّة عيني في الصلاة» .

وأما الإحسان الآخر فهو دون الأول؛ وصاحبه هو المخاطب بقوله: «اعبد الله كأنك تراه» فأمره بتصوره في الخيال؛ أي يخيله ويُحضره في خياله على قدر علمه به فيكون محصورًا له»، وقد جاءت عبارة الشرع تجرى بهذا التكليف اتساقًا مع حقيقة الإنسان التي خلقها الله فيه والتي من شأنها التخيل، فما استعصى على هذه القوة المتخيلة شيء من عالم المعاني والأرواح حتى بلغ بها الأوج أو بلغت بها القوة أن تكثف اعتقادها في الحق فتشهد هذا الاعتقاد في صورة تكون هي متعلق الرؤية الإحسانية المشار إليها في هذا الحديث،«فإن الإحسان عيان، وفي منزلة كأنه عيان، وهو إنزال المعنى الروحاني إلى المحسوس في العيان، وليس إلا الخيال الحاكم بالوجوب والوجود في الممكن والمحال.

وإجمالاً، فإن المنزلة العيانية في الرتبتين الإحسانيتين قد ارتقت بالتشبيه إلى أوج الحقيقة، بل هو عين الحقيقة، لأنه شهود المعاني مرئية مقيدة بالبصر.

وإذا كان هذا المثال ليس مندرجًا في ظاهره في باب التشبيه، فإن حقيقة التشبيه متحققة فيه، إذ إننا بين طرفين: «مشبه» وهو لفظ الجلالة: اعبد «الله»، و«مشبه به» وهو الصورة التي كانت مناط الرؤية ، سواء أكان الرائي في مرتبة الإحسان الأول أو الثاني والتي تتمثل في هاء الضمير من قوله «تراه» لأنها متعلق الرؤية ، فكأن الهاء راجعة إلى لفظ الجلالة ولكن بدلالة صورة الاعتقاد فيه أو صورة المثل التي تظهر للرائي في مرتبة الإحسان.

وهذا المثال يجرى على نسق سابقه؛ إذ لدينا وعي بمعقولية الفصل الدلالي بين هاء الضمير من قوله تراه، وبين لفظ الجلالة؛ لأن العقل والنقل يؤكدان عدم الإحاطة العلمية بالله تعالى، والرؤية من تعلقات العلم، فعلى هذا تمتنع الرؤية، ولكن اللفظ الشرعي ورد بها، فيكون المعنى الجامع لإثبات الرؤية وَنَفْيُ الرؤية التي هي من مقتضيات العلم: هو رؤية صورة الاعتقاد على ما سبق تقريره.

٣–٣ ومثال آخر لنفس التشبيه الذي نقصده ورد في الحديث الشريف منسوبًا إلى حارثة – رَضِيَ الله عنه–، فقد ورد أن النبي ﷺ قال له: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِالله حَقًّا، قَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ الله، عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لِيَلِي لَيْلِي ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، أَوْ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَاوَوْنَ فِيهَا، قَالَ: «أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ، عَبْدٌ نَوَّرَ الله الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ» [تعظيم قدر الصلاة، لمحمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (ت: ٢٩٤هـ)، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط/١، ١٤٠٦هـ، ١/ ٣٥٩]

فقول الصحابي – رَضِيَ الله عنه– الذي يكرر فيه قوله «كأني» هو ما نستشهد به هنا على رتبة أهل الرؤية الإحسانية؛ لتقرير النبي ﷺ بقوله: أبصرت، ثم لرتبة الصحابي نفسه التي تقتضي هذا المقام من الإحسان، فالصور التي عددها بقوله هي إذن تجليات ما ذكر في حضرة الخيال التي سبق الحديث عنها، أي أنها تجرى على نسق التشبيه الذي سقناه فيما سبق، وموضع الشاهد هو الجمل المتكررة من قول الصحابي الجليل: «كأني أَنْظُرُ».

فإذا كان متعلق النظر في الجمل المتكررة هي صور ممثلة وجودية في عالم المثل افترضنا في قوله: «أنظر عرش ربي بارزًا» جملة :«في نفس الأمر»، وافترضنا في جملتي: «كأني أنظر إلى أهل الجنة وأهل النار» قوله: «الذي لم يتعلق به علم المخلوق بعد» وكانت «كأن» هي التي أعطت معقولية الفارق الدلالي بين المستويين الوجوديين: الأصل والمثل؛ الأصل وهو المشبه هنا، وهو متعلق القول المفترض: «في نفس الأمر»، أو «الذي لم يتعلق به علم المخلوق بعد»، والمثل، وهو المشبه به هنا، وهو الجمل الواقعة بعد قوله: كَأَنِّي، وما ذكره ابن عربي في دلالة «كأن» أيضًا «بقوله: لأن يوم القيامة ما وقع حسًا ولكن وقع في حقه ممثلاً، فأدركه في التمثيل كالواقع في الحس، فأثبت الرؤية في عالم ما» يؤكد ما ذكرناه .

غاية الأمر أن ما يصدق في هذا المثال هو ما صدق فيما قبله من حقيقة الصور المرئيات أنها صور ممثلة وجودية، وإن كانت في ظاهرها لا تندرج في باب التشبيه، لكننا وجدنا حقيقة التشبيه مبطونة فيها، بل كان التشبيه فيها هو التشبيه الأصل، لأن الوجود المحقق مقدَّم على ما سواه، وما يُعقل ويُدرَك بالحواس مقدَّم كذلك على ما لا يُعقَل إلا معنى مجردًا.

وبهذا يمكن القول: إن هناك رتبتين للتشبيه؛ تشبيه أصل، هو ذاك الذي تحدثنا فيه، وتشبيه فرع هو التشبيه البلاغي الذي غاية مرماه الصنعة اللغوية، وهو الذي عليه قول الشاعر مثلاً:

كأنَّكَ شَمْسٌ والملوكُ كَواكِبٌ

إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكبُ

وكان الحاصل أيضًا من الوعي بحضرة الخيال الوجودية المخلوقة، وهذا النوع من التشبيه الوجودي كذلك فهم كثير من نصوص الشرع التي ألبست المعاني حكم المحسوسات مثل: وزن الأعمال يوم القيامة وذبح الموت وشفاعة الزهراوين وغير ذلك مما ورد أن ذلك كله يعد وجودًا محققًا بحكم هذه الحضرة المخلوقة التي من شأنها أن تفعل بالمعاني ما سبق أن ذكرناه.

سُعْدَى بنت الشَّمَـرْدَل
النَّـائحَـةُ الثَّكْلَى

بقلم
د. محمد هاشم عبد السّلام
كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، مصر

كثرت الثّارات والإحنُ بين القبائل في العصر الجاهليّ، حتّى إنّ نار الحرب كانت تلقح بينها ويشبّ ضِرامها لمجرّد أن يُقتل فصيل، أو يتأخّر فرس في مضمار سباق، أو يُذَاد فردٌ عن حمى آخر، أو يُهجى شخص من قِبَل شاعر، ووفق أعراف القبيلة في هذا العصر كان كلّ منتسب إليها يحظى بحصانتها ودعمها المطلق له، وكلّما استنجد أحد بأبناء قبيلته، فإنّهم يهرعون لنصرته، وإن كان هو المُسيءَ الظّالم:

قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْه لَهُمْ
طَارُوا إليه زَرَافاتٍ ووِحْدَانا
لا يَسْأَلونَ أَخَاهُمْ حين يَنْدُبُهمْ
في النَّائِبَاتِ على ما قَالَ بُرْهانَا

هذا عن حقّ الفرد على قبيلته في الجاهليّة، أمّا واجبها عليه، فهو السّمعُ والطّاعة والامتثال لما تقرّره، حتّى وإن جانبها فيه الصّواب، ولم تَرْشُد؛ فلسان حال كل واحد من أبنائها هو ما لهج الشّاعر دُرَيْد بن الصِّمَّة بذكره والإعلان عنه في حديثه عن قومه وقبيلته غَزِيَّة قائلًا:

فلمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ منهم وقد أَرَى
غَوَايَتَهم وأَنَّني غَيْرُ مُهْتَدِ
وما أنا إلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ
غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

وعلاوة على هذا التّسليم المطلق لأمر القبيلة كان الواحد في الجاهليّة لا يستكثر أنْ يبذُل حياتَه وما يملكه فداء لقومه:

فِدَىً لبَنِي ذُهْلِ بنِ شيبانَ نَاقَتِي
ورَاكِبُها يَوْمَ اللِّقَاءِ وقَلَّتِ

ولنا أنْ نقرّر بهذا مطمئنين أنّ تلبية الجاهليّين لنداء الحرب كان عندهم أسرعَ من نكاح أمّ خارجة، وبدافع من هذه الحميّة الجاهليّة والعصبيّة القبليّة جُدِّل كثيرون منهم في حومات الوغى، وخَلَّفت أيامهم المتوالية العديد من القتلى، أولئك الذين طفق الشّعراء يندبونهم ويأبّنونهم بعد موتهم، لا سيما مَنْ دنت قرابتهم، وتوطّدت أواصر الصّلة بهم.

وبالرغم من أنّ الرّجال من الشّعراء في العَصر الجاهليّ قد أدلوا بدلوهم في رثاء أحبابهم، فإنّ بعض شاعرات هذا العصر قد نافَسْنَهم في هذا الميدان وبَرَعْن فيه، وعِلَّة ذلك ما ذكره ابن رشيق من أنّ «النّساء أشجى النّاس قلوبًا عند المصيبة، وأشدّهم جزعًا على هالك؛ لمّا ركَّب الله – عزّ وجلّ – في طبعهنّ من الخَوَر وضعف العزيمة»، ومن ناحية أخرى «فإنّ حياة الرّجال في العصر الجاهليّ كانت تقوم على القتل وسفك الدّماء والتّفاخر بالشّجاعة والبطولة، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذَرْف الدّموع كالنّساء»، بل يجاهد الواحد منهم مشاعره، ويفخر بتجلّده للشّامتين، يريهم أنّه لريب الدّهر لا يتضعضع.

أمّا فيما يتعلّق برثاء النّساء، فربّما يعتقد البعض أنّ الخنساء دون سواها من شاعرات العصر الجاهليّ هي مَنْ رثت الأخ والتاع قلبها عليه، مع أنّ مَنْ يفتّش في أدب هذا العصر يجد شاعرة جاهليّة تُدْعَى سُعْدَى بنت الشَّمَرْدَل الجُهَنِيَّة قد رثت أخًا لها يسمى (أسعد)، بقصيدة وردت في الأصمعيّات، وفيها صدرت هذه الشّاعرة عن عاطفة صادقة ومشاعر جيّاشة، على قدر هذه المصيبة التي هزَّت كيانها وصدمتها، وكيف لا وقد قُتل أخوها غيلة، قتلته بَهْزٌ من بني سُلَيم بن منصور، فراعها مصرعه، واستهلّت هذه القصيدة قائلة:

أَمِنَ الحَوادِثِ والمَنُونِ أُروَّعُ
وأَبِيْتُ لَيْلِي كُلَّهُ لا أَهْجَعُ
وأَبِيْتُ مُخْلِيَةً أُبَكِّي أَسْعَدًا
ولِمثْلِهِ تَبْكِي العُيونُ وتَهْمَعُ
وتَبَيَّنُ العَيْنُ الطَّلِيحَةُ أنَّهَا
تَبْكِي مِن الجَزَعِ الدَّخِيلِ وتَدْمَعُ

لهول المصيبة لم تأتِ الشّاعرة في بداية مرثيتها هذه بمقدّمات طلليّة أو غيرها من المقدّمات التّقليديّة، ولكنّها دلفت إلى ما يناسب المقام، فكان أوّل ما قرعت به الأسماع واستمالت به الإصغاء هو هذا الاستفهام، الذي أوحى بعظم الخطب، وأفاد بوضعها في مواجهة مباشرة مع مَنْ لا تقوى على مجابهته؛ وأنّى لها أن تجالد الحوادث والمنون؟! وقد اجتمعا على ترويعها بإهلاك أخيها، فما كان منها « وهي المقهورة قليلة الحيلة » إلّا أن تضاعف حزنها وجواها؛ فهي لا تأخذها أثناء الليل سنة من النّوم، بل تسهره كلّه، وليت الأمر توقّف عند مجرد السّهر، إنّه سهر ذرفت في أثنائه الدّمع، دون أمل في أن يرقأ أو ينقطع؛ لأنّ الحزن « ويا لها من كربة » قد خامر قلب سُعْدَى، وآض مطمورًا في أحشائها متلبّس بجسدها.

وبعد هذه الأبيات الاستهلاليّة يتبيّن لنا أنّ سُعْدَى لم تتعاطَ طويلًا مع هذه الحالة النّفسيّة التي انتابتها، وكادت تودي بحياتها؛ وأمارة ذلك أنّها لم تكمل دورة شعراء الرّثاء، حين يندبون موتاهم؛ فيعبّرون عن ضعفهم وخورهم بعد أن فقدوا سندهم وملاذهم في الحياة، ثمّ يتبعون ذلك بإعلان تبرهم وسخطهم ممّا نزل بساحتهم، وفي هذا الإطار أيضًا ربما ذمّوا الدّهر، ونعوا على الكون استقراره وبقاء نواميسه، ولكن الشّاعرة خفّفت من غلواء هذا النّدب، وراحت تبدي شيئًا من الحكمة ورجاحة العقل، حين رجعت لنفسها وأيقنت أنّها لو بخعت هذه النّفس، ومزّقتها كل ممزّق، فإنّ ذلك لن يغيّر من الأمر شيئًا، ولن يردّ لها فقيدها، فخير لها أن تعزّي نفسها وتتأسّى بمن قبلها من الهالكين وبالخلق الأحياء الذين – إنْ عاجلًا أم آجلًا– سيتجرعون كأس الموت، ويصيرون

إلى ما صار إليه أسعد، وذلك قولها:

ولَقَدْ بَدَا لي قَبْلُ فيما قَدْ مَضَى
وعَلمْتُ ذاكَ لوَ انَّ عِلْمًا يَنْفَعُ
أنَّ الحَوادثَ والمَنُونَ كِلَيهِما
لا يُعْتِبانِ ولوْ بَكَى مَنْ يَجْزَعُ
ولقدْ عَلِمْتُ بأنَّ كلَّ مُؤَخَّرٍ
يومًا سَبيلَ الأَوَّلينَ سيَتْبَعُ
ولقدْ عَلِمتُ لوَ انَّ عِلْمًا نافعٌ
أنْ كُلُّ حيٍّ ذاهبٌ فمُودِّعُ
أفليْسَ فيمنْ قَدْ مَضَى لي عِبْرةٌ
هَلَكُوا وقَدْ أَيقَنْتُ أنْ لَنْ يَرْجِعُوا

وعلى هذا النّحو حاولت الشّاعرة كبح جماح عواطفها الموّارة واستعادة شيء من اتّزانها النّفسيّ؛ ممّا فتح أمامها المجال لاجترار ذكريات الماضي واستعادة صورة أخيها وتذكّر ما كان له من مآثر وفضائل جمّة، وهو ما تجسّد في انتقالها من حال العزاء في الأبيات السّابقة إلى حال التّأبين قائلة:

ويْلُ مِّ قَتْلَى بالرِّصَافِ لوَ انَّهم
بَلَغُوا الرَّجاءَ لِقَوْمِهمْ أوْ مُتِّعُوا
كَمْ مِنْ جميعِ الشَّمْلِ مُلْتَئِمِ الهَوَى
كانوا كذلكَ قَبْلَهمْ فتَصَدَّعُوا
فَلْتَبْكِ أَسْعَدَ فِتْيةٌ بسَباسِبٍ
أَقْوَوْا وأَصْبَحَ زادُهُمْ يُتَمَزَّعُ
جَادَ ابنُ مَجْدَعةَ الكَمِيُّ بنَفْسِهِ
ولقدْ يَرَى أنَّ المَكَرَّ لأَشْنَعُ
وَيْلُمِّهِ رَجُلاً يُلِيْذُ بظَهْرِهِ
إِبِلاً ونَسَّالُ الفَيَافِي أَرْوَعُ

يَرِدُ المِياهَ حَضِيْرَةً ونَفِيْضَةً
وِرْدَ القَطَاةِ إذا اسْمَأَلَّ التُّبَّعُ
وبهِ إلى أُخْرَى الصِّحابِ تَلَفُّتٌ
وبهِ إلى المَكْرُوبِ جَرْيٌ زَعْزَعُ
ويُكَبِّرُ القِدْحَ العَنُودَ ويَعْتَلِي
بأُلَى الصِّحابِ إذا أَصَاتَ الوَعْوَعُ
سَبَّاقُ عَادِيَةٍ وهَادِي سُرْيَةٍ
ومُقَاتِلٌ بَطَلٌ ودَاعٍ مِسْقَعُ

وهنا تعلن سُعْدَى أنّ بنيان قومها قد تصدّع، وأنّ شملهم قد تمزّق بموت أسعد؛ هذا الفارس الذي كان فوت الموت سهلًا عليه، ولكنّه أقبل عليه في شجاعة وجسارة؛ إذ كان ديدنه تقحّم الأخطار وحماية الإبل، ومواصلة الغزو، غير مبالٍ في هذا بعدد مَنْ يصحبه

في الشّدائد، وأنّى له أن يعوِّل على نصرة غيره؟! وهو مَنْ يقع على عاتقه حماية الصّحب والالتفات لتفقّد أحوال من تأخّر منهم، ثمّ الاندفاع في لمح البصر لدرء الخطر عمّن تقدّم منهم، وكأنّه يحوطهم من جميع الجهات وإن كلّفه هذا أن يُثبت هو في مستنقع الموت رجله، بينما ينجون هم بأنفسهم، ولا يمسهم السّوء، هذا إلى جانب ما كان يتمتّع به من سرعة فائقة وهداية غيره وإن ادلهمّ الظّلام، وما كان يتمتّع به أيضًا من فصاحة وحسن بيان.

وبعد هذا العرض لبعض شمائل أسعد تلتفت أخته إلى الحديث عن قتلته قائلة:

ذَهَبَتْ بِهِ بَهْزٌ فأصبحَ جـدُّهـا
يَعْلُو وأَصْبحَ جَدُّ قَوْمِي يَخْشَعُ
أَجَعَلْتَ أَسْعَدَ للرِّماحِ دريئةً
هَبِلَتْكَ أُمُّكَ أيَّ جَرْدٍ تَرْقَعُ

وسُعْدَى وإن لم تتوّعد في البيتين السّابقين أولئك القتلة بالثّأر منهم وإهلاكهم لأنّ هذا ممّا يقدر على إنفاذه الرّجال – فإنّها قد أخبرت بأنّ منزلتهم بين العرب قد علت؛ حين ظفروا بهذا البطل المغوار، كما توجهت باللّوم والتّقريع لقاتل أخيها، هذا الذي جنى بقتله أسعد جناية لا يدري ما وراءها، فما وراءها فتق اتسع على الرّاتق، وجرح لا يبرى ولا يندمل بمرور الأيّام.

وتشعر الشّاعرة بوحشة شديدة في قلبها؛ فتنادي أسعد نداء الأحياء قائلة:

يا مُطعمَ الرَّكْبِ الجياعِ إذا همُ
حثُّوا المطيَّ إلى العُلَى وتسرَّعوا
وتجاهَدُوا سَيْراً فبعضُ مَطِيِّهِمْ
حسْرَى مُخَلَّفةٌ وبعضٌ ظُلَّعُ

وهي بهذا تنعى في أخيها الجود والسّعي الحثيث في مساعدة المحتاجين، لا سيما مَنْ تقطعت بهم السّبل، وأوشكوا على الهلاك في المفاوز بعد أن نفد طعامهم، ونضيت ركابهم ونال منها الإعياء والتّعب، كما تنعى فيه الشّجاعة مرة أخرى حين تؤكد على تعوّده السّير منفردًا في الأودية وإن غشيها حندس الليل قائلة:

جَوَّابُ أَوْدِيَةٍ بغَيْرِ صَحابةٍ
كَشَّافُ داويِّ الظَّلامِ مُشَيَّعُ

وإزاء هذا الخطب الجلل تضطرب الشّاعرة، وتتباين مشاعرها بين العزاء والهلع؛ فذكرى أخيها لا تفارقها، وهذا مدعاة لملازمة الأرق والوهن لها، وفي هذا تقول:

هذا على إثْرِ الذي هو قَبْلَهُ
وهيَ المَنَايا والسَّبيلُ المَهْيَعُ
هذا اليقينُ فكيفَ أنْسَى فَقْدَهُ
إنْ رابَ دَهْرٌ أوْ نَبَا بِيَ مَضْجَعُ

وبعد هذين البيتين تعود الشّاعرة إلى تأبين أخيها مرة ثانية قائلة:

إنْ تَأْتِهِ بَعْدَ الهُدُوِّ لحاجَةٍ
تَدْعُو يُجِبْكَ لها نَجِيبٌ أَرْوَعُ

وهذا الذي ذكرته الشّاعرة في حق أخيها مروءة ما بعدها مروءة؛ لأنها قد أطلعتنا من قبل كيف كان يقضي نهاره غازيًا وعاديًا في الأودية والفلوات، وشخص هذا دأبه في الحياة من الطّبيعي إذا جنَّ عليه الليل أن يخلد للنّوم ولا يشغله عن ذلك شاغل، لكن هذا الأخ إن جاءه هذا الشّاغل ونُدب لحاجة وقت راحته، فإنّه سرعان ما يقضيها لصاحبها غير متضجر أو متعلل أو متجهّم الوجه، ورجل هذه شيمته لا يستغرب منه أن يكون قد مثَّل في الكرم حالة خاصة عبرت عنها أخته بقولها:

مُتَحلِّبُ الكَفَّيْنِ أَمْيَثُ بارِعٌ
أَنِفٌ طُوالُ السَّاعِدَيْنِ سَمَيْدَعُ
سَمْحٌ إذا ما الشَّوْلُ حارَدَ رِسْلُها
واسْتَرْوَحَ المَرَقَ النِّساءُ الجُوَّعُ

فأسعد حسب وصف سُعْدَى السّابق لم يقتر في العطاء، وإنّما كانت تسيل كفاه به من غير مَنٍّ أو نزق، حتى أيام الجدب وجفاف ضروع الإبل وقلّة الطّعام، فإنّ سخاء هذا الرّجل ظلّ متدفّقًا، ينعش به الفقراء، وينتشلهم من بؤس الفاقة والعوز، ومع ختام القصيدة تتوقف الشّاعرة عن تأبين أخيها والإشادة بسجاياه الحميدة، لكنّها لم تتوقّف عن العويل، وذكر هذا اليوم الذي فُجعت فيه بموته، ولم يعد يُجْدِي حينها فداء أو عطاء، وفي هذا تقول:

مَنْ بَعْدِ أسعدَ إذْ فُجِعْتُ بيَوْمِهِ
والموتُ ممَّا قد يَريبُ ويَفْجَعُ
فوَدِدْتُ لوْ قُبِلَتْ بأسعدَ فِدْيَةٌ
ممَّا يَضَنُّ بهِ المُصابُ المُوجَعُ
غادرتَهُ يومَ الرِّصافِ مجدَّلاً
خبَرٌ لعَمْرُكَ يومَ ذلك أَشْنَعُ

ومن الملاحظ أنّ سُعْدَى في هذا المقطع الختامي قد عدلت عن النّهايات التّقليدية لقصائد الرّثاء؛ إذ كان الشّعراء في الغالب يستسقون السّحاب وشآبيب الغيث لقبور موتاهم، أمّا هي فقد اختارت أن تختم قصيدتها بما بدأتها به من إبداء الحزن والوهن الذي أصابها، وكأنها – من غير أن تصرح– تريد أن تقول لنا: إن الخوف الآن ليس على أخيها، فقد قدم في حياته ما يضمن له حسن الخاتمة ونزول المطر، ولكن الخوف عليها هي، فلا تزال نفسها تذهب عليه حسرات؛ لأنها في موقف لا تُحسد عليه؛ فلا هي التي أدركت ميتته الشريفة، ولا هي التي عاشت بعده قريرة العين عنده ما يسليها أو ينسيها فقده، وهكذا بدت سُعْدَى صادقة في مشاعرها وحزنها على أخيها، غير متكلّفة في رثائه وتخليد ذكراه، وكأنّ المثل العربيّ القائل: «ليست النّائحة الثّكْلَى كالمُسْتَأْجَرة» قد عناها دون باقي الثّكالى والمعولات من شاعرات العرب ونسائهم.

القاعدة النّحويّة والإبداع الفنّي

الباحث/ علاء يونس فرج عبد الغني

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد عليه أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد،،،

فإنّ اللغات في سائر المجتمعات، وعبر مُختلف العصور والأزمان هي البِساط المشترَكُ بين أبناء اللغة الواحدة، والأداة التي يتمكّنون من خلالها من إتمام عمليّة التّواصل الاجتماعيّ البنّاء بينهم، على نحو يفي بالتّعبير عن أغراضهم، وتلبية احتياجاتهم على الوجه المرجوّ، وذلك في نطاق عرف لغويّ مشترك، تصبح اللغة من خلاله ركيزة أساسيّة في تكوين المجتمع وبنائه، والمشاركة الفعّالة في تحديد الهويّة الجماعيّة للمجموعة البشريّة التي تتحدّث بها.

ولكنّ النّاظر في اللغة العربيّة يجد أنّ الأمر فيها لا يقف عند حدود وظيفتها التّواصليّة أو الاتّصاليّة بين المتكلّمين بها فحسب؛ إذ يمثّل الإبداع الفنّيّ فيها لغة خاصّة، يمكن الاصطلاح عليها باللغة الفنّيّة، أو اللغة العليا؛ تلك اللغة التي يتمّ فيها الانتقال من المستوى الأوّل الذي يُناط به مجرّد التّواصل اللغويّ بين أبناء المجتمع اللغويّ الواحد إلى مستوى الجمال والإبداع والتّذوّق الفنّي.

وحينما يتم الانطلاق إلى فضاء تلك اللغة (لغة الإبداع) وأفقها الواسع الفسيح، يقوم النّحو إذ ذاك بدور كبير في إبراز جماليّات أنماط تلك اللغة العليا، والكشف عن تفاعل القاعدة النّحوية وتَواؤُمها مع الدّلالة الأوّليّة لمفردات تلك اللغة، وذلك فيما يمكن الاصطلاح عليه بالمعنى النّحوي الدّلاليّ.

وفي هذا السّياق يمكن القول إنّ العلاقة بين النّظام النّحويّ والإبداع الفنّيّ تقوم على أساس وطيد من التّرابط والتّكامل الذي تصبح القاعدة النّحويّة بمقتضاه– إذا توخّى المبدعون في إبداعهم معاني النّحو– هي الأداة التي يتمكّنون من خلالها من تحقيق بغيتهم من أدبهم، فتصبح حينئذ أهمَّ ركائز الإبداع، وأبرز آليّاته وأدواته الفاعلة في النّصّ الأدبيّ بصفة عامّة.

وفي سبيل تحقيق التّكامل بينهما، تقوم منطقة الجواز في النّحو بدور كبير في إعطاء المبدع مساحة أوسع، بما تمنحه له من إمكانات الاختيار من بين البدائل التي يتيحها له النّظام النّحويّ، والتي تدور كلها في فلك منطقة الجواز، وعندئذ يقوم النّظام النّحويّ – بما له من طاقة إبداعيّة هائلة – بتحقيق التّناسب بين الصّورة الشّكليّة للكلام وما يريد المبدع أن يبثّه فيه من معانٍ ودلالات.

وحينما يتحقّق هذا التّرابط والتّكامل بين سلوك المبدع (الأداء المتغيّر) والقاعدة النّحويّة (النّظام الثّابت) يتمّ الانتقال من مرحلة يُنظر فيها إلى القاعدة النّحويّة على أنّها مجرّد أداة يتمكّن أبناء اللغة– من خلالها من تحقيق مراد الصّواب والصّحة في الكلام فحسب، إلى مرحلة أخرى أكثر عمقًا، يكون النّظام النّحويّ فيها قرين الإبداع في النّصّ الأدبيّ، أو بعبارة أخرى: يتم الانتقال من مستوى الصّحة والصّواب إلى فلك الفضيلة والمزيّة في الكلام، تلك التي هي أساس المفاضلة بين الكلام، تلك التي تتطلّب من المبدع أن يكون مُلمًّا بمعاني النّحو، عالمًا بمواضعها وصورها، مُدركًا ما بينها من فروق ودقائق؛ يعرف النّحو معرفة فنيّة لا يُكتفى فيها بالجنوح إلى القاعدة وحدها دون توظيفها على النّحو اللائق، قادرًا على إحداث الموازنة بين الدّلالة الدّاخليّة (في النّفس) ودلالة النّظم اللفظيّ في ترتيبه الخارجيّ على تلك المعاني الدّاخليّة التي تجول في نفسه؛ وحينئذ تكون مهمّته هي النّظَر في الفروق والوجوه في كل باب من أبواب النّحو، وأن يختار من هذه الوجوه ما هو أصدق تعبيرًا عن مراده، وأكثر إبانة عمّا في نفسه من معانٍ ودلالات[1]، «فيعرف لكلّ من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له[2]؛ فيتصرّف في التّعريف والتّنكير، والتّقديم والتّأخير في الكلام كلّه، وفي الحذف والتّكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصّحة، وعلى ما ينبغي له[3]»

فإذا تحقّق للمبدع ذلك «أخذ من علم النّحو ما يوصله إلى الغاية المطلوبة منه[4]» ، وتسنّى للكلام حُسْنُ النّظم، وجمال

(١) للمزيد، انظر: دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: الشيخ محمود محمد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة، ط٣، ١٤١٣ه– ١٩٩٢م، ص: ٨١-٨٢.

(٢) دلائل الإعجاز، ص: ٨٢.

(٣) دلائل الإعجاز، ص: ٨٢.

(٤) الرّدّ على النّحاة، لابن مضاء القرطبيّ، تحقيق: محمّد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط١، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م، ص: ٦٦.

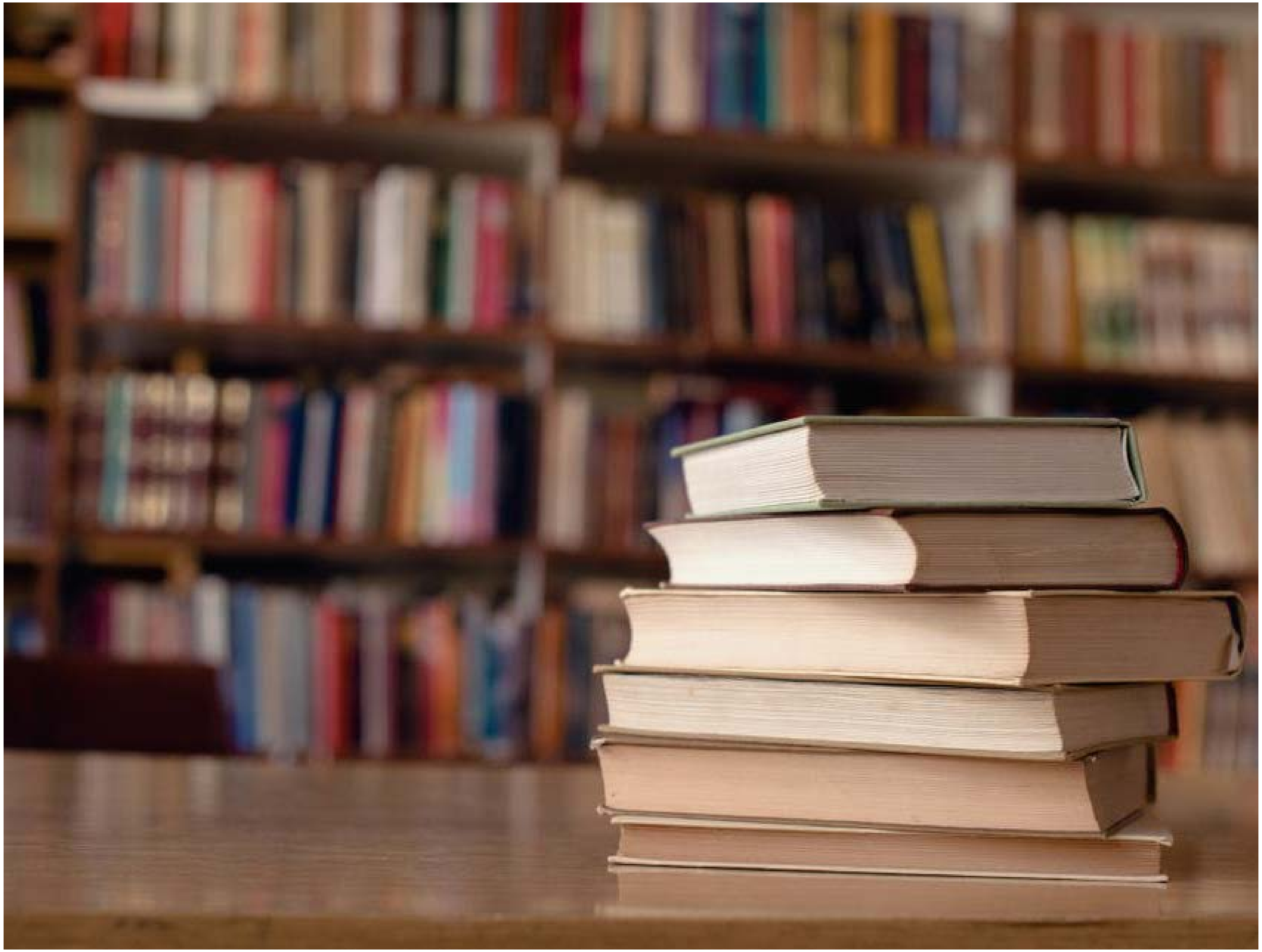

التّأليف وروعته، وحينئذ يصبح للنّحو دور في استنطاق الجمال، وعلى هذا الأساس أيضًا تنتقل مهمّته إلى أفق أوسع وأرحب؛ هو أفق المستوى الجماليّ الذي يصبح فيه النّحو– بهذا المفهوم– سرّ صناعة العربيّة، «فهو رابط الصّيغ الذّهنية، وهو الذي يساعد اللغة على تخطّي كلّ الصّعاب، وصولًا إلى عمليّة الإبداع[٥]

ويعني ذلك أنّ كلًّا مِن مُنشئ النّص والمتلقّي ملتزمٌ بشروط عرفيّة الاستعمال المتمثّلة في عدم الخروج عن الجادّة العربيّة الصّحيحة في صورتها المعياريّة، ويلتزم كلاهما كذلك بحدود ذوقٍ لغويّ عامّ، ولكن المتلقّي له الحقّ كلّه في أنْ يُحَمِّلَ النّص معنى أو دلالة من ذوقه الخاص، وأن يجعل سبيله إلى ذلك تحميل أنماط التّركيب عبء هذه المقاصد الأسلوبيّة الفرديّة، كما أنّه قد يلتقي مع منشئ النّصّ على فهم واحد؛ فيتمكّن من فهم دلالة الكلام على الوجه الذي أراده له مبدعه ومُنشئه، وقد يهديه ذوقه الفرديّ في كثير من الأحيان إلى غير ما قصد المنشئ من معنى أو دلالة[٦].

إنّ الذين يجعلون مهمّة النّحو مقصورة على حراسة الصّواب والخطأ، ويقفون به عند البحث في الإعراب ونظامه، «وضبط الأواخر من أجل العوامل[٧]»، وقصروا النحو على أواخر الكلمات، وعلى تعرّف أحكامها، قد ضيّقوا من حدوده الواسعة، وسلكوا به طريقًا منحرفة إلى غاية قاصرة، وضيّعوا كثيرًا من أحكام نظم الكلام، وأسرار تأليف العبارة[٨]

إنّ النّحو قرين الإبداع، وهو من أهمّ أدوات الفهم الأدبيّ؛ «فالنّحو ليس موضوعًا يحفل به المشتغلون بالمُثُل اللغويّة والذين يرون إقامة الحدود بين الصّواب والخطأ، أو يرون الصّواب رأيًا واحدًا، فالنّحو مشغلة الفنّانين والشّعراء أو الفنّانون هم الذين يفهمون النّحو، أو: هم الذين يبدعون النّحو؛ فالنّحو إبداع[٩]».

---

(٥) البلاغة والأسلوبيّة، محمّد عبد المطّلب، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص: ٤٢.

(٦) انظر: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٣-١٩٩٣م، القسم الثاني: ص/٤٩٠.

(٧) أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، د/محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٤١٠ء– ١٩٨٩، ص: ٢٢٢.

(٨) إحياء النّحو، لإبراهيم مصطفى، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص:١٨.

(٩) النّحو والشّعر، قراءة في دلائل الإعجاز، لمصطفى ناصف، بحث منشور بمجلة فصول، العدد الثّالث، أبريل ١٤٠١ه-١٩٨١م، الهيئة العامّة المصريّة للكتاب، ص: ٣٦.

الشارقة
درّة الزمان

محمد سلامة عوض الله

قَد جلَّلَ الدّنيا ضِياءً ساطعا ... نورٌ تَهادى مِنْ فِجاجِ الشّارِقه
تزهو خُطى التاريخ بالمجد الذي ... أَعْلَتْ لِواهُ بها أيادٍ صادقه
وأكاد أسمعُ في مرابِعِها صدى ... خَطْوِ الأُلى أعلَوا ذُراها الشاهقه
حَصْباؤُها مِسْكٌ يفوحُ عَبيرُه ... وبطاحُها كثبانُ تِبْرٍ آلِقَهْ
في حِضْنِ مُتْحَفِها العَتيدِ تَناغَمَتْ ... أمجادُ تالِدِها العريق الشاهقه
عَرِّج على القصباء وانشَقْ عِطْرَها ... والنشرَ في آصالِها المتخلّقه
وصَبا البحيرة يَسْتَبيكَ نسيمُها ... وشذاه يعبق في لُجَينٍ رائقه
سائل صُروحَ العلمِ مَن ذا شادَها ... فغَدَتْ منارًا للعلوم الفائقه
والجامعات الشّامخاتِ بِعِلْمِها ... وإذا يُعَدُّ الفضلُ فهي السّابقه
سُلطانُ باني صرحِها ومشيدُها ... فَبُنودُها في كلّ فجّ خافقه
واستحوذتْ من كل علمٍ طارفٍ ... عندَ الفخَارِ سنامَه وسوابقَه
إنَّ المهنّدَ لا يَبينُ مَضاؤُهُ ... إلا بِأَيدٍ مخلِصاتٍ واثقه
عزَّتْ بِساحَتِها الثقافةُ إذ غَدَتْ ... محفورة في حِضنها متعلّقه
أضحَتْ غداةَ الفخرِ عاصمةً لها ... غرَّاءَ راسِخَةَ الجذورِ مُنَطَّقه
واسأل شواطئها وسائل رَمْلَها ... عن ذي البطولات الرواسي الخارقه
واسأل ثَراها مَنْ أَعَزَّ ذِمارَها ... وأَذَلَّ أَجْنادَ الفِرَنْجِ البائقه
أوَلَيسَ هم جندَ القواسِم عزُّها ... وفخارَها في المأثُراتِ السامقه؟
ضحَّوا فأضحَوا للكفاحِ منارةً ... شمّاءَ للصّادِينَ فيها بارِقه
بِدِمائهم سَطَروا ملاحمَ عزةٍ ... فغَدَت مَعينًا للخُلوفِ اللّاحقه
ما أرهبتهم صولةُ الباغي الذي ... ملأ البحارَ بِبُومِ شُؤمٍ ناعقه

والشَرُّ إن لاقَيتَه مُتَطامِنًا … أولاكَ من صِرف الهَوان بوائقه
بِجَلالِ آيِ اللّه زِينَ لِواؤهم … (نَصْرٌ من اللّهِ) يُعِزُّ فَيالِقَه
بِحَمِيَّةِ الدينِ القويمِ ونَخوةٍ … عربيةٍ كانوا لُيوثًا ماحقه
فلهم علينا أن نَصونَ تُراثَهم … بِعَزائمٍ شُمٍّ صلابٍ صادقه
للّهِ أرضٌ عُطِّرَتْ بِرُفاتِهم … فَزَكَتْ وأَضْحَتْ بالمَفاخِرِ مورِقَه
سَتَظَلُّ في سِفْرِ الزَّمانِ خَريدَةً … وضّاءةً تجلو الدّياجي شارقه
فَلَنِعْمَ دارُ المكْرُماتِ وأهلُها … شعبُ الأماجِدِ ذو الأُصولِ المُعرِقَه
شعبُ المروءَةِ والسّماحَةِ لَمْ تَزَلْ … أكنافُهُ للقاصدينَ مُرَهَّقه
وإذا بَلَوتَ، بَلَوتَ منهم معشَرًا … نُجُبًا لهم في كلِّ فضلٍ سابقهْ
إنْ كُنتَ فيهم آثروكَ وإنْ تَغِبْ … خَفَروا ذِمامَكَ في قلوبٍ وامقهْ
وَرِثوا المكارِمَ كابِرًا عن كابِرٍ … فَفِعالُهم فوقَ السّماك مُحَلِّقهْ
بِخِلالِ (عدنانَ) الأغَرِّ تسربلوا … وتسنَّموا أمجادَهُ وسوابِقَه
ونمتْهُمُ عندَ الفَخارِ لِيَعْرُبٍ … بيضُ الخِصالِ وهِمَّةٌ متدفّقه
ساحاتُهم ساحات (مَعْنٍ) في النّدى … وأكُفُّهم بِسَخاءِ (حاتِمَ) مُغْدِقَه
والحِلْمُ فيهم راسِخٌ كَحُلومِهِم … والضِّغْنُ مَنْقَصَةٌ خَذول موبقَه
والصّدقُ فيهم ذِمَّةٌ محفورَةٌ … ووفاؤهم عَهْدٌ عُراهُ مُوثَّقه
أدعوكَ ربّي والحوادث جمّةٌ … مَنْ يَبْغِهِم سوءًا فَخُذْهُ بِحالقهْ
يامَنْ أُخِذْتَ بِسِحرها وبِمَجدِها … هيّا (ابتسم ها أنتَ ذا في الشّارقهْ)

يا صاحب الحوض العميم تحيّـةً

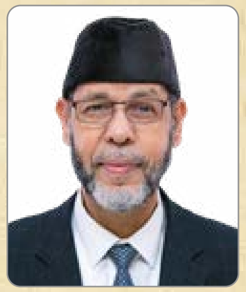

د. امحمد صافي المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

وليلٍ بطيءٍ أثقلَتني كلا كِلُهْ ... ووَجْدٍ عميقٍ أسهرَتْني بلابِلُهْ
أحاطَتْ بيَ الأشجانُ مِنْ كلّ جانبٍ ... وفاضتْ دُموعُ الشّوقِ واشْتَدَّ وابِلُهْ
وهبّتْ رياحُ الحُبِّ تَكْوي مشاعري ... وحِبّي رسولٌ لا تُعَدُّ فضائلُهْ
وهلْ تسبُرُ الأشعارُ كُنْهَ محبّتي ... وَحِبُّ فؤادي لا نَبِيَّ يُشاكِلُهْ
نبِيٌّ أشادَ الأنبياءُ بفضلهِ ... فلا مَنْ يُدانيه ولا مَنْ يُساجِلُهْ
وزُيِّنَتِ التَّوراةُ قِدْمًا بِذِكرِهِ ... أناجيلُ عيسى بشّرَتْ ورسائلُهْ
تفتّحتِ الأكوانُ يومَ مجيئهِ ... وأشرقَ نورُ الخيرِ راقت أصائلُهْ
وزُعزِعَ رُكْنُ الشّركِ واجْتُثَّ أصلُهُ ... وزُحزِحَ بيتُ الشّركِ هُدّتْ هياكِلُهْ
وأمّا مجوسُ النّار فانْحطَّ شأنُهُمْ ... وخابَ عظيمُ الرّومِ وانْهارَ باطِلُهْ
ألا أيُّها المحمودُ قبلَ مجيئهِ ... مقامُكَ محمودٌ فَمَنْ ذا يُحاوِلُهْ
ويا أيُّها المذكورُ في كلّ مجلسٍ ... وذِكرُكَ في القرآنِ مَنْ ذا يُعادِلُهْ
وُلِدْتَ فعمَّ الخيرُ في الأرض كلّها ... وأشرقَ من نور النُّبُوَّةِ عاجِلُهْ
أضاءتْ قُصورُ الشّام وازدادَ نورُها ... وغيظَتْ أعاديه وَسُرَّتْ قوابِلُهْ

وسُرّتْ به الأمُّ الحنونُ بشاشةً   فطَوْرًا تُناغيهِ وطَورًا تُغازِلُهْ
وأبرهةُ الأحباشِ صُدَّ بفيلِهِ   وخابتْ مساعيهِ أُصيبَتْ مقاتِلُهْ
تواترتِ الأخبارُ تنقُلُ طُهرَهُ   ومن نبعِ إسماعيلَ فاضتْ جداوِلُهْ
فيا أيُّها المبعوثُ للنّاس رحمةً   وأنتَ سمِيُّ الحمدِ أنتَ مُماثِلُهْ
وأنتَ سليلُ النُّبلِ فرعًا ومَحتِدًا   ومنكَ صُدورُ الخيرِ تصفو مناهِلُهْ
وأيّدَكَ المولى بكلّ عجيبةٍ   وأسرى بك الهادي وتمّتْ فواضِلُهْ
وَصَلَّيْتَ بِالرُّسْلِ الكِرَامِ جَميعِهِمْ   وسُرَّ بك الأقصى وتاهتْ مداخِلُهْ
ورُقّيتَ علياءً تُصافِحُ نجمها   ووصّاكَ بالتّقوى وأنتَ تُقابِلُهْ
وأولاكَ بالقُرْبى بجانبِ عرشِهِ   وأكرِمْ بها نُعمى وأنتَ تُواصِلُهْ
وأنتَ الذي عزّتْ وبزّتْ خوارِقُهْ   وسالتْ على مرْأى الأنامِ أنامِلُهْ
وكثَّرْتَ قُوتَ القَوْمِ تبغي هناءهُم   وحنَّ إليكَ الجِذعُ تحبو مفاصِلُهْ
وخرَّ بعيرُ القومِ يثغو ويشتكي   شُجونًا بكتْ منها وأنّتْ محامِلُهْ
وشقَّ لكَ البَدْرَ المُنيرَ هدِيّةً   وكانتْ تُرى تعلو وتسمو منازِلُهْ
وسبّحَ في يُمناكَ كُومٌ من الحصى   وحيّاكَ وحشُ البَرِّ واهتَزَّ جاهِلُهْ

محوتَ بقايا الشّرِك طهّرْتَ بيتهُ   هزمتَ جُيوشَ الكُفرِ دُكّتْ معاقِلُهْ
وبشّرْتَ بالإسلامِ تبشيرَ راحمٍ   وهبّتْ رياحُ النّصرِ تزهو أيائِلُهْ
دعوتَ لدينِ اللهِ دعوةَ راشِدٍ   وطبّقتَ شرعَ اللهِ رفّتْ خمائِلُهْ
وسادتْ علومُ الشّرعِ فرضًا وسُنّةً   وشاعتْ دروبُ الخيرِ عمّت نوافِلُهْ
وأكرَمتَ ذا القُربى ويسّرْتَ أمرَهُ   وأثرى فقيرُ اليُتم واشتدَّ كاهِلُهْ
وعاملْتَ بالحُسنى وداويتَ جُرْحَهُمْ   وقلّتْ مآسي الدّهرِ غابتْ نوازِلُهْ
ألا أيُّها المعروفُ بالصّدقِ والتُّقى   وخُلْقُكَ محمودٌ حميدٌ شمائِلُهْ
ويا أيُّها الموسومُ بالصّفْحِ والرِّضى   وصفحُكَ يُملي خيرَ ما أنتَ فاعِلُهْ
ويا مَنْ تعالى ما يقولُ عن الهوى   ضميرُكَ يُملي حُسنَ ما أنتَ قائِلُهْ
وعدلُكَ عدلٌ لا تَكلّفُ فِعلَهُ   وإنصافُكَ المظلومَ لستَ تُجامِلُهْ
ورِفقُكَ بالمسكينِ طبْعٌ وخِلقةٌ   وأنتَ تُحِبُّ الرِّفقَ دومًا تُزاوِلُهْ
عفُوٌّ إذا ما الجاهلونَ تشاحنوا   حليمٌ إذا غرَّ اللّئيمَ تطاوُلُهْ
جوادٌ إذا شحَّ الأنامُ بمالهم   سخِيٌّ كريمٌ يُذهِبُ الفقرَ نائِلُهْ
رؤوفٌ وصولٌ للأقاربِ بِرُّهُ   يُصاحِبُهُ التّوفيقُ والدّينُ شاغِلُهْ

شُجاعٌ إذا الهيجاءُ نادتْ رجالَها ... ودودٌ جميلُ الخَلْقِ والخُلْقِ فاضِلُهْ
طهورٌ عفيفٌ سيرةً وسريرةً ... أشادَ بها أصحابُهُ وحلائلُهْ
وذاقَ مريرَ اليُتْمِ في حِجْرِ أمّهِ ... وأعجبَتِ الجَدَّ الودودَ مخايِلُهْ
أصابَ بني سعْدٍ بشائرُ خيرِهِ ... وثَجَّ سحابُ الخيرِ درَّتْ هواطِلُهْ
حباهُ بشَقِّ الصدرِ في زهْرِ عُمْرِهِ ... وشعّتْ أماراتُ الهُدى ودلائلُهْ
وعاشَ أمينًا صادِقًا كُلَّ دهرِهِ ... وشاقَ قُرَيْشًا فِعلُهُ وفعائلُهْ
وناداهُ جبريلُ المُقَرَّبُ نازلاً ... بأمْرِ حكيمٍ لا تُضاهى منازِلُهْ
أنِ اقرأ ورتِّلْ واهْدِ إنّكَ مُرسَلٌ ... وأنذرهم يومًا عظيمًا جلائلُهْ
وخاطِبْهُم بالذِّكرِ علِّمْهُمُ الهُدى ... وحذِّرْهُمُ الشّيطانَ ساءت حبائلُهْ
وأسمِعْهُمُ القرآنَ تسْعَدْ قلوبُهم ... هو العُرْوَةُ الوُثقى لمن كانَ يامُلُهْ
وداوِ بآياتِ الكتابِ جُروحَهم ... هُوَ البلسمُ الشّافي فمَنْ ذا يُجادِلُهْ
وبالسّنّةِ العصماءِ طمْئِنْ نفوسَهم ... فأنتَ السّراجُ الحقُّ تعلو مشاعِلُهْ
ويا أيّها المرفوعُ في الأرضِ ذكرُهُ ... أشادَ بكَ الباري فمَن ذا يُسائلُهْ
ويا أيُّها المنصورُ في كلِّ وجهةٍ ... وجيشُكَ جرّارٌ عظيمٌ جحافِلُهْ

نُصِرْتَ بجيشِ الرّعبِ في كلّ غزوةٍ ... وفُلّتْ فُلولُ الكفرِ فرّتْ قوافلُهْ
وأنتَ الذي حُزتَ الفصاحةَ كلّها ... وقولُكَ حُلْوٌ لا بيانَ يُنازِلُهْ
فصاحةُ أهلِ الفنّ مِلحٌ بُحورُها ... وبَحرُكَ عذبٌ قعرُهُ وسواحِلُهْ
أيا سيّدَ الخلقِ المُبَجّلِ أمرُهُ ... تقبَّلْ تحايا مَنْ أُثيرَتْ قلائلُهْ
فنحنُ بنو جيلٍ أضرّتْ به المُنى ... ومالتْ به الدُّنيا وضاقتْ وسائلُهْ
أضرَّ بنا دهرٌ وعضَّ بنابِهِ ... وفرّقَ قومي بُؤسُهُ وغوائلُهْ
توالى بنو صُهيونَ يُؤذون أهله ... فأينَ بنو ديني وأين بواسِلُهْ
شريعتنا غرّاءُ سمحٌ سبيلُها ... وقرآننا وضّاءُ شعّتْ صياقلُهْ
وسُنَّتُكَ العصماءُ تهدي طريقنا ... ونهجكَ نورٌ لا ضياءُ يماثلُهْ
فيا ربِّ أكرمنا ويسّرْ أمورنا ... فنحنُ بنو جيلٍ تسامت أوائلُهْ
ويا صاحبَ الحوضِ العميمِ تحيّةً ... فقلبي إلى رؤياكَ تغلي مراجِلُهْ
بمدحك يا حِبّي فؤادي مُتَيَّمٌ ... إليكم هفا شعري وغنّتْ زواجِلُهْ
وهذي صلاةٌ معْ سلامٍ يزُفُّهُ ... فؤادٌ مشوقٌ ساجمُ الدّمعِ هامِلُهْ

اللّـغـة العـربيّـة ودورها في كتابة تاريخ العلم... الرّياضيّات مثالًا

بقلم
مصطفى يعقوب عبد النّبيّ
كبير باحثين بهيئة المساحة الجيولوجيّة
(سابقًا)

يكاد المستشرقون ومؤرخو العلم من الغربيّين – عدا قلّة معدودة – يُجمعون على إسقاط دور العرب من تاريخ العلم الإنسانيّ، وأنّ العرب لم يتعدَّ دورهم في هذا المجال الاحتفاظ بتراث الإغريق عن طريق ترجمة مؤلّفات أعلام هذا التّراث في الفلسفة والمنطق والرّياضيّات والفكر ...إلخ. وقد كان لهم في هذا المنحى أساليب شتى وصِيَغٌ مختلفة، بحيث يظنُّ القارئ لأوّل وهلة أنّهم على حقّ، غير أنّ البحث والمراجعة والتّحقيق والتّدقيق سوف يُفضي في نهاية المطاف إلى نتيجة مؤدّاها أن تاريخ العلم مدين للعرب أكثر من أي شعب آخر، دون أن نجحد فضل اليونان والفرس والهنود، وهي الشعوب التي عكف العرب على ترجمة مؤلفاتها العلميّة إبان حركة التّرجمة في العصر العباسيّ. وقد يتعجّب الكثيرون من هذه النّتيجة، ولكن سرعان ما يزول العجب ويحلّ محلّه الإعجاب، عندما نسوق دليلًا دامغًا ليست به ذرّة من شكّ أو مجال للظّنّ والتّخمين، ومن العجيب أنّ هذا الدّليل ماثل أمام أعيننا كلما طالعنا مرجعًا في الرّياضيّات أو في الطّب أو في الفلك وغيرها من العلوم في لغاتها الأجنبيّة المختلفة، وهذا الدّليل هو مفردات اللّغة العربيّة ذاتها التي تسرّبت إلى اللاتينيّة ومنها إلى باقي اللّغات الأوروبيّة إبّان حركة التّرجمة التي حدثت في أوروبا إبّان عصر النّهضة الأوروبيّة وما قبلها، حيث عكف علماء أوروبا على ترجمة التّراث العلميّ العربيّ ممّا هو معروف ومشهور في هذا الشّأن.

ويمكن لنا – إنصافًا للحقيقة – أن نميّز بين نوعين من المفردات، الأوّل: مفردات تتعلّق بالبيئة والمناخ مثل أنواع النّباتات والحيوانات، التي تفرضها البيئة الجغرافيّة؛ فالنّباتات أو الحيوانات في البيئة الصّحراويّة حيث الحرارة والجفاف تختلف اختلافًا جوهريًّا عن النّباتات أو الحيوانات في أوروبا مثلا حيث البرودة وكثرة الأمطار، فتسرّب مفردة من مفردات اللّغة إلى لغة أخرى ليست بميزة للّغة الأولى، لأنّها وليدة البيئة فلا فضل للغة على أخرى في هذا المجال. الثّاني :إنَّ التّمايز والتّفاضل بين لغة وأخرى يأتي تعبيرًا وترجمانًا على الحياة العقليَّة والعلميَّة في الأقطار التي تسود فيها تلك اللّغة، ونعني بها المصطلحات العلميّة فهو الشّاهد العدل على مدى تفوّق هذه اللّغة على تلك باعتبارها وليدة جهد عقليّ، وليست وليدة ظروف بيئيّة أو مناخيّة، وذلك وفقًا لأدبيّات التّاريخ من سيطرة الغالب على المغلوب وأنّ المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب.

تسرّب المصطلحات العلميّة إلى أوروبا :

من المعروف أنّ الخلفاء في العصر العبّاسي – ولاسيّما الخليفة المأمون – قد اهتمّوا بجلب مؤلّفات اليونان والفرس والهنود، ومن ثمّ ترجمتها إلى العربيّة ، وقد بلغ المأمون في هذا الأمر حدًّا لا نظير له، فقد كان يعطي زنة ما يترجم من الكتاب من الذّهب مثلا بمثل حتّى كاد يفلس بيت المال، وصارت بغداد عاصمة الثّقافة والعلم في العالم كلّه وقتها. والشّيءُ نفسه فعله الخلفاء والأمراء في الأندلس، وعلى سبيل المثال فإنّ «عبد الرّحمن الثّاني قبل أن يتولّى الإمارة قد أوفد العالم القرطبيّ عباس بن ناصح على العراق، لكي يبحث له عن المؤلّفات العلميّة اليونانيّة والفارسيّة التي تُرجمت إلى اللّغة العربيّة ، وأن يقوم بنسخها له». كما أنّ سليله الحكم الثّاني وقبل أن يعتلي عرش الخلافة عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م كما يقول بروفنسال **Provencal** نقلا عن صاعد الطّليطليّ في كتابه «طبقات الأمم» : «هو الذي عمل على جلب المؤلّفات الهامّة النّادرة المتعلّقة بالعلوم القديمة والحديثة، من بغداد ومصر وأماكن أخرى في الشّرق، وجمع منها

في أواخر حكم أبيه وطيلة حكمه نفسه، عددًا يضاهي تقريبًا العدد الذي جمعه الخلفاء العبّاسيّون برمّتهم، وبهذه الطّريقة كوّن الحكَمُ الثّاني مكتبة هائلة في قصره بقرطبة تضمّ ما لا يقلّ عن أربع مئة ألف مجلّد، وسرعان ما أخذت الطّبقة الأرستقراطيّة في العاصمة تقلّد العاهل الأمويّ بإنشاء مكتبات فنيّة خاصّة بهم في قصورهم». ومعنى هذا أنّ التّراث الإنسانيّ كلّه - ولاسيما التّراث العلميّ منه والمكتوب بالعربيّة كان بين أيدي الأوروبيّين وفي القلب من بلادهم إبّان سقوط الخلافة الأمويّة في الأندلس فلم يتكلّفوا حلًا وترحالًا بحثًا عن كتب هنا أو هناك ولم يتكلّفوا – أيضًا – ذهبًا ولا مالًا، وعندها قامت أطول عمليّة ترجمة في التّاريخ من العربيّة إلى اللاتينيّة مباشرة، فقد استمرّت حركة ترجمة التّراث العربيّ بوجه عامّ من القرن الثّامن حتّى نهاية القرن الثّالث عشر الميلاديّ. والدّليل على ذلك أنّه قد أُنشئت المؤسّسات والمعاهد العلميّة بغرض ترجمة المؤلّفات العربيّة إلى اللاتينيّة، فضلًا عن نشاط الأفراد الذين عكفوا على مؤلّفات التّراث العربيّ بحثًا وترجمةً إلى اللاتينيّة، في محاولة منهم لفهم سر تقدّم العرب وارتقاء حضارتهم الزّاهرة بالقياس إلى أوروبا التي كانت تعيش وقتها في ظلام العصور الوسطى.

وعن ترجمة المؤلّفات العربيّة إلى اللاتينيّة يحدّثنا يوجين أ.مايرز **Eugene A. Myers** بقوله: «كانت التّرجمة في القرن الثّاني عشر في أوروبا من العربيّة إلى اللاتينيّة تفوق المنجزات الأخرى. وساعد نقل المعارف العربيّة إلى الغرب في تمهيد الطّريق لتأسيس الجامعات. فتأسّست في نهاية القرن الثّاني عشر جامعتا ساليرنو وبولوني في إيطاليا، وجامعتا باريس ومونبلييه في فرنسا، وأوكسفورد في إنجلترا».

وكان من جرّاء حركة التّرجمة النّشطة من العربيّة إلى اللاتينيّة أن كثُرت الألفاظ العربيّة التي تسرّبت بدورها إلى سائر اللغات الأوروبيّة، وفي هذا يقول ول ديورانت **W. Durant** في مؤلَّفه الشّهير «قصّة الحضارة»: «وقد أحدثت هذه التّراجم كلّها في أوروبا اللاتينيّة ثورة عظيمة الخطر، ذلك أنّ تدفّق النّصوص العلميّة من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر في استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سُباتهم. وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينيّة تؤدّي المعاني التي يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذي أدّى إلى دخول كثير من الألفاظ العربيّة في اللغات الأوروبيّة.

وبالفعل فقد لفتت كثرة الألفاظ العربيّة في اللغات الأوروبيّة أنظار بعض الباحثين فألّفوا المعاجم الخاصّة الدّالة على ورود الألفاظ العربيّة في هذه اللغة أو تلك، ومن أشهر المعاجم التي أوردت بعض الألفاظ العربيّة في اللغة الإنجليزيّة كتاب وولت تايلور **Walt Taylor** والذي عنوانه **ARABIC WORDS IN ENGLISH** الصّادر في سنة ١٩٣٣، ومن الطّريف أنّه قد أورد تاريخ كل لفظة عربيّة دخلت إلى الإنجليزيّة. ولعلّ مؤسّسة من المؤسّسات العلميّة والثّقافيّة وما أكثرها في أقطار الوطن العربيّ أن تعيد طبع هذا المعجم، وتوزيعه على مكتبات الجامعات العربيّة حتّى يستفيد منه ألوف الباحثين في التّراث العربيّ وتاريخ العلم، ولاسيما أنّ حقوق الملكيّة قد سقطت بطول المدّة التي حدّدها قانون حقوق الملكيّة الفكريّة.

وقد خَلص الأستاذ أنيس المقدسيّ باستقرائه لنسب تلك التّواريخ، إلى تقسيم دخول الألفاظ العربيّة إلى الإنجليزيّة إلى ثلاثة أدوار: قديم ومتوسّط ومتأخّر.

ففي الدّور القديم (١٠٥٠ - ١٢٥٠م) كان الدّاخل ٣ بالمائة.

وفي الدّور المتوسّط (١٢٥٠ - ١٤٥٠م) كان الداخل ١٤ بالمائة.

وفي الدور المتأخر (١٤٥٠ وما بعده) كان الدّاخل ٨٣ بالمائة وإذا قارنّا هذه التّواريخ بتواريخ الحروب الصّليبيّة التي استمرّت من سنة ١٠٥٩م، وهي السّنة التي بدأت فيها الحرب الصّليبيّة الأولى وحتّى سنة ١٢٠٤م، وهي السّنة التي شهدت نهاية الحرب الصّليبية الرّابعة، لأدركنا أنّنا حيال الدّور القديم الذي دخل إلى اللغة الإنجليزيّة ٣ بالمائة من مجموع الألفاظ العربيّة التي دخلت إلى الإنجليزية. وقد يدركنا العجب عندما نعلم أنّ هذه الثّلاثة بالمائة، إنّما تمثّل ألف لفظة عربيّة، كما جاء على لسان ول ديورانت، وهو يستعرض نتائج الحروب الصليبيّة، أنّه قد «دخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربيّة إلى اللغات الأوروبيّة».

إذن فقد قضي الأمر واستقرّت المصطلحات العلميّة العربيّة في اللاتينيّة، وتسلّلت منها إلى باقي لغات العالم وهي دليل على التّفوّق العربيّ في مجال العلوم، وأنّ العالم مدين بعلمه إلى معلّمه الأوّل – أي العرب – الذين أخذت عنهم، وأسّس عليها ما نحن فيه من تقدّم علميّ بدليل تلك المصطلحات العلميّة التي تشيع في مراجع العلوم المختلفة.

وفيما يلي طائفة من الشّواهد الحيّة تصحيحًا لأخطاء شتّى في تاريخ العلم، علمًا بأنّنا سوف نتجنّب الحديث عن الآراء والأفكار والنّظريّات العلميّة المبتكرة وغير المسبوقة، فهذا أمر قد أفاض فيه من أفاض من الباحثين عربًا وغير عرب، ولكنّنا سوف نركّز على عروبة المصطلحات العلميّة فقط.

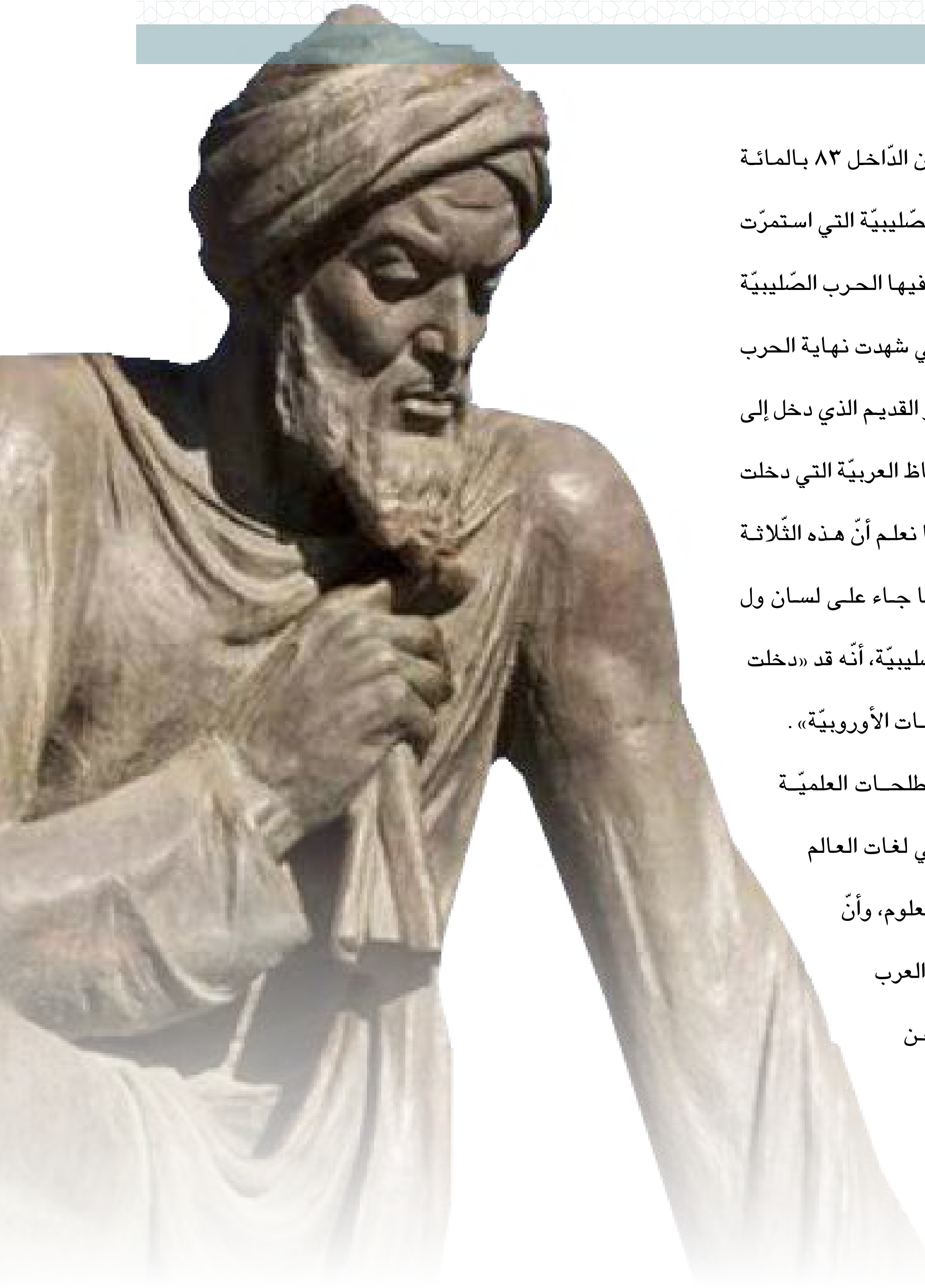

عندما تتحدّث الرّياضيّات بالعربيّة:

من الآراء المستقرّة في مؤلّفات تاريخ العلم الذي كتبه المؤرّخون الغربيّون: أنّ الرّياضيّات هي عنوان المعجزة اليونانيّة – على حدّ وصفهم – وأنّ العالم مدين لليونان في هذا الشّأن، غير أنّ حقائق التّاريخ ووثائقه – دون أن نجحد فضل اليونان في

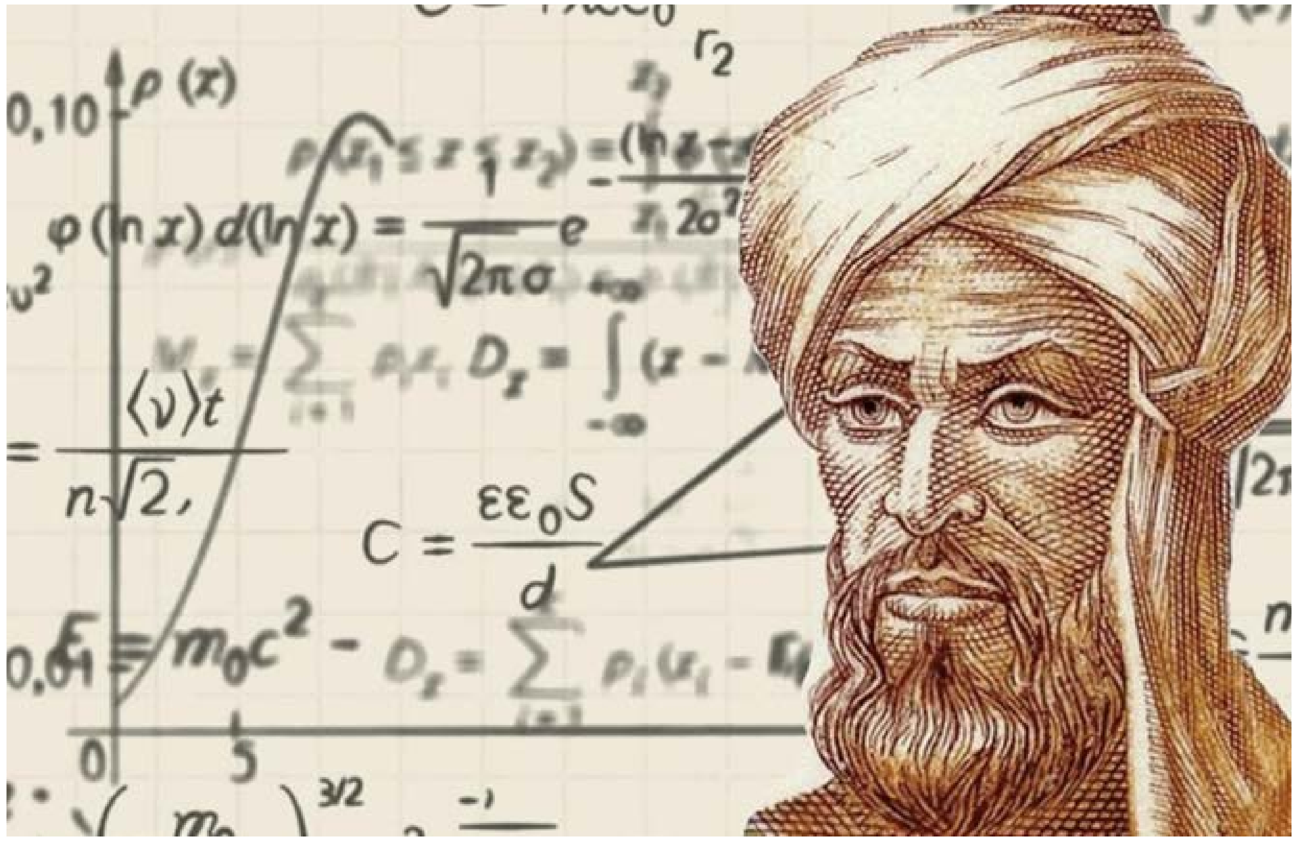

الرّياضيّات ــ قد أوضحت أنّ عددًا من مفردات اللغة العربيّة قد سيطرت على الرّياضيّات في اللغات الأجنبيّة المختلفة دليلًا على تفوّق العلم العربيّ منذ عصر النّهضة وحتّى الآن دون أن تتغلّب عليها لغة أخرى، ولعلّنا لا نجاوز الصّواب إن قلنا إنّ الرّياضيّات عربيّة الأصل إلّا قليلًا. فبالإضافة إلى ما أقرّه لفيف كبير من مؤرّخي العلم من فضل العرب في الرّياضيّات، سواء في استحداثهم لعدد من العلوم الرّياضيّة التي استحدثها العلماء العرب، أو الآراء المبتكرة والنّظريّات غير المسبوقة، فإنّنا نعتقد أنّ هناك ثلاثة أمور، كلٌّ منها يُعَدّ في حدّ ذاته ثورة علميّة عربيّة الأصل حرفًا ولفظًا ومعنى، وكلّ منها ذات شأن كبير في تاريخ الرّياضيّات، والدّليل على ذلك الأمور التّالية:

الأمر الأوّل: اختراع «الصّفر»:

وهو الاختراع الذي عرفه العالم كلّه عن طريق العرب. فلم يحدث للعلم في تاريخه الطّويل أنّ مصطلحًا علميًّا ذاع وشاع وانتشر، في أدبيّات العلوم والآداب المختلفة بل وتعدّى انتشاره ليتغلغل في مناحي الحياة مثل «الصّفر» الذي ينطق بعروبته في كلّ اللغات المختلفة، فـ«الصّفر» هو واحد من أشهر المصطلحات العلميّة العربيّة الأصل إن لم يكن الأشهر على الإطلاق، حرفًا ولفظًا ومعنى، وأكثرها دورانًا على الألسنة وتداولًا في مؤلّفات العلم وأدبيّاته فضلًا عن انتشارِه في كلّ سطر مقروء وكلّ كلمة مسموعة في كلّ لُغات العالم بأسره. يقول جوان فرنيه J.Vernet قائلًا : « والمعروف أنّ لفظة سيفر Cipher، وتعني الرّقم بالإنجليزيّة، إنّما اشتق أصلًا من الصّفر العربيّة، وكانوا يرسمونه على هيئة حلقة في داخلها فراغ، وهو شكل أصبح يدلّ على الصّفر لدى الغرب».

ولعلّ تاريخ الرّياضيّات لم يعرف ثورة مثلما أحدثه «الصّفر» من ثورة كبرى في تاريخ العلم بوجه عام وتاريخ الرّياضيّات بوجه أخصّ؛ فلولاه لما تقدّمت فروع الرّياضيّات تقدّمها المشهود ولما تقدّمت المدنيّة على النّحو الذي نشهده الآن في عصر الحاسوب (الكمبيوتر). وعن الصّفر يقول الدّكتور عبد الله الدّفاع: «ابتكر المسلمون مفهوم الصّفر الذي سهّل العمليّات الحسابيّة تسهيلًا لا حدود له. ويعتبر الرّياضيّون أعظم اختراع وصلت إليه البشريّة، والذي يؤكّد أنّ المسلمين هم الذين ابتدعوا الصّفر هو استعمالهم له في أول مرة عام ٨٧٣م، على حين لم يستعمله الهنود إلا في عام ٨٧٩م. والجدير بالذّكر أنّ أوروبا ظلّت تتردّد طيلة ٢٥٠ سنة قبل أن تقبل مفهوم الصّفر رغم فوائده الجمّة، واستمرّت إلى القرن الثّاني عشر في استعمالها الأعداد الرّومانيّة البالية، وحاولت بكلّ جهدها أنْ تبتعد عن استخدام الأرقام العربيّة بصفرها، حتّى فرضت هذه نفسها لتفوّقها الكبير على كلّ الأرقام الأخرى». ولعلّ جاك ريسلر J. Ressler كان محقًّا في قوله: «إن الصّفر كان يُعدُّ من بين أهمّ فتوح الجنس البشريّ».

وبعيدًا عن اللفظة ذاتها - أي الصّفر - التي وجدت طريقها إلى كلّ لغات العالم قاطبة دالّة دلالة صارخة على أصلها العربيّ، وبعيدًا عمّا أحدثه الصّفر من ثورة علميّة في ميادين شتّى من العلم، وبعيدًا عن هذا وذاك فإنّ لوجود الصّفر معنى آخر وهو؛ قدرة اللغة العربيّة على استنباط المصطلحات العلميّة من معجمها اللغويّ كدليل لا يقبل الشّكّ في أهليّتها لأن تكون لغة للعلم.

الأمر الثّاني: الجبر واللوغاريتمات:

إذا كان الصّفر قد تعدّى أقصى الحدود لمصطلح ما ليكون القاسم المشترك الأعظم في شتّى مناحي الحياة، فإنّ هناك مصطلحين عربيين آخرين من أشهر المصطلحات العربيّة وأكثرها انتشارًا في الرّياضيّات، وإلى حدٍّ ما في غير الرّياضيّات من العلوم وهما: الجبر **Algebra** واللوغاريتمات **Logarithm**، وعن الجبر يروي لنا أحدُ مؤرّخي الرّياضيّات قصّة هذا المصطلح قائلًا: «لقد كتب الرّياضيّ العربيّ الخوارزميّ كتابًا في حلّ المعادلات وجعل له عنوان «الجبر والمقابلة». ولقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينيّة تحت عنوان مدرسة الجبر والمقابلة»، وبالتّدريج اختصر هذا العنوان الغريب إلى الكلمة الدّارجة «الجبر»وبذلك حلّت الكلمة العربيّة **Algebra** محلّ الكلمة اليونانيّة **Arithmetic** .

أمّا اللوغاريتمات فتعدّ من أهمّ الأسس الرّياضيّة، وهي مشتقّة من اسم العالم العربيّ الكبير الخوارزميّ، يقول مؤرّخ العلم جوان فرنيه: «الخوارزميّ يعتبر أوّل ريّاضي مسلم كبير. ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجيّ باللغة العربيّة الذي يعني التّرقيم (أي الأعداد ومنازلها والصّفر) كما ندين له باللفظ **Alogarith**، وهو مشتق من اسم الخوارزميّ كما ورد في التّرجمة لمصنّفه المعروف باسم «كتاب الخوارزميّ» .

الأمر الثّالث: الرّموز الرّياضيّة:

لا يستطيع أحدٌ أن يتخيّل كيف يكون حال العلوم بوجه عامّ والرّياضيّات بوجه أخصّ لو لم تكن الرّموز الرّياضيّة موجودة، وكم من الزمن سيتأخّر ركب العلم في حال عدم وجود تلك الرموز، والتي وجدت طريقها إلى سائر العلوم المتعلقة بالرّياضيّات كالفيزياء والفلك، فممّا لا شكّ فيه أنّ استخدامها يعدّ من فتوحات

العلم الكبرى فهي من أهمّ الملامح الأساسيّة في تقدّم الرّياضيّات، وقد نتعجب أشدّ العجب عندما نعلم أنّ ما تنعم به البشريّة من تقدّم علميّ عماده الرّموز الرّياضيّة إنما هو اختراع عربيّ أصيل. تقول المستشرقة الألمانيّة زجريد هونكه **Z.Honke**: «إنّ علم الجبر لا يزال حتّى هذا اليوم يحتفظ بطابع عربيّ يتجلّى في الـ **"X"** التي نضعها رمزًا للمجهول في معادلة ما. ثمّ أنّ هذا الحرف **"X"** الذي يليه حرفًا **"Y"** و **"Z"** كرموز للمجهول في المعادلات. لقد سمّى العرب كلّ شيء مجهول يقصد البحث عنه في المعادلات بـ «الشّيء» ومختصر الشّيء هو «ش» الذي يعادل صوتيًّا حرف الـ **"X"** في الأسبانيّة القديمة. إنّنا ما زلنا حتّى هذه الأيّام نتلقّى، ونحن صغار في المدرسة، دروسًا عن كيفيّة استعمال «الشّيء» العربيّ في الحسابات».

من أشهر الرّموز وأكثرها تداولًا في المعادلات الرّياضيّة علامة الجذر √، ويتعجّب البعض عندما يعرف أنّ هذه العلامة بمعناها وشكلها إنّما هي عربيّة الأصل. يقول قدري حافظ طوقان: «واستعمل العلماء العرب بعد الخوارزميّ الرّموز في الأعمال الرّياضيّة، وسبقوا الغربيّين في هذا المضمار، ومن يتصفّح مؤلّفات القلصاديّ يتبيّن له صحّة ما ذهبنا إليه، فلقد استُعمل لعلامة الجذر الحرف الأوّل من كلمة جذر (جـ) أي ما يقابلها √» . ولا شكّ أنّ الحقّ فيما قاله طوقان لأنّ الكثير من مؤلّفات التّراث العربيّ قد شهدت نوعًا من الرّموز التي تُمثّل الاختصارات في الألفاظ الدّالة على قصد المؤلّف، وعلى سبيل المثال فإنّ الفيروزاباديّ قد صنع شيئًا من الاختصارات وشرحها في معجمه الشّهير «القاموس المحيط» مثل : «ج» أيّ جمع، و«م» أي معروف، و«ع» أي موضع و«د» أي بلدة ...الخ . كما شاع عند القدماء اختصار بعض العبارات، كاختصارهم «حدّثنا» في: «ثنا» أو «نا»، و«أخبرنا» في: «أنا»، و «حدثني» في: «ثني» ونحو ذلك .

إذن فعلامة الجذر مشتقّة من حرف « جـ » العربيّة شكلًا ومعنى.

الأمر الرّابع: الأرقام أو الأعداد العربيّة:

إنّ العالم كلّه شرقه وغربه - عدا دول قليلة للغاية من بينها مصر وبعض الدّول العربيّة في المشرق - تستعمل ما يُعرف في العالم كلّه بـ «الأرقام العربيّة» **Arabic Numbers**، ولأنّ الحضارة البشريّة لا تستغني عن الأرقام بحال من الأحوال، فإنّ الحضارة هنا مدينة للعرب بقسط كبير منها فعلى أسس من العلم العربيّ قد أرست الحضارة البشريّة قوائمها التي نشهدها الآن. وعلى الرّغم من الجدل المثار في تاريخ العلم في أنّ العرب قد اقتبسوا هذه الأرقام من الهنود، إلّا أنّها قد عرفت في أرجاء العالم كلّه باسم «الأرقام العربيّة» لأنّ أوروبا قد عرفت هذه الأرقام عن طريق العرب. ولعل الدّكتور قاسم علي سعد قد وضع الأمور في نصابها عندما أوضح في كتابه الشّائق «الأرقام العربيّة ...تاريخها وأصالتها» فقد خلص بعد أن استعرض في فصول كتابه رأي الباحثين ومؤرّخي العلم عربًا وغير عرب بأنّ: « الأرقام في أوروبا وغيرها من النّواحي» عربيّة النّجار أوروبيّة الدّثار» وقد كان الأوروبّيّون يستخدمون الأرقام الرّومانيّة المعقّدة والطّويلة، فأيّ ثورة علميّة تلك التي أدخلها العرب في الرّياضيّات، وما أدراك ما الرّياضيّات التي دخلت في كلّ علم. وعلى هذا فليس من الغريب على مؤرّخ مثل هوبر أن يعترف بفضل العرب في الرّياضيّات ويقول : « شكراً للعرب الذين جلبوا الحكمة إلى أوروبا التي كانت غارقة في الجهل والتخلف .أدخل العرب الطريقة الجديدة الثورية في كتابة الأعداد، هذه الطّريقة التي مهّدت السّبيل لما يعرفه العالم الحديث في الهندسة والطّيران».

خاتمة:

قد يبدو لأول وهلة أنّ البحث في أصول الألفاظ، إنّما هو ضرب من التّرف العقليّ الذي برع فيه الأكاديميّون والباحثون في اللغات المقارنة، غير أنّ الحقيقة لها وجهها الآخر غير المنظور، وهذا الوجه هو المجهول في تاريخ العلم. أعني التّعتيم على إبداع العلماء العرب غير المسبوق وآرائهم المبتكرة التي انتحلها جمع من علماء ما يسمى بعصر النهضة. ولعلّ الأمل يحدونا جميعًا في أن تتبنّى مؤسّسة ثقافيّة أو علميّة من المؤسسات التي تزخر بها أقطار الوطن العربيّ شرقًا وغربًا، جمع الألفاظ العربيّة أو المعرّبة التي عرفت طريقها إلى لغات العالم في معجم شامل لألفاظ كلّ علم وفنّ كدليل حيّ لا يقبل التّشكيك فيه في دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة في بناء الحضارة البشريّة، وقد كانت لكاتب هذه السّطور مشاركة متواضعة في جمع عدد من الألفاظ العربيّة والمعرّبة من أسماء المعادن التي وجدت طريقها إلى لغات العالم، دون أن يدرك طلبة علم المعادن - عربًا وغير عرب - أنّها عربية لحمًا ودمًا.

إنّها دعوة لعلّها تلقى مجيبًا .....

تصنيف علوم اللغة العربيّة في فكر علماء اللغة القدماء

بقلم د. عماد زاهي ذيب نعامنة

علومُ اللِّسانِ أَدَبًا ولُغَةً مُتَفَرِّعةٌ مُتشعّبةٌ، جعلَها ابنُ الأنباريِّ ثمانية:«النّحو، واللّغة، والتّصريف، والعَروض، والقوافي، وصنعة الشِّعْرِ، وأخبار العرب وأنسابهم، وأضافَ إليها عِلْمَين آخرَين من لَّدُنْهُ، هُما: عِلْمُ الجَدَلِ في النَّحو، وعِلْمِ أُصولِ النَّحو»[1].

وتناولَ علماءُ العربيّةِ القُدَماءُ دراسةَ اللُّغةِ العربيَّةِ أصواتًا ونَحْوًا وصَرْفًا ودلالةً دراسةً مُتكاملةً في آنٍ معًا، فَهَذا كتابُ سيبويه الّذي يُعَدُّ خلاصةَ الفكرِ اللُّغويِّ للرَّعيلِ الأوَّلِ مِنْ عُلَمائنا، نَجِدُهُ قد اشتَمَلَ على النَّحوِ بِمَعناهُ الواسع، فَحَوى علومَ اللُّغةِ العربيَّةِ: نحوَها وصرفَها وصوتَها ودلالتَها، فقد« ضَمّ كتابُ سيبويه–وهو وِفْقَ تصنيفِ الكتبِ العربيّةِ كتابٌ في النَّحوِ – دراساتٍ في بِناءِ الجُملةِ، وبناءِ الكلمةِ والأصواتِ»[2]، وسارَ على نَهْجِهِ طائفةٌ مِنْ علماءِ اللُّغةِ مِنْ بَعدِهِ.

وقَدِ استخدَمَ عُلَماؤنا القدماءُ في مرحلةٍ مُبكِّرةٍ مُصطلحاتٍ مُتعدِّدةً؛ للدَّلالةِ على دراسةِ علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، مِثْلَ: العربيَّةِ، وعِلْمِ العربيَّةِ؛ والمجازِ، وغيرِها، في الوقتِ الّذي كانَ النَّحوُ ما يَزالُ يعني العربيَّةَ بِمَعناهُ العامّ مِنْ إعرابٍ وصَرْفٍ وأصواتٍ وبلاغةٍ، وغيرِ ذلكَ[3]. فَعُنوا بِدِراسةِ اللُّغةِ دراسةً علميَّةً شموليَّةً مُتَكاملةً، ولَمْ يَتَخصَّصِ النّحوُ بِمَفهومِنا له في أيّامِنا هذه، عِلْمًا قائمًا بِذاته له قواعدُه وضوابطُه وحدودُه واصطلاحاتُه وأَقْيِستُه الخاصَّةُ بهِ إلّا في وقتٍ متأخِّرٍ، حيثُ رُوِيَ أنَّ عبدَ الله بن أبي إسحاقٍ الحَضرميِّ «أوَّلُ مَنْ بَعَّجَ النَّحوَ ومَدَّ القِياسَ وشَرَحَ العِلَلَ»، وذلك في أثناءِ رَدِّهِ على سؤالِ يونُس بنَ حبيبٍ: «هَلْ يقولُ أَحَدُ: الصّويْق؟ بِمَعنى السّويْق، قالَ له: نعم، عَمْرو بن تَميم تَقولُها، وما تُريدُ إلى هذا؟ عليكَ بِبابِ مِنَ النَّحوِ يَطَّردُ ويَنقاسُ»[4]. ومع ذلك نُقِلَ عن القُدَماءِ ما يدلُّ على أَنّ النَّحوَ العِلْمَ الّذي نعهدُهُ، مقصودُهم بالعربيَّة، إِذْ نَصّ ابن سلّام الجُمَحيّ – في إحدى الرِّوايات– على «أَنّ أَوّلَ مَنْ أَسَّسَ العربيَّةَ، وفَتَحَ بابَها، وأَنْهَجَ سبيلَها ووَضعَ قياسَها أبو الأسود الدُّؤليّ»[5].

وحرصَ كثير مِنْ عُلَماءِ العربيَّة القُدَماء على دَمْج علومِ العربيَّةِ، ولا سيَّما النَّحو والصَّرف معًا، فكان النَّحو والصَّرف في قرَن حتّى وقتٍ متأخِّرٍ، وغالبًا ما يَسبِقُ النَّحوُّ الصَّرفَ في تآليفهم، وهذا يدلُّ على وعيِهم بأهميَّة علم الصَّرف وعلاقته بِعِلْمِ النَّحوِ على وجه الخصوص، فقدَّموه تأصيليًّا على علم النَّحو، ولكنَّهم أخَّروه تعليميًّا؛ لإدراكِهم صعوبتَهُ وغُموضَ بعض مسائله على النَّشء[6]؛ لذا فإنَّك «لا تَكادُ تَجِدُ كتابًا في النَّحو إلّا والتّصريف في آخره»[7]، وخرَجَ على هذا المنهج بعضُ علماءِ العربيّةِ فيما بعد، مِنْ مثل أبي حيّان الأندلسيّ؛ فَقَدْ قدَّم الصَّرف على النَّحو، وهذا بادٍ بِجَلاء في كتابه (ارتشاف الضَّرَب مِنْ لسان العرب) ولا سيَّما أنّ أبا حيّان نصَّ على ذلك في مقدّمة كتابه، في معرِض بيانِه موضوعَ كتابِه، إذْ قال: «وحصرتُه في جُمْلتَين: الأولى في

(١) ابن الأنباري، كمال الدين. نزهة الألباء في طبقة الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط٢، ١٩٨٥م،٧٦/١.

(٢) حجازي، محمود فهمي. علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م ، ص ١، وانظر أيضًا: بشر كمال، دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، ١٩٧١م، ص ٢٣.

(٣) القوزي، عوض. المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى القرن الثالث الهجري، منشورات جامعة الرياض، السعودية، ط١، ١٩٨١، ص ١٦

(٤) الجمحيّ، ابن سلّام. طبقات فحول الشعراء، مصدر سابق، ج١/١٤، وانظر أيضًا: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م، ص٣٢.

(٥) الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، مصدر سابق، ج١/١٢. وقيل: نصر بن عاصم، وقيل عبد الرحمن بن هرمز، وقيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. للوقوف على تعدد الروايات في ذلك، انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، مصدر سابق، ص١١، والقفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب والوثائق الوطنية، القاهرة، ط٣، د.ت، ج١٧٢/٢.

(٦) العمايرة، إسماعيل أحمد، بحوث في الاستشراق واللغة، دار البشير، عمان، الأردن، ومؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ص ٧٦.

(٧) ابن جني، المنصف، شرح تصريف المازني، مصدر سابق، ٤/١.

أحكام الكَلِمِ قبل التَّركيب، والثّانية في أحكامِها حالَ التَّركيب»[8].

وافتتح –أيضًا– أبو الفضل أحمد بن محمَّد الميدانيّ بِعِلْمِ الصَّرف كتابَه (نزهة الطّرف في علم الصّرف)، ثمَّ تَلاهُ بِعُلومِ اللُّغةِ الأُخرى؛ لأنّه عدَّه مدخلًا لِعُلومِ اللُّغةِ ومِهادًا للشُّروعِ في بيانِها، فَبِهِ:« تُعرَفُ سَعَةُ كلامِ العرب، ومنه يُتَدَرَّجُ إلى اللُّغة العربيّة»[9].

(٨) الأندلسيّ، أبو حيان، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان محمد، مراجعة رمضان عبد التواب، مصدر سابق، ص ٤، وانظر: أبو حيان النحوي الأندلسي ومنهجه في كتاب ارتشاف الضرب من لسان العرب، مزيد إسماعيل، مجلة التراث العربي- مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب- دمشق، العددان ١٣و١٤ - السنة الرابعة - محرم وربيع الثاني ١٤٠٤ه.

(٩) الميدانيّ، أبو الفضل أحمد بن محمد، نزهة الطرف في علم الصرف، مطبعة الجوائب، قسطنطينة، ط١، ١٢٩٩م، ص ٤.

وكان حَرِيًّا أَنْ يتقدّمَ الصَّرفُ على النَّحوِ؛ لأَنَّ الصَّرفَ يتعلَّقُ بالبِنية، أمّا النَّحو فَمُتعلِّقٌ بالتَّركيب، والبِنية سابقةٌ « بِطَبيعةِ الحالِ» التَّركيبَ، إلّا أنّ تأخيرَ الصَّرفِ كانَ له أسبابُه، ذكَرها القُدماءُ، إذْ قال ابن جنّيّ: «مِنَ الواجبِ على مَنْ أرادَ معرفةَ النَّحو أَنْ يبدأَ بِمَعرفةِ التَّصريف؛ لأَنَّ معرفة ذات الشّيء الثّابتة ينبغي أَنْ يكون أصلًا لِمَعرفةِ حالهِ المتنقِّلة، إلّا أَنَّ هذا الضَّربَ مِنَ العِلْمِ لمّا كان عويصًا صعبًا بُدئَ قبلَهُ بِمَعرفةِ النَّحوِ، ثُمَّ جيءَ به بَعْدُ، ليكونَ الارتياضُ في النَّحوِ موطِّئًا للدُّخولِ فيه، ومُعينًا على معرفةِ أغراضِهِ ومَعانيهِ، وعلى تَصرُّف الحال»[10]. واتّفقَ ابنُ عصفور مع ابن جنِّيّ في ذلك، حيثُ قالَ في مُمْتِعِه: «وقد كانَ يَنْبَغي أَنْ يَتَقدَّم عِلْمُ التَّصريفِ على غيرِهِ مِنْ علومِ العربيَّة؛ إِذْ هو معرفةُ ذَواتِ الكَلِم في أَنْفُسِها مِنْ غيرِ تركيب. ومعرفةُ الشّيء في نفْسِهِ قبل أَنْ يتركّبَ ينبغي أَنْ يكونَ مُقدَّمًا على معرفةِ أحوالِهِ الّتي تكونُ بعدَ التَّركيب، إلّا أنَّه أُخِّر لِلُطْفِه ودِقَّتِه، فَجُعِلَ ما قُدِّمَ عليه مِنْ ذِكْرِ العواملِ توطِئةً له، حتّى لا يَصِلَ إليه الطّالب، إلّا وهو قد تدرَّب وارتاضَ للقياس»[11].

(١٠) ابن جني، المنصف شرح كتاب التصريف للمازني، مصدر سابق، ج١/ ٤-٥.

وتابعَهُما السّيوطيّ في ذلك قائلًا: «وقدَّمتُ النَّحو على التَّصريف، وإِنْ كان اللّائقُ بالوضعِ العكس، إِذْ معرفة الذّوات أقدمُ من معرفة الطَّوارئ والعوارض؛ لأَنَّ الحاجة إليه أهمّ»[12].

فَمِنَ المؤكَّدِ أَنَّ عُلَماءنا القدماء نظروا إلى الصَّرف على أنّه قِسْمٌ مِنْ أقسام النَّحوِ، ومِنْهُ قولُ أبي عليّ الفارسيّ: «النّحو...يَنْقسمُ إلى قِسْمَين: أحدُهُما تغيُّرٌ يلحَقُ أواخرَ الكَلِمِ، والآخرُ يلحَقُ ذواتَ الكَلِمِ

(١١) ابن عصفور، الممتع الكبير في التصريف، مصدر سابق، ج١/ ٣٠ -٣١.

(١٢) السيوطي، جلال الدين، إتمام الدراية لقرّاء النّقاية، ضبطه وكتب حواشيه الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٥.

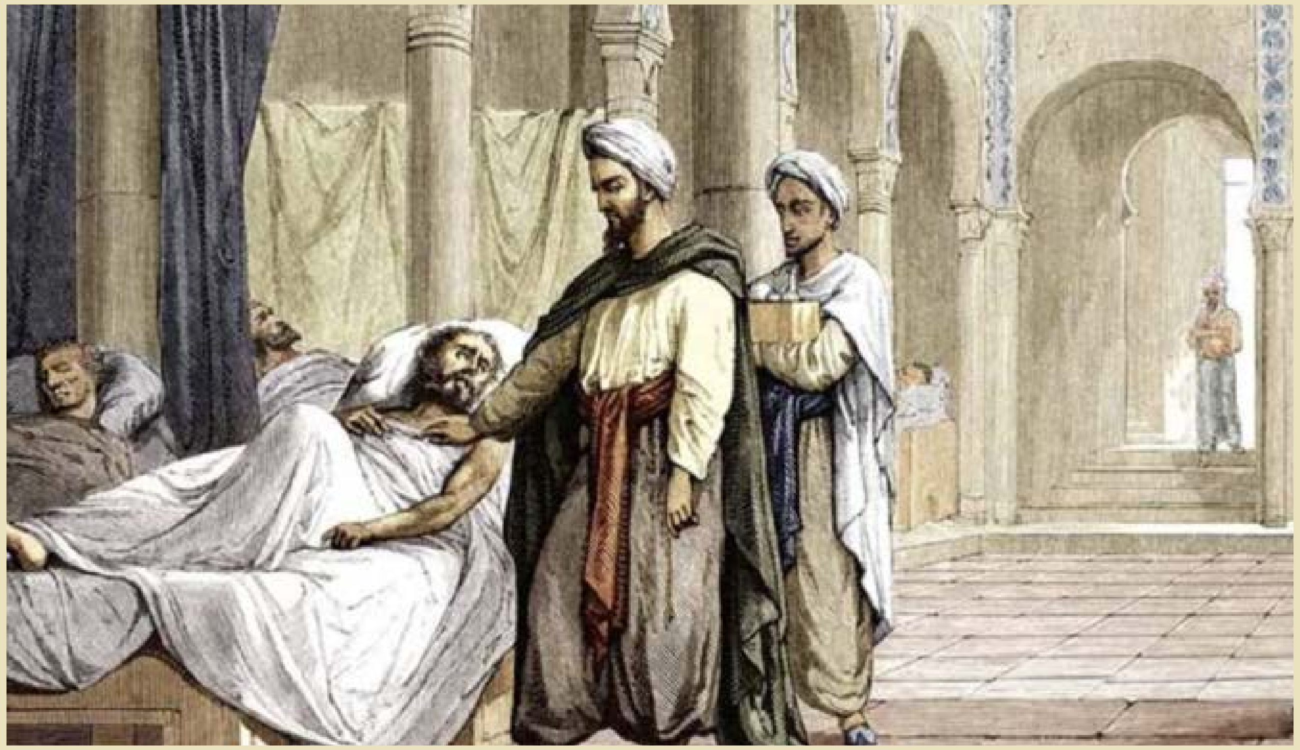

وأنفسَها»[١٣]، وإلى مِثْلِ ذلك ذَهَبَ الأستراباذيّ، فَذَكَرَ أنَّ علماءَ العربيَّة مُتَّفقون على أنَّ «التَّصريفَ جزء لا يتجزَّأُ مِنَ النَّحو، بلا خِلافٍ بين أهلِ الصِّناعة»[١٤].

وثمَّةَ مُؤلَّفات لم تَعْتَمِدْ إحلالَ الصَّرف قبل النَّحو أو النَّحو قَبْلَه، وإنَّما تداخلَتْ فيها الأبوابُ الصَّرفيَّةُ والنَّحويَّةُ والصَّوتيَّة معًا، مِنْ ذلك «مثلًا» ما نَلْحظُهُ في كتابِ الجُمَل للزَّجَاجيّ: فالبابُ الأوَّلُ منه في الإعراب وعلاماته، في حين أنَّ البابَ الرَّابع في التَّثنية والجمع، وهو بابٌ صرفيّ، ثُمَّ يعود إلى الحديث عن التَّوابع، وهو بابٌ نحويّ، ثُمَّ ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأفعالِ المُتعدِّية وغيرِ المُتعدّية ... وهكذا[١٥].

ولا يعني تقديمُ عِلْمٍ مِنْ علومِ العربيَّةِ على الآخر أنَّه أَهَمُّ مِنْ غيره، أو أَنَّ غيرَهُ دونَه؛ إِذْ ليسَ التَّرتيبُ بين هذهِ العلومِ ترتيبَ أهميَّةٍ أو أفضليَّة، إنَّما هو ترتيبٌ يقتضيهِ منطقُ الأشياءِ وتَسَلْسُلُها والتَّدرُّجُ في بنائها[١٦]. وفي مرحلةٍ لاحقةٍ أصبحَ الصَّرفُ قسيمًا للنَّحو، لا قِسْمًا منه، وأُفْرِدَ في مُصنَّفاتٍ مُستقِلَّةٍ به، تحت مُسَمَّى الصَّرف حينًا والتَّصريف حينًا آخر، ولعلَّ كتابَ المازنيّ (التَّصريف) أوَّلَ مَنْ خصَّصَ كتابًا يبحثُ في عِلْمِ التَّصريف بحثًا مستقلًّا، كما عُدَّ ابنُ جنّيّ أوَّلَ مَنْ أفردَ لِعلْمِ الأصواتِ مُصنَّفًا مُستقلًّا بوَصْفه علمًا قائمًا بذاتِه في كتابِه سرّ صناعةِ الإعراب[١٧]. ومع ذلك فإنَّ كلَّ عِلْمٍ من علوم العربيّة متعلِّقٌ بالآخر بِطَرَف. وأجادَ القلقشنديّ في وصفِهِ العلاقةَ بين عُلومِ اللُّغةِ، بما قاله على لسان النَّحو مُخاطِبًا الصَّرف: « وهلْ أنتَ إلا بضعةٌ منّي، تَستَنِدُ إليَّ وتَنْقُلُ عَنّي؟ لَمْ يَزَلْ عِلمُكَ بابًا مِنْ جُملتي، داخلًا في حسابي، حتّى ميَّزكَ المازنيُّ، فأفردَكَ بالتَّصنيف، وتلاه ابن جنّي، فتبِعَهُ في التَّأليف، واقتصرَ ابن مالك مِنْكَ في تعريفِه على الضَّروريِّ الواجب، وأَحَسَّ بك ابنُ الحاجب في شافِيَتِه فَرَفَعَ عنكَ الحاجِب، وأنتَ مع ذلك كلِّه مَطْوِيٌّ ضِمْنَ كُتُبي، نَسَبُك متَّصلٌ بِنَسَبي، وحَسَبُكَ لاحِقٌ بِحَسَبي»[١٨]. بدا جَليًّا ممَّا سَبَقَ تَعَدُّدُ مواقفِ عُلماءِ العربيَّةِ القدماءِ في تبويبِ علومِ العربيَّةِ في مُصنَّفاتِهم اللُّغويّة، فَمِنهم مَنْ أفردَ عِلْمًا مِنْ علومِ العربيَّةِ في مُصنَّفٍ مُستَقِلٍّ به، وآخر قرَنَ تلك العلوم جميعها معًا، والأمر ذاتُه نَجِدُهُ في الفِكْرِ اللِّسانيِّ لدى عُلماءِ اللُّغة المعاصرين، فبعضهم أفْرَدَ كلَّ عِلْمٍ مِنَ العلومِ اللِّسانيَّة في مُصنَّفٍ واحد، وآخرونَ جَعَلوا الصَّرفَ والنَّحو في قرَن، وليس مِنْ مقاصِدِ البحثِ تَجْليةُ هذا الأمر لديهم؛ إِذْ يَسْتَأهِلُ هذه المسألةَ دراسة مستقلَّة للكشف عَنْ فكرهم اللِّسانيّين المعاصرين في تبويبِ علومِ العربيَّةِ في تآليفهم، نرجو اللهَ أنْ يُمكِّننا مِنْ تحبيرِ ذلكَ في عددٍ قادمٍ مِنْ مجلَّتِنا الغرّاء (العربيَّة لساني).

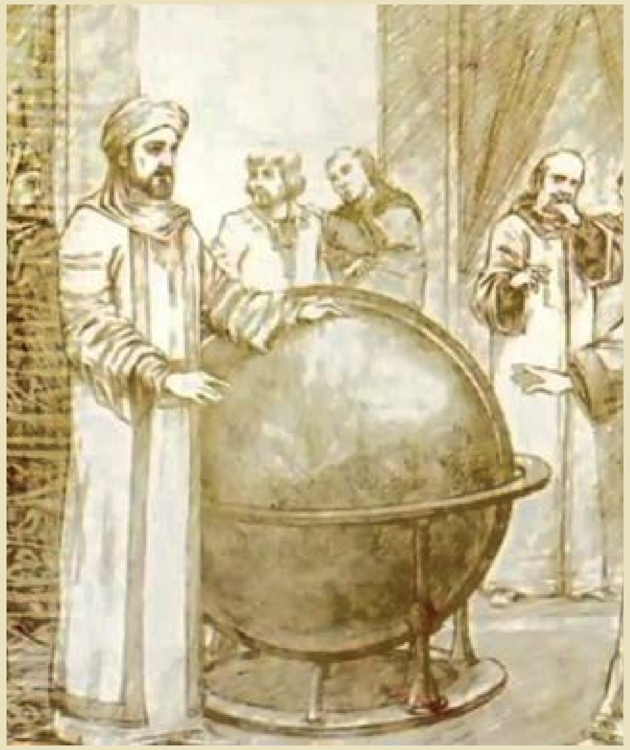

(١٣) الفارسي، أبو علي، التكملة، تحقيق د. حسن شادلي فرهود، الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د. ط،١٩٨٤م، ص٣.

(١٤) الأستراباذي، رضي الدين، شرح الشافية، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، ١٩٨٢م، ج٦/١.

(١٥) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق، الجمل في النحو، تحقيق ابن أبي شنب، مطبعة باريس، الجزائر، ط٢، ١٩٥٧م.

(١٦) بشر، كمال، دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، مصدر سابق، ص ٨٤.

(١٧) ضيف، شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٤٨م، ص ٤٣، وانظر: أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط٥، ١٩٧٩م، ص١٠٥. وانظر أيضًا: مختار، أحمد عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط٦، ١٩٨٢م، ص ١٠١ - ١٠٤.

(١٨) القلقشنديّ، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٨٧م.

العربيّة وانحصار المعرفة:

كيف ستتحوّل العربيّة إلى مجرّد أداة للاستهلاك العلميّ؟

«اللّسانيات وتحليل الخطاب أنموذجا»

د. ياسين بوراس
باحث وكاتب

إنّ ما يتمّ ملاحظته على البحث العلميّ في الوطن العربيّ خلال كلّ سنة، هو انحصار موضوعات البحث العلميّ باللغة العربيّة، وفي مختلف التّخصصات العلميّة من دون استثناء، سواء ما تعلّق منها بالبحوث العلميّة المكمّلة لنيل شهادات التّخرج، أو الكتب، أو المقالات الموجّهة للنّشر في المجلات، أو التّظاهرات العلميّة، لدرجة تحوّلت معها معظم البحوث العلمية إلى عمل مُكرَّر، بأيّ شكل من الأشكال، سواء بالتّطابق الحرفيّ أو الجزئيّ للموضوع، أو تغيير في مدونة البحث، وغيرها من أشكال التّحايل على الموضوع.

ويتفاقم حجم المشكلة حينما تنتقل هذه الظّاهرة إلى البحث العلميّ في أعلى مستوياته، عند طلبة الماستر والدّكتوراه وكذا الأساتذة الباحثين، ممن يُعوَّل عليهم في تطوير البحث العلميّ على مستوى تخصّصاتهم على الأقلّ، وبخاصّة في مجال اللغة والأدب العربيّ، الذي تُعدُّ العربيّة فيه مادّته الأساس لغة وبحثا، ناهيك عن تخصصات علميّة أخرى تعيش المشكلة ذاتها أو أكثر، وهي انحصار موضوعات البحث العلميّ، أو قلّة الإبداع والابتكار في طرق موضوعات مستجدّة على مستوى البحث العلميّ، ما جعل العربيّة تعيش في عصرها الحاليّ انحصارا معرفيًا مستميتا في حجم المعلومات التي توفّرها باللغة العربيّة عن مختلف موضوعات العلم، مقارنة بغيرها من اللغات العالميّة، بعد أن تحوّلت من مَصْدرٍ للمعرفة إلى مجرّد أداة للاستهلاك العلميّ، من دون أنْ يطرح متخصّصو اللغة العربيّة هذا المشكل على طاولة النّقاش في المؤتمرات العلميّة الوطنيّة أو الدّوليّة، أو يشعروا بخطورته على اللغة العربيّة ومجتمعاتها عامّة. فيا ترى ما سبب هذا الانحصار المعرفيّ للعلوم باللّغة العربيّة، وأيّ التّخصصات العلميّة أكثر عرضة لهذا الانحصار، وما خطره على العربيّة بشكل خاصّ وعلى مجتمعاتها بشكل عامّ؟

بالنّسبة للسّؤال الأوّل حول سبب الانحصار المعرفيّ للعلوم باللغة العربيّة، أو انحصار موضوعات البحث العلميّ باللغة العربيّة، وفي معظم التّخصّصات العلميّة؛ فهو يعود بالدّرجة الأولى إلى عدم مسايرة مستجدّات البحث العلميّ العالميّ، والتي تُعدُّ التّرجمة السّبيل الوحيد لمعرفتها، بحكم أنّ العلم نتاج حضارة، وأنّ تطويره خاضع للتّفكير البشريّ في مختلف الحضارات الإنسانيّة، وبالتّالي فإنّ التّرجمة وحدها هي التي تمكّن من معرفة هذه المستجدّات أو ما يكتب الآخر عن موضوعات العلم، أو تخصّصاتنا العلميّة على الأقلّ، وهي وحدها من تضمن لأصحاب التّخصّص معرفة كلّ مُستجدّ على مستوى البحث العلميّ، في أيّ موضوع من موضوعات العلم. وفي غياب هذا العمل (التّرجمة) أو قلّته في المشهد اللغويّ، يتعذّر علينا بناء موضوعات مستجدّة من شأنها معالجة المشاكل الحقيقيّة للعلم في حدّ ذاته؛ بل سيتحوّل البحث العلميّ كما يقول الفيلسوف محمّد أركون إلى مجرد «رُكَام أو عمل مكرور» مثلما تعرفه معظم البحوث العلميّة في العلوم الإنسانيّة خاصّة بالنّسبة للبحث العلميّ في الوطن العربيّ.

ولإثبات هذه الحقيقة حول انحصار موضوعات البحث العلميّ باللغة العربيّة، بسبب قلّة التّرجمات في الوطن العربيّ، يكفي أنْ نقف على فرعين من تخصّصات العلوم الإنسانيّة، وهما اللسانيات وتحليل الخطاب، من خلال موضوعات البحوث المكلّمة لنيل شهادات التّخرج عند طلبة (الليسانس، والماستر، والدّكتوراه) في الجامعات العربيّة التي تُعدُّ إحدى مراكز البحث العلميّ أو مراكز البحث العلميّ الأساس في المجتمع، ففي مجال اللسانيات وحدها، لا زلنا نتحدّث إلى عهد قريب، عن البنية العميقة والبنية السّطحيّة والتّحويلات الاختياريّة والإجباريّة عند تشومسكيّ، في الوقت الذي تمّ التّخلّي فيه عن مجمل هذه المفاهيم في آخر نموذج للنّظريّة التّوليديّة التّحويليّة، وهو البرنامج الأدنويّ، أو انتقل فيه البحث اللسانيّ من دراسة الأنحاء إلى دراسة المعرفة اللغويّة على اختلاف أنواعها صوتيّة، ونحويّة، ودلاليّة، ومعجميّة، ضمن ما يُسمَّى باللسانيات المعرفيّة (cognitive linguistics) التي تُعْنَى بالآليات التي يشتغل عليها الدّماغ في معرفة اللغة فهما وإنتاجا، ومن الأنحاء اللّغويّة إلى الأنحاء الصّوريّة ضمن ما يسمى باللسانيات الحاسوبيّة (Computational Linguistics) التي تُعنَى بآليات اشتغال الحاسوب على اللغة فهما وإنتاجا كذلك، وفي مجال اللّسانيات الحاسوبيّة من الذّكاء الطّبيعيّ إلى الذّكاء الاصطناعيّ (Artificial intelligence) في معالجة اللغة.

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المدينة الجامعية - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

مبنى مجمع اللغة العربية - الدور الأول

هاتف : +971 6 51 60 400 , فاكس : +971 6 51 60 410 , ص.ب : الشارقة ، 1973

البريد الإلكتروني : info@alashj.ae , الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae

مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

+971 6 511 8118 +971 6 511 8119 P.O. Box: 1873, Sharjah, UAE
info@holyquran.shj.ae www.holyquran.shj.ae